ف. سكوت فيتزجيرالد

غاتسبي العظيم

ترجمة: أسامة منزلجي



ف. سكوت فيتزجيرالد

غاتسبي العظيم

ترجمة
أسامة منزلجي



غاتسبي العظيم

رواية

المؤلف: ف. سكوت فيتزجيرالد
عنوان الكتاب: غاتسبي العظيم
ترجمة: أسامة منزلجي
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 2014

Author: **F. Scott Fitzgerald**
Title: **The Great Gatsby**
Translator: **Ossama Manzaljee**
Cover designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C. : **Al-Mada**
First Edition: **2014**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

إهداء المؤلّف

مرةً أخرى... إلى زيلدا[1]

(١) زيلدا : زوجة الكاتب ف. سكوت فيتزجيراد – المترجم

ثم اعتمِزْ القبعة الذهبية، إنْ كان هذا يؤثّر فيها؛
إنْ استطعتَ أنْ تقفز عالياً، اقفز أيضاً من أجلها،
إلى أنْ تهتف"يا حبيبي، يا صاحب القبعة الذهبية، حبيبي العالي القفز،
يجب أنْ أحظى بك!"

" من قصيدة لتوماس بارك دانفيلييه "

الفصل الأول

خلال سنوات عمري المبكّرة والأشدّ حساسيّة نفحني والدي نصيحة أُقلّبها في عقلي منذ ذلك الحين.

قال لي "كلما شعرتَ برغبةٍ في انتقادِ أحد تذكّر أنَّ الناس في هذا العالم كلّهم لا يتمتعون بالمزايا التي لديك"

لم يقُلْ أي شيء آخر، لكننا كنا دائماً في حالة رائعة من التواصُل بأسلوبٍ متحفّظ، وأدركتُ أنه كان يعني أكثر بكثير مما قال. ونتيجة ذلك، أصبحتُ أحتفظ بأحكامي كلّها، وهذه العادة فتحت أمامي طبائع غريبة عديدة وجعلتْ مني أيضاً ضحيةً لحفنةٍ لا يُستهانُ بها من المُملّين المتمرّسين. والعقل الاستثنائي سريع في تمييز هذه الخصلة والالتصاق بها عندما تظهر في شخصٍ عاديّ، وهكذا أصبحتُ وأنا في الجامعة أُتَّهَم ظلماً بأنني سياسيّ، لاطّلاعي على الأحزان السرّية لأشخاص جامحين، مجهولين. لم أكنْ أسعى إلى مُعظم الأسرار - بل غالباً ما كنتُ أتظاهر بالنوم، أو بالانشغال، أو بالخفّة العدائية عندما أدركُ بإشارةٍ لا ريبَ فيها أنَّ كشفاً عن أمرٍ حميم يلوحُ وامضاً في الأفق؛ ذلك أنَّ الاعترافات الحميمة للشبان، أو على الأقلّ المصطلحات التي يُعبّرون بها عن أنفسهم، هي في المعتاد مُنتَحَلة ومشوّهة بكبتٍ جليّ. والاحتفاظ بالأحكام مسألة تنطوي على أمل غير محدود. ولا أزال أخشى قليلاً فقدان شيء إذا نسيتُ، كما أوحى إليّ والدي بغطرسة، وأكرّره بغطرسة من بعده، أنَّ حساً متأصلاً بالكياسة يوزَّع بلا مساواة عند الولادة.

وبعد المفاخرة بتسامحي هكذا، أصلُ إلى الاعتراف بأنَّ له حداً. قد يكون السلوك مؤسساً على الصخرة الصلبة أو في المستنقعات الرطبة، ولكن بعد نقطة معيَّنة لا أعود آبه بما تأسَّسَ عليه. وفي الخريف الفائت، إبّان عودتي من الشرق شعرتُ بأنّي أريد أنْ يكون العالم منسجماً وفي حالة ما يشبه الانتباه الأخلاقي إلى الأبد؛ لم أعُد أرغب في القيام بنزهات مُستهترة والفوز بامتيازِ إلقاءِ نظراتٍ إلى عمقِ القلبِ الإنساني. وحده غاتسبي، الرجل الذي وهب اسمه لهذا الكتاب، أُعفيَ من ردّة فعلي – غاتسبي، الذي مثَّلَ كل ما ضمرت له ازدراءً صادقاً. وإذا كانت الشخصية هي سلسلة متواصلة من الإيماءات الناجحة، فقد كان يكتنفه شيء رائع، حساسية راقية اتجاه ما تعِدُ به الحياة، وكأنه موصول بإحدى تلك الآلات المُعقَّدة التي تسجّل زلازلَ وقعت على بُعد عشرة أميال. هذه الاستجابة لا صِلة لها بالحساسية الرخوة المُبجّلة تحت اسم "المزاج الخلاّق "– لقد كانت موهبة خارقة في الأمل، استعداداً رومانسياً لم أعرف له مثيلاً في أي شخص آخر ومن المُستبعد أنْ أعثر على غيره مرة أخرى. كلا – لقد اتّضح في النهاية أنَّ غاتسبي كان على ما يُرام؛ ولكن ما كان يُقلِقُ غاتسبي، ويُعكِّر صفو أحلامه هو الذي أخمد اهتمامي موقتاً بأحزان البشر المُجهَضَة وتيههم القصير النَفَس.

كانت عائلتي من الأثرياء البارزين، تُقيم في هذه المدينة من الغرب الأوسط منذ ثلاثة أجيال. وآل كاراواي يُشكلون ما يُشبه العشيرة، ولدينا تُراثٌ يقول إننا انحدرنا من دوقات بوكليتش، لكنَّ المؤسِّس الفعلي لسلالتي كان شقيق جدّي، الذي جاء إلى هنا في عام واحد وخمسين، وأرسل بديلاً عنه ليخوض الحرب الأهلية، ثم باشر في تجارة الخُردة بالجُملة التي يستمر فيها والدي اليوم.

أنا لم أر عمي الأكبر ذاك أبداً، ولكن أعتقد أني أشبهه – بالعودة إلى اللوحة المرسومة بواقعية صارمة والمُعلَّقة في غرفة مكتب والدي. وقد

تخرَّجت من جامعة نيو هيفن في عام ١٩١٥، بعد تخرُّج والدي منها بربع قرنٍ فقط، وبعد ذلك بقليل ساهمتُ في تلك الهجرة التيوتونية المتأخرة المعروفة باسم الحرب العُظمى. وقد استمتعت بالهجوم المُضاد أيّما استمتاع حتى أني عدتُ وأنا إنسان قلِق. وبدل أنْ أجد الغرب الأوسط مركز العالم الدافئ، بدا أشبه بحافة الكون المتهرّئة - فقرَّرتُ أنْ أرحل إلى الشرق وأتعلَّم مجال بيع السندات. كل مَنْ عرفتهم كانوا يعملون في مجال بيع السندات، لذا اعتقدتُ أنَّ ذلك سيفيد شخصاً يعيشُ وحيداً في معيشته. وتحدثت عمّاتي وأعمامي كلهم بهذا الشأنْ وكأنهم ينتقون لي المدرسة الإعدادية التي سأنتسب إليها، وأخيراً قالوا "نعم - ولِمَ لا" وعلى وجوههم تعبيرات غاية في الجدية، والتردُّد. ووافقَ والدي على تمويلي مدة عام، وبعد فترات تأخير عديدة قدِمتُ إلى الشرق، لأستقرّ إلى الأبد، كما اعتقدتُ، في ربيع عام ١٩٢٢.

كان الإجراء العملي هو أنْ أعثر على مكان للإقامة في المدينة، لكنه كان فصلاً دافئاً، وكنتُ قد غادرت تواً ريفاً من المروج الشاسعة والأشجار الأليفة، لذا عندما اقترح شابٌ في المكتب أنْ نستأجر منزلاً نقيمُ فيه معاً في بلدةٍ مجاورة بدت فكرة عظيمة. وعثر على المنزل، وكان بيتاً بائساً من البنغالو الهشّ بإيجار ثمانين دولاراً في الشهر، ولكن قبل انتقالنا إليه مباشرة أَمَرَته الشركة بالانتقال إلى واشنطن، وعدتُ أنا إلى الريف وحدي. كان لديّ كلب - على الأقلّ احتفظت به بضعة أيام قبل أنْ يهرب - وسيارة دودج عتيقة وامرأة فنلندية ترتّب لي سريري وتُعدّ طعام الإفطار وتتمتم لنفسها حكمة فنلندية وهي منحنية على المدفأة الكهربائية.

بقيتُ وحيداً يوماً وبعض اليوم إلى أنْ كان صباح أحد الأيام عندما استوقفني رجل، كان قد وصل حديثاً، في الطريق.

سألني بيأس "كيف أصل إلى قرية ويست إيغ؟"

أخبرته. وعندما تابعت طريقي لم أعُد أشعر بالوحدة. كنتُ دليلاً ومُرشد طريق، ومُقيماً أصيلاً. وقد منحني دون قصد حريةً يتمتع بها أهل الحي.

وهكذا، مع إشراق الشمس والتفجّر العظيم للأوراق الخضراء النامية على الأشجار، كما تنمو الأشياء بسرعة في الأفلام السينمائية، تملّكني ذلك الإيمان الأليف بأنَّ الحياة قد بدأتْ من جديد مع بداية فصل الصيف.

كان هناك الكثير لأقرأه، هذا من ناحية، والكثير من الصحة الجيدة لأستمدها من الهواء المنعش. اشتريت مجموعة من الكتب تحكي عن العمل المصرفي والائتمان وضمانات توظيف الأموال، اصطفّت بأغلفة حمراء وفضّية على الرف كأوراق مالية خرجت حديثاً من مصنع صكّ العملة، تعِدُ بأنْ تكشِف عن أسرارها المُشعّة التي لا يعرفها إلا ميناس ومورغان وميسيناس[٢]. وكنتُ أنوي بعزم أنْ أقرأ العديد من الكتب الأخرى بالإضافة إليها. وفي الجامعة كنتُ أميل أكثر إلى الأدب – وفي إحدى السنوات كتبتُ سلسلة من المقالات الافتتاحية المغرقة في الجدية والوضوح لصالح صحيفة ييل نيوز – والآن أنوي أنْ أُعيد كل تلك الأشياء إلى حياتي وأصبح من جديد أشد المتخصّصين محدوديةً، و "رجلاً شاملاً". إنَّ هذا ليس مجرد كلام مُنمّق – فالحياة، قبل كل شيء، تُرى بشكلٍ أفضل من نافذة واحدة.

شاء الحظ أنْ أستأجر منزلاً في أحد أغرب التجمعات السكّانية في شمال أميركا، في تلك الجزيرة الصاخبة، الضيقة التي تمتد نحو مدينة نيويورك – التي تضم، بالإضافة إلى غرائب طبيعية أخرى، تشكيلتين

(٢) ثلاث شخصيات من التاريخ القديم والحديث معروفة بثرائها الفاحش وعشقها الجنوني للمال. – المترجم

غريبتين من الأرض. فعلى بُعد عشرين ميلاً من المدينة تبرز بيضتان ضخمتان، متطابقتان في المحيط لا يفصل بينهما إلا خليج لطيف، نحو أشد المياه المالحة ألفة في النصف الغربي من الكرة الأرضية، الفناء الرطب العظيم للونغ أيلند ساوند. وهما ليستا كاملتيّ الاستدارة - كالبيضة التي وردت في قصة كولومبوس، بل مسحوقتان تماماً عند طرف نقطة الاتّصال - ولكن لابد أنَّ تشابههما في الصورة يُشكّل مصدر تعجُّب دائم لطيور النورس التي تطير فوق الرؤوس. أما بالنسبة لمَنْ لا أجنحة لهم فمثّلتا ظاهرةً مُثيرة للاهتمام في تنافرهما في كل شيء ما عدا الشكل والحجم.

وقد أقمتُ أنا جهة البيضة الغربية، الـ - يعني، أقلّ رُقيّاً بين الاثنتين، على الرغم من أنَّ هذا أشدّ الأساليب سطحيةً للتعبير عن الفرق العجيب والشديد الشؤم بينهما. وكان منزلي يقعُ على قمة البيضة، ولا يبعد عن ساوند أكثر من خمسين ياردة، ومحشور بين العقارَين الضخمين اللذَين يبلغ إيجارهما اثنا عشر أو خمسة عشر ألف دولار في الموسم. الذي على يميني كان بناءً ضخماً بكل المعايير - كان تقليداً حقيقياً لأوتيل دو فيل في النورماندي، يضمُّ برجاً على أحد جوانبه، يبرزُ جديداً تحت لحية خفيفة من اللبلاب البرّي، وبركة سباحة من الرخام، وأكثر من أربعين أكر من المروج والحدائق. إنه قصر غاتسبي. أو، بالأحرى، كما عرفتُ السيد غاتسبي، كان قصراً يسكنه سيد يحمل ذلك الاسم. أما منزلي فكان كقذى صغير في العين، ولا يجذب نظر أحد، وهكذا حظيتُ برؤية الماء، وبمنظر جزئي لمرج جاري، وبعزاء قُربي من أصحاب الملايين - وكل ذلك مقابل ثمانين دولاراً في الشهر.

على الجانب المقابل من الخليج الأليف تلألأت القصور البيضاء الراقية ناحية البيضة الشرقية على طول الواجهة المائية، وتاريخ الصيف

يبدأ حقاً في الليلة التي انتقلت فيها بالسيارة لأتناول طعام العشاء مع آل توم بيوكانن. كانت ديزي تمتُّ لي بقرابة بعيدة، وتعرَّفتُ على توم في الجامعة. وبُعيد انتهاء الحرب أمضيت معه يومين في شيكاغو.

كان زوجها، من بين إنجازاته الجسدية المتنوعة، أحد أقوى لاعبي طرفيّ الدفاع الذين لعبوا كرة القدم في نيو هيفن - وشخصية وطنية بصورة ما، وأحد الرجال الذين يبلغون مرتبة ممتازة محدودة وحادّة في سن الحادية والعشرين بحيث أنَّ كل شيء بعد ذلك يبدو لهم تافهاً. كانت عائلته فاحشة الثراء - حتى وهو في الجامعة كان إسرافه في إنفاق النقود سبباً لتأنيبه - لكنه الآن غادر شيكاغو وقدِمَ إلى الشرق بطريقة تحبس الأنفاس: فمثلاً، جلب معه سلسلة من جياد لعبة البولو من ليك فوريست. وكان صعباً استيعاب أنَّ رجلاً من جيلي من فرط الثراء بحيث يفعل ذلك.

لا أعلمُ سببَ انتقالهم إلى الشرق. كانوا قد أمضوا عاماً في فرنسا بدون إبداء سبب معيَّن، ومن ثم أخذوا يتنقّلون هنا وهناك بقلق إلى حيثما وُجِد أناسٌ يلعبون البولو وكانوا من الأثرياء أيضاً. قالت ديزي عبر الهاتف، هذا الانتقال دائم، لكني لم أصدِّقها - أنا لا أعرف ما في قلب ديزي، لكنني شعرتُ أنَّ توم سوف يتنقَّل إلى الأبد، بشيءٍ من الحزن، بحثاً عن اضطرابِ درامي لمباراة كرة قدم لا يمكن استعادتها.

وهكذا حدث أنْ قدتُ سيارتي ذات أمسية دافئة وعاصفة إلى البيضة الشرقية لأقابل اثنين من أصدقائي القدامى اللذَين أكاد لا أعرفهما. كان منزلهما أشدّ أناقة مما توقعت، قصراً من النمط الجورجي الكولونيالي يطغى عليه اللونان الأحمر والأبيض البهيجان، يطل على الخليج. المرج يبدأ من الشاطئ ويمتد نحو الباب الأمامي على مدى ربع ميل، ويقفز فوق مزولات وممرات قرميدية وحدائق متوهّجة بالأزهار - وأخيراً

عندما يصل إلى المنزل يمتد أعلى جانب كروم برّاقة وكأنما بفعلِ زخمِ اندفاعها. كان يقطع الواجهة صفٌ من النوافذ الفرنسية، التي تتوهج الآنَ بانعكاس الضوء الذهبي ومفتوحة واسعاً على بعد ظهيرة دافئة وعاصفة، وكان توم بيوكانن بملابس ركوب الخيل يقفُ متباعد الساقين على الشرفة الأمامية.

كان قد تغيَّر منذ سنوات نيو هيفن. الآن أصبح رجلاً متين البُنية ذا شعرٍ أصهب في الثلاثين من عمره، بفمٍ صارم وسلوكٍ متكبِّر. عيناه اللتان تشعّان غطرسةً كانتا تسيطران على وجهه وتجعلانه يبدو دائماً كأنه يميل إلى الأمام بعدوانيّة. لم تتمكن حتى ملابس الركوب ذات الأناقة الأنثوية أنْ تُخفي القوة الهائلة التي تكمن في ذلك الجسد - لقد بدا أنه يملأُ تلك الجزمة العالية الساق اللامعة إلى درجة الشدّ على الرباط العِلوي، وكان في الإمكان رؤية مدى ضخامة العضلات من تنقّلها عندما حرَّك كتفه تحت معطفه الرقيق. كان جسداً ذا قدرة هائلة، جسداً قاسياً.

صوته في الكلام، وهو صوت عالٍ أجش وخشن، زاد من انطباع الصرامة التي أوحى بها. كان فيه لمسة من الامتعاض الأبويّ، حتى نحو الأشخاص الذين يُحبّهم - وكان هناك في نيو هيفن رجال يكرهونه بشدة.

بدا كأنه يقول "الآن، لا تظن أنَّ رأيي في مثل هذه الأمور نهائيّ لمجرَّد أني أقوى منك وأكثر رجولة". كنا ننتمي إلى فئة المتقدّمين ذاتها، وفي حين أنه لم تكن علاقتنا حميمة إلا أنه طالما تكوَّن لديَّ انطباع بأنَّ رأيه فيَّ حسنٌ وأراد أنْ يُثير إعجابي بحزنٍ متحدٍ، خشنٍ خاص به.

تمشّينا بضع دقائق على الشرفة المُشمسة.

قال، وعيناه تومضان بقلق، "لدي مكان لطيف هنا"

ثم أدارني بذراعٍ واحدة، وحرَّكَ يداً عريضة ومسطّحة على طول المشهد العام الأماميّ، شاملاً بحركتها حديقة إيطالية منخفضة، ومساحة نصف أكر من الورود القانية اللون، والنفّاذة الرائحة، وقارباً بخارياً أفطس الأنف يدفع بحركة المدّ على الشاطئ.

أدارني من جديد، وقال بأدب وعلى عجَل، "إنها مُلك دومين، صاحب آبار النفط. هيا بنا إلى الداخل"

مشينا على طول رواق طويل وولجنا فُسحة مُضاءة ورديّة اللون، ترتبط بالمنزل بشكلٍ هشّ بنوافذ فرنسية على كِلا الطرفَين. كانت النوافذ مفتوحة قليلاً وينعكس بياضها الساطع على العشب النضر في الخارج الذي بدا أنَّ نموّه امتد قليلاً داخل المنزل. هبَّ نسيم إلى داخل الغرفة، دافعاً بالستائر تارةً نحو الداخل وأخرى نحو الخارج كبيارق باهتة اللون، يلويها عالياً نحو السقف المُصمَّم على هيئة كعكة زفاف متجمّدة، ومن ثم جعل البساط ذا اللون الخمري يتماوج، مُشكلاً عليه ظِلاً كما تفعل الريح بالبحر.

الغرض الوحيد الثابت تماماً في الغرفة كان أريكةً ضخمة تعوم عليها امرأتان شابتان كأنما على بالونٍ راسٍ. كانتا معاً ترتديان اللون الأبيض وكانت ملابسهما تتماوج وترفرفُ وكأنها تطير عائدة بعد أنْ قامت بطيران قصير حول المنزل. ولابد أني وقفتُ بضع لحظات أصغي إلى سوط الستائر وفرقعتها وإلى أنين لوحة مُعلّقة على الجدار. ثم سُمِعَ صوت انفجار عندما أغلقَ توم بيوكانن النوافذ الخلفية فخمدت الرياح الحبيسة داخل الغرفة، واستقرَّت حركة الستائر والبُسُط والشابتان ببطء.

أصغرهما سناً كانت غريبة عليّ. كانت متمددة على كامل طولها على طرفها من الديوان، وساكنة تماماً، وذقنها مرفوعة قليلاً، وكأنها

توازن شيئاً عليها ممكن أنْ يسقط. وإذا رأتني من زاوية عينها لم تُبدِ أي دلالة على ذلك – والحق أني كدتُ فجأةً أغمغمُ باعتذارٍ لأني أزعجتها بدخولي.

الفتاة الأخرى، ديزي، قامت بمحاولة للنهوض – مالت قليلاً نحو الأمام مع تعبير خجول – ثم ضحكت، ضحكة صغيرة فاتنة وسخيفة، فضحكتُ بدوري وتقدَّمت داخل الغرفة.

"أنا مشـ – مشلولة من فرط السعادة"

ضحكت من جديد، وكأنها قالت شيئاً ظريفاً جداً، وأمسكت بيدي برهة وهي ترفع بصرها إلى وجهي، وتعِدُ بأنه ليس هناك في العالم مَنْ ترغب في رؤيته بشدة قدر رغبتها في رؤيتي. ذلك كان أسلوبها. وغمغمت بملاحظة مفادها أنَّ كنية الفتاة التي تقوم بحركة التوازن هو بيكر. (كنتُ قد سمعتُ أنَّ ديزي تهمس لكي تجعل مَنْ يسمعها يميل نحوها؛ وهو نقد غير ذي بال لم يُقلِّل من فتنتها)

على أي حال، تحرَّكت شفتا مس بيكر، وأومأت إليّ بحركة تكاد لا تُلاحَظ، ومن ثم عادت بسرعة إلى رفع ذقنها من جديد – من الواضح أنَّ الشيء الذي كانت توازنه ترنَّحَ قليلاً وبثَّ فيها شيئاً من الخوف. ومن جديد صدر من بين شفتيّ ما يُشبه الاعتذار. كان أي استعراض للاكتفاء التام بالذات يُثير تقديري الفائق.

التفتُّ إلى قريبتي، التي بدأت تطرح عليّ أسئلة بصوتها المنخفض، الشجيّ؛ صوت تتبع الأذن تموّجه، وكأنَّ كل حديث هو منظومة من النغمات لن تُعزّف ثانية. كان وجهها حزيناً وجميلاً بما يحتويه من أشياء برّاقة، عينين برّاقتين وفماً شهوانياً برّاقاً، ولكن كانت هناك إثارة في صوتها يصعبُ على الرجال الذين يهتمون بأمرها نسيانه : إكراهٌ على الغناء، كمَنْ يهمس "أصغ"؛ وعدٌ بأشياء مثيرة ومرحة قامت بها قبل قليل، وبأشياء مُثيرة ومرحة ستقوم بها خلال الساعة التالية.

أخبرتها كيف توقفت في شيكاغو مدة يوم في طريقي نحو الشرق، وعن الناس الذين حمّلوني حبّهم لها.

هتفت بنشوة "هل اشتاقوا إليّ؟"

"المدينة بأكملها مكتئبة. السيارات كلها دهنت دولابها الخلفي الأيسر باللون الأسود كإكليل الحِداد، ويُسمَع العويل المتواصل كوال الليل على طول الشاطئ الشمالي"

"ما أروع هذا! هيا نعود، يا توم. غداً!"، ثم أضافتْ بلا داعٍ، "يجب أنْ ترى الطفلة"

"أودُ ذلك"

"إنها نائمة. عمرها ثلاث سنوات. ألم ترها أبداً؟"

"أبداً"

"حسن، يجب أنْ تراها. إنها -"

توم بيوكانن، الذي كان يحوم حول الغرفة بقلق، توقف ووضعَ يده على كتفي.

"ماذا تعمل، يا نيك؟"

"أنا أعمل في مجال السندات"

"مع مَنْ؟"

أخبرته.

علّقَ بحزم "لم أسمع بهم"

أزعجني ذلك.

أجبتُ باقتضاب "سوف تسمع. سوف تسمع إذا مكثتَ في الشرق"

قال، وهو يرمق ديزي ومن ثم ينظر إليّ من جديد، "أوه، سوف أمكثُ في الشرق، لا تقلق. أكون أحمق لعيناً إذا عشتُ في مكان آخر"

عند هذه النقطة قالت مس بيكر "دون أدنى شك!"، بفُجاءة أجفلتني – كانت أول كلمة تنطقها منذ أنْ ولجتُ الغرفة. ومن الواضح أنها فوجئتْ بقدر ما فوجئتُ، لأنها تثاءبت وبسلسلة من الحركات السريعة، رشيقة، نهضت واقفة في الغرفة.

تذمّرتْ "جسمي متيبِّس. إنني أستلقي على تلك الصوفا منذ وقتٍ طويل حسب ما أتذكّر"

ردَّتْ ديزي "لا تنظري إليّ، كنتُ أحاول طوال فترة بعد الظهر أنْ أدفعكِ إلى الذهاب إلى نيويورك"

قالت مس بيكر حين قُدِّمَتْ لها كؤوس الكوكتيل آتية مباشرة من غرفة المؤن "كلا، شكراً، إنني في حالة تمرين صارمة"

نظر إليها مُضيفها غير مُصدِّق.

"أحقاً!"، وتناول كأسه وجرع محتواه وكأنه نقطة في قعره، "لا أفهم كيف يمكنكِ أنْ تنجزي أي شيء"

نظرتُ إلى مس بيكر، مُتسائلاً ما الذي "تنجزه". كنتُ أستمتع بالنظر إليها. كانت فتاة نحيلة القوام، صغيرة الثديين، وِقفتها المُنتصبة تزيدها انتصاباً برمي جسمها نحو الخلف عند الكتفَين كطالب في كلية حربية. عيناها الرماديتان بادلتاني النظر بفضولٍ مهذّب متبادل من وجهٍ سقيم، فاتن وساخط. وتبدّى لي عندئذٍ أنه سبق لي أنْ رأيتها، أو شاهدتُ صورة لها، في مكانٍ ما من قبل.

علَّقَتْ باشمئزاز "أنت تعيش في ويست إيغ (البيضة الغربية). أنا أعرف شخصاً يُقيمُ هناك"

"أنا لا أعرف أحداً"

"لابد أنكَ تعرف غاتسبي "

سألت ديزي "غاتسبي؟ أي غاتسبي؟"

قبل أنْ أتمكّن من الإجابة بالقول إنه جاري أُعلِنَ أنَّ العشاء بات جاهزاً؛ أقحمَ توم بيوكانن ذراعه القوية بحركة مُلِحّة تحت ذراعي، وجرّني خارج الغرفة وكأنه يُحرِّك حجر داما إلى مُربّعٍ آخر.

تقدَّمتنا الشابتان، بخُطى هيفاء، بطيئة، وهما تضعان أيديهما برشاقة على وركيهما إلى الشرفة ذات اللون الوردي، المفتوحة نحو غروب الشمس، حيث أربع شموع تخفق على المائدة في وجه الريح التي خفّت سرعتها.

اعترضت ديزي، عابسة، "لماذا شموع؟"، وأطفأتها بإصبعيها، "بعد أسبوعَين سيحل أطول يوم في العام". وأخذت تنظر إلينا بإشراق. "هل دائماً تنتظرون أطول يوم في العام ومن ثم يفوتكم؟ أنا دائماً أترقّب أطول يوم في العام ومن ثم يفوتني"

"يجب أنْ نُخطط للقيام بشيء "قالت هذا وتثاءبت وهي تجلس على المائدة وكأنها تستلقي على السرير.

قالت ديزي "حسن، ماذا سنخطّط؟"، والتفتت إليّ بنظرة يائسة، "ما الذي يُخطط له الناس؟"

قبل أنْ أتمكّن من الإجابة ثبّتت عيناها مع تعبير جزع على إصبعها الصغير.

تذمّرت "انظر! لقد آذيته"

نظرنا جميعاً – كانت البرجمة سوداء وزرقاء.

قالت مُتَّهِمةً "أنت فعلتها، يا توم. أعلم أنكَ لم تكن تقصد، ولكن أنتَ فعلتها. هذا ما أناله من الزواج من رجلٍ متوحش، جثة ضخمة، هائلة، كبيرة –"

اعترضَ توم مُقاطعاً "أنا أكره كلمة جثة، حتى إذا كانت مُزاحاً"

أصرّت ديزي "جثة"

أحياناً كانت هي ومس بيكر تتكلمان دفعةً واحدة، حديثاً خالياً من الفضول وبلا اهتمام مازح ليس بالضبط ثرثرة، وهادئاً كبياض ثوبيهما وعيونهما الحيادية في غياب أي رغبة. كانتا هناك، وقبِلتا وجود توم ووجودي، ولم تبذلا إلا جهداً ظريفاً مؤدباً لتسليانا أو تتسليان. كانتا تعلمان أنَّ وجبة العشاء سوف تنتهي وستنتهي أيضاً الأمسية بعد ذلك بقليل وتُنسى بلا مبالاة. كان الوضع مختلفاً تماماً عما هو عليه في الجهة الغربية، حيث تتنقَّل الأمسية بسرعة من مرحلة إلى أخرى لتصل إلى خِتامها، بتوقُّعٍ خائب باستمرار أو فقط بخوفٍ متوتر من اللحظة ذاتها.

قلت مُعترفاً، بعد شرب الكأس الثانية من خمر فرنسي خفيف ولكن مؤثِّر، "إنكِ تجعلينني أشعر أني غير مُتحضِّر، يا ديزي. ألا نستطيع أنْ نتحدث عن المحاصيل أو شيء ما؟"

لم أعنِ شيئاً بعينه بملاحظتي، لكنها قُبِلَتْ بصورة غير متوقّعة.

انفجرَ توم قائلاً بعنف "إنَّ الحضارة تنهار. لقد أصبحت متشائماً بشكلٍ رهيب من كل شيء. هل قرأتَ "نشوء الإمبراطوريات الملوَّنة "الذي ألَّفه رجل يُدعى غدارد؟"

أجبتُ، وقد دُهِشتُ لنبرة صوته، "كلا، لماذا"

"حسن، إنه كتاب جيد، وعلى الجميع أنْ يقرؤوه. وفكرته هي أننا إذا لم نأخذ حذرنا فإنَّ العزق الأبيض سوف – سوف يندثر تماماً. الأمر محسوب عِلمياً؛ مُبرهنٌ عليه"

قالت ديزي، مع تعبير من الحزن الشارد، "إنَّ توم يزداد عمقاً. إنه يقرأ كتباً عميقة تحتوي كلمات طويلة. ما تلك الكلمة التي"

أصرَّ توم، وهو ينظر إليها بنزَق، "حسن، تلك الكتب كلها علميّة. وهذا الكاتب وضعَ حلاً للأمر كله. الأمر منوط بنا، نحن العرق المُهيمن، لكي نأخذ حذرنا وإلا فإنَّ الأعراق الأخرى ستتحكّم فينا"

همستْ ديزي، وهي تطرف بعينيها بشدّة في وجه الشمس المتوهّجة، "يجب أنْ نهزمهم"

باشرت مس بيكر بالقول "يجب أنْ تعيشا في كاليفورنيا –"، لكنَّ توم قاطعها بتعديل جلسته بحركة ثقيلة على الكرسي.

"المشكلة هي أننا من أهل الشمال. أنا، وأنت، وأنت، و – "وبعد برهة قصيرة من التردُّد أضاف ديزي مع إيماءة قصيرة من رأسه، فغمزت بعينها لي من جديد. "– وقد أنتجنا كل الأشياء التي تُكوِّنُ حضارة – أوه، العلِم والفن، وكل ذلك. أتفهمين؟"

كان في تركيزه شيء يدعو إلى الرثاء، وكأنَّ رضاه عن نفسه، الذي أصبح أكثر حِدّة من ذي قبل، لم يعُد يكفيه. وعندما رنَّ جرس الهاتف في الداخل، فوراً تقريباً، وغادر الساقي الشرفة انتهزتْ ديزي فرصة الانقطاع اللحظيّة ومالتْ نحوي.

همست بحماس "سأبوح لك بسرٍ عائليّ. إنه بشأن أنف الساقي. هل ترغب في سماع حكاية أنف الساقي؟"

"هذا هو سبب مجيئي هذه الليلة"

"حسن، إنه لم يكن دائماً ساقياً؛ بل كان يعمل مُلمّعاً للفضّة لصالح أناسٍ في نيويورك كانوا يُلمّعون الفضة لمئتيّ شخص. كان عليه أنْ يقوم بالتلميع من الصباح وحتى المساء، إلى أنْ بدأ عمله يؤثّر على أنفه –"

اقترحت مس بيكر "وأخذت الأمور تزدادُ سوءاً على سوء"

"نعم. ازدادت الأمور من سيئ إلى أسوأ، فاضطرّ إلى التخلّي عن عمله"

سقط آخر شعاع من الشمس الغاربة برهة بأثر رومانسي على وجهها المتورّد؛ واضطرَّني صوتها للميل نحو الأمام لأصغي وأنا محبوس الأنفاس – ثم خبا التوهُّج، وكل شعاع تخلّى عنها بندمٍ متلكّئ، كأطفالٍ يُغادرون شارعاً ممتعاً عند الغسق.

عاد الساقي وغمغمُ بشيء بالقرب من أُذُن توم، وعلى الأثر تجهَّم توم، ودفعَ كرسيه إلى الخلف، وبدون أنْ ينطق بأي كلمة ولجَ إلى الداخل. ومن جديد مالت ديزي إلى الأمام، وكأنَّ غيابه يُحفِّز شيئاً داخلها، وقالت بصوتها المتوهِّج والمُغرِّد:

"أحبُّ أنْ أراكَ على مائدتي، يا نيك. إنكَ تذكِّرني بـ – بوردة، بوردة صِرف. أليس كذلك؟ "قالت ذلك والتفتت نحو مس بيكر طلباً للموافقة: "أليس وردة صِرفاً؟"

كان ذلك غير صحيح. إنني حتى لا أقترب من التشبُّه بالوردة. كانت فقط ترتجل، لكنَّ دفئاً مُثيراً فاضَ منها، وكأنَّ قلبها يُحاول أنْ يخرج إليك مُستتراً بإحدى تلك الكلمات المُثيرة، اللاهثة. وفجأةً رمت فوطتها على المائدة واستأذنت وولجت المنزل.

تبادلتُ مع مس بيكر بخجل نظرة مقتضبَة خالية من المعنى. وهممتُ بالتكلُّم عندما نهضتْ واقفة فجأةً وقالت "هسس!" بصوتٍ مُحذِّر. كانت هناك غمغمة حادّة مكبوتة صادرة عن الغرفة البعيدة، ومالت مس بيكر إلى الأمام دون حس بالخجل، تحاول أنْ تسمع. ارتعشَت الغمغمة على شفا التناسُق، وغاصَتْ، وارتفعتْ بحماس، ومن ثم سكتت تماماً.

باشرت بالقول "السيد غاتسبي هذا الذي أتيتِ على ذِكره هو جاري"

"لا تتكلَّم. أريد أنْ أسمع ما يحدث"

سألتُ ببراءة "هل يحدث شيء؟"

قالت مس بيكر، مُبدية دهشة صادقة، "تعني أنْ تقول إنكَ لا تعلم؟ حسبتُ أنَّ الجميع يعلمون"

"أنا لا أعلم"

قالت بتردُّد "ولَوْ - إنَّ توم على علاقة بامرأة في نيويورك"

كرَّرتُ ببلادة "لديه امرأة؟"

هزّت مس بيكر رأسها إيجاباً.

"كان ينبغي أنْ تتحلّى بالكياسة بحيث لا تتصل به في موعد العشاء. ألا تعتقد؟"

قبل أنْ استوعب ما عنته سمعت حفيف ثوب وسحق حذاء جلدي، وعاد توم مع ديزي إلى المائدة.

هتفتْ ديزي بمرحٍ متوتر "كان لابد من ذلك!"

جلستْ، وألقَتْ نظرة مُستفهمة على مس بيكر ومن ثم عليّ، وتابعَتْ "نظرتُ برهة إلى الخارج، وكان المنظر في الخارج شديد الرومانسية. هناك طائر على المرج أعتقد أنه عندليب جاء على متن سفينة كونارد أو وايت ستار. كان يُغرّد طوال الوقت -"، وغرَّدَ صوتها : "كم هو رومانسي، أليس كذلك، يا توم؟"

قال "رومانسي جداً"، ثم قال لي بنبرة بائسة "إذا بقيَ هناك نور كاف بعد العشاء أريد أنْ آخذكَ إلى الإسطبلات"

رنَّ جرس الهاتف في الداخل، بشكلٍ مُجفِل، وعندما هزَّتْ ديزي رأسها بحركةِ رفضٍ حاسم لتوم تبخَّرَ موضوع الإسطبلات، بل المواضيع كلها، في الهواء. ومن بين بقايا ما أتذكّره عن الخمس دقائق الأخيرة على طاولة المائدة أذكُر أنَّ الشموع أُضيئت من جديد، بلا سبب، وانتابتني

رغبة في النظر مباشرةً إلى كل شخص، وأيضاً في أنْ أتجنَّب العيون كلها. لم أتمكن من التكهُّن بما كانت ديزي وتوم يفكران فيه، لكنني أشك في أنه حتى مس بيكر، التي بدا أنها بارعة في ضمر قدرٍ من الشك الجريء، كانت قادرة بشكلٍ تام على طرح الرنين المُلِحّ لذلك الضيف الخامس الحادّ والمعدني من ذهنها. ربما بالنسبة إلى صاحب مزاج خاص كان ذلك الموقف سيبدو مُحيّراً - أما غريزتي الخاصة فكانت ستدفعني في الحال إلى الاتصال برجال الشرطة.

لا حاجة إلى القول إنَّ الجياد لم تُذكَّر بعد ذلك. وتمشّى توم ومس بيكر، يفصل بينهما عِدة أقدام من نور الغسق، عائدَين إلى المكتبة، وكأنما ليسهران بجوار جثة ملموسة بكل معنى الكلمة، في حين أني تبعتُ ديزي، في محاولةٍ للظهور بمظهر المُهتمّ المُسلّي والأصمّ قليلاً، في جولة بين سلسلة من الشرفات المُتّصلة بالشرفة الأمامية. ووسط جوّها الشديد الكآبة جلسنا جنباً إلى جنب على مقعد مجدول.

ضمَّت ديزي وجهها بين يديها وكأنها تتحسَّس شكله الجميل، وتحرّكت عيناها تدريجياً تستكشِف الغسق المخمليّ. ولاحظتُ المشاعر المضطربة التي تتملّكها، فطرحتُ ما اعتقدتُ أنه قد يبدو أسئلةً مُهدِّئة عن طفلتها الصغيرة.

قالت فجأةً "إننا لا نعرف أحدنا الآخر معرفة جيدة، يا نيك. مع أننا أقرباء. وأنت لم تحضر يوم زفافي"

"لم أكن قد عُدتُ بعد من الحرب"

قالت بعد تردُّد "هذا صحيح. في الواقع، لقد قضيتُ وقتاً عصيباً جداً، يا نيك، وأنا متشائمة جداً من كل شيء"

لا شك في أنّه كان لديها سبب وجيه لذلك. وانتظرت لكنها لم تُضِف أي شيء، وبعد قليل عدتُ بشكلٍ باهت إلى موضوع ابنتها.

"أعتقد أنها باتت تتكلّم، و - تأكل، وكل شيء"

نظرتْ إليّ بشرود "أوه، نعم. اسمع، يا نيك؛ دعني أخبرك ماذا قلتُ عندما أنجبتها. هل تحب أنْ تسمع؟"

"أحب كثيراً"

"سوف يُبيّن لك طبيعة شعوري حيال - الأشياء. لم يكن قد مضى على ولادتها ساعة من الزمن وتوم غائب لا يعلمُ غير الله أين هو. وعندما أفقتُ من أثر المُخدِّر مع إحساسٍ بالخذلان، وسألتُ الممرضة على الفور إنْ كان صبياً أم بنتاً. فأخبرتني أنها بنت، فأشحت بوجهي جانباً وبكيت. قلت "لا بأس، أنا سعيدة لأنها بنت. وآمل أنْ تصبحَ حمقاء - هذا أفضل ما يمكن لفتاة أنْ تكونه في العالم، حمقاء صغيرة جميلة"

ثم تابعَتْ بطريقة مُقنِعة "في الواقع أعتقد أنَّ كل شيء فظيع في كل الأحوال. الجميع يعتقدون ذلك - أشدّ الناس تطوّراً. وأنا متأكّدة من ذلك. لقد ذهبتُ إلى كل مكان وشاهدتُ كل شيء وفعلتُ كل شيء". وَمَضَتْ عيناها في كل اتّجاه بتحدٍّ، كعينيّ توم، وضحكتْ بنبرة استهزاء مُثير "أنا راقية - يا إلهي كم أنا راقية!"

حالما سكتَ صوتها، وكفَّ عن سلب انتباهي، إيماني، شعرتُ بالكذب الأساسي لكلامها. جعلتني أشعر بالاضطراب، وكأنَّ الأمسية كلها كانت خدعة بصورة ما الهدف منها انتزاع مشاركة عاطفية مني. انتظرتُ، وفعلاً، في غضون لحظة نظرتْ إليّ وعلى وجهها الجميل ابتسامة متكلِّفة صِرف، وكأنها أكَّدتْ على عضويتها في جمعيّة سرّيّة متميِّزة تنتسبُ إليها هي وتوم.

في الداخل، أشرقت الغرفة القرمزية اللون بالأضواء. جلسَ توم ومس

بيكر على كلا طرفَيّ أريكة طويلة وراحت تقرأ له بصوتٍ عالٍ من مجلة "ساترداي إيفننغ بوست "- انسابت الكلمات، مهموسة ورتيبة، بنغمة مُهدِّئة. سقط ضوء المصباح، برّاقاً على حذائه الطويل وكليلاً على صِفرة شعرها الخريفية، على طول الورقة وهي تقلب الصفحة بارتعاش عضلات ذراعيها الرقيقة.

عندما دخلنا أسكتتنا برهة برفع يدها.

قالت، وهي ترمي بالمجلة على الطاولة، "سوف نتابع في العدد التالي"

أكَّدَ جسمها نفسه بحركة قلقة من رُكبتها، ونهضَتْ واقفة.

علَّقَتْ، وكان جلياً أنها قرأتْ الوقت على السقف "إنها الساعة العاشرة. حان الوقت لهذه الفتاة الطيبة أنْ تأوي إلى السرير"

شرحَتْ ديزي "جوردان ستعزف في المسابقة غداً، في ويستشستر"

"أوه – أنتِ جوردان بيكر"

عندئذٍ فهمتُ لماذا كان وجهها مألوفاً لديّ – لقد أطلَّ عليّ تعبير الاشمئزاز الممتع المُرتسم عليه من العديد من الصور الروتوغرافية التي تمثّل الحياة الرياضية في آشفيل وهوت سبرينغز وبالم بيتش. وكنتُ قد سمعتُ حكاية عنها أيضاً، حكاية بغيضة، منتقدة، لكني نسيتُ عمّا كانت تدور منذ وقت بعيد.

قالت برقة "تصبح على خير. أيقظني عند الساعة الثامنة، من فضلك"

"إذا أردتِ أنْ تستيقظي"

"سأفعل. تصبح على خير، سيد كاراواي. أراكَ عند الظهيرة"

شدَّدتْ ديزي "طبعاً ستفعلين. في الواقع أعتقد أني سأُعِدُّ زواجاً. تعالَ

غالباً، يا نيك، وسأ - أوه - أتخلّص منكما معاً. كما تعلم - أُغلِقُ عليكما بلا أي اعتبار في خزانات البياضات وأرمي بكما إلى البحر بقارب، أو شيئاً من هذا القبيل -"

هتفت مس بيكر من الدَرَج "تصبحين على خير. لم أسمع منكِ كلمة واحدة"

قال توم بعد لحظة "إنها فتاة لطيفة. ينبغي ألاّ يدعوها تتنقّل في أرجاء البلاد هكذا"

سألتْ ديزي ببرودة "مَنْ تقصد؟"

"عائلتها"

"عائلتها تتألّف من قريبة واحدة عمرها حوالي الألف عام. ثم إنَّ نيك سيعتني بها، أليس كذلك يا نيك؟ سوف تُمضي الكثير من عُطل نهاية الأسبوع هنا خلال هذا الصيف. أعتقد أنَّ المنزل سيتركُ أثراً جيداً جداً عليها"

تبادلت ديزي وتوم النظر برهة في صمت.

سألتُ بسرعة "أهي من نيويورك؟"

"بل من لويزفيل. لقد أمضينا فترة مراهقتنا المشرقة معاً هناك. البيضاء الجميلة -"

فجأةً سأل توم "هل فتحتِ حديثاً حميماً مع نيك وأنتما على الشرفة؟"

"أنا؟ "ونظرتْ إليّ. "لا أذكُر، ولكن أعتقد أننا تحدثنا عن العرق الشمالي. نعم، أنا واثقة من أننا فعلنا هذا. يمكنك القول إنّه تسلّل إلينا فجأةً -"

نصحني "لا تصدِّق كلّ ما تسمع، يا نيك "

قلتُ باستخفاف أني لم أسمع أي شيء، وبعد بضع دقائق نهضتُ

لأذهب إلى بيتي. فرافقاني إلى الباب ووقفا جنباً إلى جنب تحت بقعة مبهِجة من الضوء. وحالما شغّلتُ مُحرّك سيارتي هتفت ديزي بلهجة حاسمة : "انتظر! لقد نسيتُ أنْ أسألكَ شيئاً، عن أمر هامّ. لقد سمعنا أنكَ خطبتَ فتاةً من الغرب"

دعمها توم بلطف "صحيح. لقد سمعنا أنكَ خطبت"

"إنه تشهير. أنا فقير جداً"

أصرَّتْ ديزي "ولكن هذا ما سمعناه"، وفاجأتني بانفتاحها من جديد كالزهرة، "سمعنا ذلك من ثلاثة أشخاص، إذن لابد أنْ يكون خبراً صحيحاً"

طبعاً عرفتُ إلى مَنْ يُشيران، لكني لم أكن خاطباً لأحد. وأحد أسباب مجيئي إلى الشرق هو أنَّ الثرثرة هي التي أشاعت خبر الخطبة. ولا يمكن للمرء أنْ يكفّ عن مُصاحبة أصدقائه المُقرّبين على أساس الإشاعات، ومن ناحية أخرى لم تكن لديّ أي نيّة في جعل الإشاعات تدفعني إلى الزواج.

لقد أثَّرَ فيَّ اهتمامهما وجعلهما يبدوان أقلّ فحشاً في ثرائهما – ومع ذلك، تشوّشَ ذهني وشعرتُ بشيءٍ من الاشمئزاز وأنا أقود سيارتي مبتعداً. لقد بدا لي أنّه جدير بديزي أنْ تندفع هاربة من المنزل، وطفلتها بين ذراعيها – ولكن من الجليّ أنه لم يكن في ذهنها مثل تلك النوايا. أما توم، فحقيقة "أنَّ لديه عشيقة في نيويورك"، كانت أقلّ إدهاشاً من انزعاجه من قراءة كتاب. كان هناك شيء يجعله يلوك أطرافاً من أفكار بائتة وكأنَّ أنانيته الجسدية الضخمة لم تعُد تُغذّي قلبه المتعجرف.

كان عزّ الصيف قد ساد فعلاً أسطُح أنزال[٣] الطريق العامة وأمام

(٣) أنزال: جمع نُزُل، فندق على الطريق العامة.–المترجم

المرائب على جانب الطريق، حيث أُقيمتْ مضخات وقود حمراء جديدة تحت بقعٍ من الضوء وعندما وصلتُ إلى منزلي في ويست إيغ أوقفتُ سيارتي تحت سقيفته وجلست بعض الوقت على مِحدلة عشب متروكة في الفناء. كانت الريح قد هبَّتْ، وخلَّفَتْ وراءها ليلاً عاصِفاً، برّاقاً، بأجنحة تضربُ الأشجار وصوتاً متناغماً متواصلاً وكأنَّ الأرض بثَّتْ بكل ما أوتيت من قوة نقيق الضفادع إلى الحياة. وتمايل الظل الجانبي لقطة تتحرَّك عبر ضوء القمر، وعندما التفتُّ لأراقبها وجدتُ أني لستُ وحدي – فقد ظهر شخص على بُعد خمسين قدماً من ظل قصر جاري وكان واقفاً ويداه في جيبيه يتأمَّل غبار النجوم الفضيّ. كان في حركاته المرتاحة وموطئ قدميه الثابتتين على المرج يوحي بأنه هو السيد غاتسبي نفسه، خرج ليُقرِّر ما هي حصّته من سمواتنا المحلّية.

قرَّرتُ أنْ أناديه. كانت مس بيكر قد دعته على مائدة العشاء، وسيكون ذلك بمثابة تعارُف. لكنني لم أفعل، ذلك أنه حركة حميمة تدل على أنه راضٍ ببقائه وحيداً – فقد مدَّ ذراعيه نحو المياه الداكنة بطريقة غريبة، وكِدتُ أُقسِم، على الرغم من بُعدي عنه، على أنه كان يرتعش. ونظرتُ لا إرادياً جهة البحر – فلم أُميِّز شيئاً غير ضوء واحد أخضر، دقيق وناءٍ، يمكن أنْ يكون نهاية ظهر سفينة. وعندما نظرتُ مرة أخرى إلى غاتسبي كان قد اختفى، وأصبحتُ وحيداً من جديد وسط الظلام المضطرب.

الفصل الثاني

عند حوالي منتصف المسافة بين ويست إيغ ونيويورك ينضم طريق السيارات مع السكة الحديد على عَجَل ويتجاور معه مسافة ربع ميل، هرباً من منطقةٍ معزولةٍ مِن الأرض. إنه وادي الرماد – مزرعة غريبة ينمو فيها الرماد كالقمح ليُشكّلَ حوافّ الجبال والتلال وحدائق عجيبة؛ يتّخذُ فيها الرماد أشكال منازل ومداخن ودخاناً يتصاعد وأخيراً، بجهدٍ هائل، رجالاً بلون الرماد، يتنقّلون بغموض وسرعان ما يتقوّضون في الأثير من الغبار. وأحياناً يزحفُ صفٌّ من السيارات الرمادية متقدِّماً على طول مسارٍ خفيّ، مُطلِقاً صريراً مُخيفاً، ثم يتوقّف، وفي الحال يحتشد الرجال الرماديون حاملين رفوشاً ثقيلة ويُثيرون سحابة سميكة لا تُختَرَق، تحجب أعمالهم الغامضة عن العيون.

ولكن فوق الأرض الرمادية ودفعات الغبار الكئيب المتصاعِد أبداً فوقها، يُميِّز المرء، بعد برهة، عينيّ الدكتور ت.جـ إكلبرغ[٤]. وعينا الدكتور ت.جـ إكلبرغ زرقاوان وعملاقتان – شبكيّتاهما بعلو ياردة. تطلاّن من دون وجه، ولكن، بدل ذلك، من نظارة صفراء اللون ضخمة ترتكز على أنفٍ غير موجود. من الواضح أنَّ طبيب عيون هازلاً علّقهما هناك ليُروِّج لعمله في منطقة كوين، ومن ثم أُصيبُ هو نفسه بالعمى التام، أو نسيَهما وانتقلَ إلى مكان آخر. لكنَّ تينك العينين، اللتان أُعتمتا قليلاً بمرور أيام طويلة من إهمال دهنهما، وتعرّضهما لأشعة الشمس وللمطر، استمرتا في التأمُّل الكئيب فوق مقلب النفايات الموحش ذاك.

---

(٤) يتحدث عن إعلان تجاري مُعلَّق. – المترجم

كان وادي الرماد مرتبط من أحد أطرافه بنهرٍ قذر، وعندما يرتفع الجسر المتحرِّك إلى أعلى ليسمح زوارق نقل البضائع بالمرور، يُحدِّقُ ركاب القطارات المنتظرة إلى المشهد الموحِش مدة تمتد حتى نصف ساعة. وهناك دائماً فترة توقُّف في تلك البقعة لمدة خمس دقائق على الأقلّ، ولهذا السبب قابلت عشيقة توم بيوكانن للمرة الأولى.

وكان موضوع عشيقته يتم التأكيد عليه في كل الأوساط التي تعرفه. وكان معارفه يستهجنون ظهوره معها في المقاهي الشعبية، ليتركها وحدها على الطاولة، ويقوم ليتجول في المكان، ويتسامر مع كل مَنْ يعرفه. وعلى الرغم من أنه كان لدي فضول لأراها، إلا أني لم أرغب في مقابلتها – لكنني فعلت. فقد ذهبتُ إلى نيويورك مع توم بالقطار بعد ظهيرة أحد الأيام، وعندما توقفنا بجوار أكوام الرماد قفز واقفاً على قدميه، وجذبني من مرفقي، بل جرّني قسراً بكل معنى الكلمة وأخرجني من العربة.

ألحّ عليّ "سوف نترجّل. أريد منك أنْ تقابل فتاتي"

أعتقد أنه كان قد أسرف في الشرب على مائدة الإفطار ، وتصميمه على اصطحابي بلغ حد استخدام العنف. والافتراض المتعالي كان أني بعد ظهر يوم الأحد لم يكن لدي شيء أفضل أفعله.

تبعته عبر سياج سكة حديد منخفض ومُبيَّض بالكلس، ومشينا عائدين مسافة مائة ياردة بمُحاذاة الطريق تحت تحديق الدكتور إكلبرغ المُلحّ. المبنى الوحيد الذي كان يُرى هو مبنى صغير من الآجر الأصفر قائم على حافة أرض يباب، وهي أشبه بشارع رئيسي متراصّ يتلاءمُ معه، ولا يُجاوره أي شيء مهما كان. وأحد المحال التجارية التي يضمّها كان مؤجَّراً وآخر كان مطعماً يعمل طوال الليل، يؤدي إليه ممرّ من الرماد؛ والثالث كان مرآباً – "تصليحات. جورج ب. ويلسون. بيع وشراء سيارات"– وتبعتُ توم إلى الداخل.

الداخل كان بسيطاً وعارياً؛ والسيارة الوحيدة الموجودة كانت من نوع فورد بائسة ويُغطيها التراب تجثم في زاوية مُعتمة. وتهيّأ لي أنَّ ذلك المكان الشبيه بالمرآب ليس إلا ستاراً، وأنَّ الشقق الحالمة المُترفة مُستترة فوقنا، عندما ظهر المالك نفسه من باب غرفة مكتب، جامد تعبيرات الوجه، وعلى قدر ضئيل من الوسامة. وعندما رآنا قفز وميض واهن من الأمل من عينيه بلونهما الأزرق الباهت.

قال توم، وهو يصفعه بمرح على كتفه "مرحباً، ويلسون، يا صديقي. كيف حال العمل؟"

أجاب ويلسون بلا اقتناع "ليس لدي ما أشتكي منه. متى ستبيعني تلك السيارة؟"

"في الأسبوع القادم؛ مُساعدي يعمل عليها الآن"

"إنه يعمل ببطءٍ شديد، ألا ترى ذلك؟"

قال توم ببرودة "لا، أبداً. وإذا كان هذا هو شعورك حيال الأمر، فربما يُستحسن أنْ أبيعها في مكان آخر"

أسرع ويلسون إلى تبرير قوله "ليس هذا ما أعني؛ أنا فقط عنيتُ –"

تلاشى صوته وتلفَّتَ توم حول المرأب بنظرةٍ نزقة سريعة. ثم سمعت وقع خُطى على الدَرَج، وسرعان ما سدّ الباب جسم امرأة مكتنز ومنع تسرُّب الضوء من باب غرفة المكتب. كانت في منتصف الثلاثينات من العمر، وتميل قليلاً إلى البدانة، لكنها تتعامل مع لحمها بحسّية لا تُتقنها إلا بعض النساء. وجهها، الذي يعلو ثوباً من الكريب الصيني الناعم ذي اللون الأزرق القاتم، لا يحتوي على أي مسحة أو ومض من جمال، ولكن كانت تتمتَّع بحيوية فوريّة محسوسة وكأنَّ أعصاب جسدها في

حالة احتراق دائمة. رسمت ابتسامةً بطيئة، ومشت حتى مكان وقوف زوجها وكأنه شبح، وصافحتْ توم، وهي تنظر مباشرة في عينيه. ثم بلّلت شفتيها، ودون أنْ تلتفت إلى الخلف خاطبت زوجها بصوتٍ ناعم أجشّ:

"لِمَ لا تُحضِر بعض الكراسي لكي نتمكن من الجلوس"

وافقها ويلسون على الفور "أو، حاضر"، واتجه نحو غرفة المكتب الصغيرة، وسرعان ما امتزج بلون الجدران الإسمنتي. كان الغبار الرمادي الأبيض يُغطي سترته وشعره الباهت كما كان يُغطي كل شيء في الجوار ما عدا زوجته، التي اقتربت من توم.

قال توم بتركيز "أردتُ أنْ أراكِ. استقلّي القطار التالي"

"حسن"

"سأقابلكِ عند كشك بيع الصحف على المستوى المنخفض"

أومأت إيجاباً وابتعدتْ عنه لحظة ظهر ويلسون مع كرسيين من باب غرفة المكتب.

انتظرناها في الطريق وبعيداً عن الأنظار. كان قد بقيَ على عيد الاستقلال بضعة أيام، وكان هناك طفل إيطالي هزيل يُرتّب قذائف موجّهة في صف واحد على طول سكة القطار.

قال توم، وهو يتبادل تعبير العبوس مع الدكتور إكلبرغ، "مكان فظيع، أليس كذلك"

"شنيع"

"من مصلحتها أنْ نهرب"

"ألا يعترض زوجها؟"

"ويلسون؟ إنه يعتقد أنها تذهب لتزور أختها في نيويورك. إنه من فرط الحمق بحيث لا يدري أنه حيّ"

وهكذا ذهبنا توم بيوكانن وفتاته وأنا إلى نيويورك معاً – أو ليس بالضبط معاً، ذلك أنَّ السيدة ويلسون جلست في عربة أخرى من باب التحفُّظ. إلى هذه الدرجة أذعنَ توم لحساسيات أولئك المقيمين في إيست إيغ مما يمكن أنْ يتواجدوا على متن القطار.

كانت قد غيَّرت ثوبها وارتدتْ آخر من الموسلين البُني المُزيّن بالرسوم، الذي شدَّ بقوة على امتداد وركيها العريضَين عندما ساعدها توم في الترجُّل إلى الرصيف في نيويورك. وعند كشك بيع الصحف اشترت نسخة من "تاون تاتل "ومجلة للرسوم المتحركة، ومن محِل لبيع العقاقير في المحطة اشترت بعضاً من الكريم البارد وقنينة عطر صغيرة. في منطقة أعلى، في الممشى الكئيب الذي يتردد في جنباته الصدى صرفت أربع سيارات أجرة قبل أنْ تنتقي واحدة جديدة، بلون الخُزامى وبتنجيد رمادي اللون، وهكذا خرجنا من وسط زحام المحطة إلى أشعة الشمس المتوهجة. ولكن سرعان ما التفتت عن النافذة بجِدّة، ومالت نحو الأمام، وربتتْ على الزجاج الأمامي.

قالت بجدّية "أريد واحداً من تلك الكلاب. أريد واحداً من أجل الشقّة. شيء جميل أنْ أحصل على – كلب"

رجعنا بالسيارة إلى الخلف حيث يقفُ عجوز أبيض الشعر يحملُ شَبَهاً سخيفاً من الدكتور جون د. روكفلر. وفي سلّة تتدلى من رقبته تكوَّم عدد من الجِراء الحديثة الولادة والمرتعدة من سلالة غير واضحة.

سألت السيدة ويلسون بلهفة، لدى اقترابه من سيارة الأجرة، "من أي نوع هي؟"

"من كل الأنواع. أي نوع تريدين، يا ست؟"

"أريد واحداً من نوع الكلاب البوليسية؛ هل لديك منها؟"

حدَّقَ العجوز بارتياب داخل السلّة، وغاص بيده وأخرجَ واحداً، يتلوّى، من رقبته.

قال توم "هذا ليس بكلب بوليس"

قال الرجل بصوت ينمُّ عن خيبة "كلا، إنه ليس بالضبط كلباً بوليسياً. إنه أقرب إلى كلاب الصيد"، ومرَّر يده على ظهره الشبيه بممسحة بنّية اللون. "انظري إلى هذا الفراء. يا له من فراء رائع. هذا كلب لن يزعجكِ بإصابته بالبرد"

قالت السيدة ويلسون بحماس "أعتقد أنه ظريف. كم ثمنه؟"

نظر إليه بإعجاب "هذا الكلب؟ هذا الكلب يُكلّفكِ عشرة دولارات"

انتقل كلب صيد - لا شك في أنَّ هناك كلب صيد آخر يهتم به في مكانٍ ما، على الرغم من أنَّ قوائمه بيضاء بشكلٍ مُذهلٍ - من يدٍ إلى أخرى واستقرَّ في حجر السيدة ويلسون، وراحت تلاطفُ الفراء المُضاد لتقلبات الجو بنشوة.

سالتْ برقّة "أهو ذكر أم أنثى؟"

"هذا الكلب؟ إنه ذكر"

قال توم بحزم "إنه أنثى (عاهرة). هاك نقودك. اذهب واشترِ عشرة من الكلاب بها"

انتقلنا إلى الجادة الخامسة، الدافئة والرخيّة، وتكاد تكون رعويّة، بعد ظهيرة يوم أحد صيفي. ولم أكن لأصاب بالدهشة لو أني شاهدتُ قطيعاً هائلاً من الماشية البيضاء يظهر عند المنعطف.

قلت "توقف، يجب أنْ أغادركما هنا"

قاطعني توم بسرعة "كلا لن تفعل. سوف تزعل مرتل إذا لم تأتِ معنا إلى الشقة. أليس كذلك، يا مرتل؟"

ألحّت "هيا بنا، سوف أتصل هاتفياً بأختي كاثرين. يقول العارفون إنها غاية في الجمال"

"حسن، أودُّ ذلك، ولكن"

وتابعنا الطريق، وقطعنا المتنزّه من جديد نحو ويست هندريدز. وفي الشارع رقم ١٥٨ توقفت سيارة الأجرة عند حافة ما يشبه الكعكة البيضاء الطويلة من شُقق المنازل. ألقتْ السيدة ويلسون نظرة سريعة إلى الحي كأنها عائدة إلى وطنها الفخم وحملتْ كلبها ومشترياتها، ودخلت بخطوة متعجرفة.

في المصعد أعلنتْ "سوف أدعو آل ماكي إلى الحضور. وطبعاً سوف أدعو أختي أيضاً"

كانت الشقة تقع في الطابق الأعلى - وتتألّف من غرفة جلوس صغيرة، وغرفة طعام صغيرة، وغرفة نوم صغيرة، وغرفة استحمام. غرفة الطعام كانت مزدحمة حتى الباب بطقم من الأثاث المزدان بالرسوم وكلها شديدة الضخامة لتتلاءم معها، بحيث أنه لكي يتحرَّك المرء لابد أنْ يتعثَّر دائماً بمشاهد لسيدات يتأرجحن في حدائق فرساي. الصورة الوحيدة كانت صورة فوتوغرافية مفرطة الضخامة، وتمثّل بوضوح دجاجة جالسة على صخرة غير واضحة. ولكن عند النظر إليها عن بُعد، تتحول الدجاجة إلى قلنسوة، وتشرق قَسَمات عجوز بدينة تنظر إلى الغرفة. وهناك أعداد قديمة من "تاون تاتلر" مُلقاة على الطاولة بالإضافة إلى نسخة من "سمعان يُدعى بطرس"، وبعض مجلات فضائح برودواي الصغيرة. في أول الأمر

انصبَّ اهتمام السيدة ويلسون على الكلب. وذهب صبي المصعد مُتردِّد ليجلب صندوقاً مملوءاً بالقش وبعض الحليب، أضاف إليهما كبادرةٍ منه علبة من بسكويت الكلاب الكبير والقاسي - تفتَّتَ أحدها ببطءٍ في طبق الحليب طوال فترة بعد الظهيرة. في تلك الأثناء أخرجَ توم زجاجة من الويسكي من باب خزانة صغيرة مقفل.

لقد وصلت إلى حالة السُكر مرتين فقط في حياتي، والمرة الثانية حدثت بعد ظهيرة ذلك اليوم؛ لذلك فكل ما حدث يكتنفه جوٌ مُعتمٌ وضبابيّ، على الرغم من أنَّ الشمس غمرت الشقة حتى ما بعد الساعة الثامنة. اتصلت السيدة ويلسن بعددٍ من الأشخاص هاتفياً وهي جالسة في حضن توم؛ ثم لم يعد هناك سجائر وخرجتُ لأشتري بعضاً منها من محل العقاقير القريب. وعندما رجعت كان الاثنان قد اختفيا، فجلستُ بتحفُّظ في غرفة الجلوس وقرأتُ فصلاً من "سمعان يُدعى بطرس" إما أنها قصة رديئة جداً أو أنَّ الويسكي عمل على تشويه الأشياء، لأني لم أر لها أي معنى.

وحالما عاد توم ومرتل إلى الظهور (بعد شرب الكأس الأول صرنا أنا والسيدة ويلسون نتخاطب باسمينا الأولّين)، بدأ الأصحاب يتوافدون من باب الشقة.

كانت الأخت، كاثرين، نحيلة القوام، مجرّبة في نحو الثلاثين من العمر، ذات شعر أحمر قصير، لزج وصلب، وبشرة مُضمّخة بالبودرة حتى أضحتْ بيضاء بلون الحليب. حاجباها نُزِعَ عنهما الشعر ومن ثم رُسِما من جديد بزاويةٍ أكثر خلاعة، لكنَّ جهود الطبيعة نحو استعادة استقامتهما القديمة أضفت مسحة غامضة على وجهها. عندما تتنقَّل تُسمع قرقعة متواصلة لعدد لا يُحصى من الأساور الخزفيّة ترنّ على طول ذراعيها. دخلتْ بسرعةٍ وكأنها صاحبة المكان، وتلفَّتت حولها بهيئة

تملّكيّة إلى الأثاث حتى أني تساءلتُ إنْ كانت تعيش هنا. ولكن عندما سألتها ضحكت بلا تحفُّظ، وكرَّرتْ سؤالي بصوتٍ عالٍ، وأخبرتني أنها تُقيمُ مع صديقةٍ لها في أحد الفنادق.

كان السيد ماكي رجلاً أنثوياً، شاحباً يسكن في الشقة السفلى. كان قد حلق ذقنه حديثاً، لأنه كانت هناك بقعة من صابون الحلاقة على وجنته، وكان شديد الاحترام في ترحيبه بكل شخص في الغرفة. وأبلغني إنه يعمل في "المجال الفني"، وفهمتُ لاحقاً أنه كان مُصوراً فوتوغرافياً وصنع تكبيراً لصورة والدة السيدة ويلسن الباهتة التي كانت تلوح بغموض على الجدار. وكانت زوجته صاخبة، ضعيفة، وسيمة وفظيعة. أخبرتني بكل فخر أنَّ زوجها صوّرها مائة وسبع وعشرين مرة منذ أنْ تزوجا.

كانت السيدة ويلسون قد غيَّرتْ ثوبها قبل ذلك بقليل، وأصبحت الآن ترتدي ثوباً رقيقاً مناسباً لفترة بعد الظهر، من الشيفون بلون الكريم، كان يُصدِر طوال الوقت حفيفاً مستمراً في أثناء تنقّلها في أرجاء الغرفة. وقد طرأ على شخصيتها أيضاً تغيُّر بتأثير الثوب. فالحيوية الطاغية التي كانت شديدة الوضوح في المرآب تحوَّلتْ إلى غطرسةٍ بارزة. وضحكها، وإيماءاتها، وتشديدها أخذت تصبح أشدّ تكلّفاً بعنف مع مرور كل لحظة، ومع تمدُّدها المستمر كانت الغرفة تتضاءل أكثر فأكثر من حولها، إلى أنْ بدا أنها تدور حول محور صارّ، كثير الضجيج، في الجو العابق بالدخان.

قالت لأختها بهتافٍ مُهدِّد، عالٍ، "يا عزيزتي، إنَّ معظم الرجال يخونون كلما أُتيح لهم. وكل ما يُفكرون فيه هو المال. كانت عندي امرأة في الأسبوع الفائت هنا لتعالج قدمي، ولو رأيتِ الفاتورة التي قدّمتها لي لحسبتِ أنها استأصلتْ لي الزائدة الدودية"

سألتْ السيدة ماكي "ما اسم تلك المرأة؟"

"السيدة إيبرهارت. إنها تتنقّل وتعالج أقدام الناس في منازلهم"

علَّقَتْ السيدة ماكي "يُعجبني ثوبك. أعتقد أنه رائع"

رفضَتْ السيدة ويلسون التقريظ برفع حاجبها امتعاضاً.

قالت "إنه مجرد ثوب قديم تافه. إنني فقط ألبسه أحياناً عندما لا أرى داعياً للاهتمام بمظهري"

ألحّت السيدة ماكي "لكنه يبدو رائعاً عليكِ، إذا فهمتِ ما أعني. ليت في إمكان تشستر أنْ يجعلك تتخذين وِقفة خاصة أعتقد أنَّ في استطاعته أنْ يصنع شيئاً مُميَّزاً "

نظرنا جميعاً في صمت إلى السيدة ويلسون، التي أزاحت خصلة من الشَعر عن عينيها وبادلتنا النظر مع ابتسامةٍ ساطعة. تأمّلها السيد ماكي بإمعان وقد أمال رأسه على أحد الجانبين، ومن ثم حرَّكَ يده جيئة وذهاباً ببطء أمام وجهه.

بعد قليل قال "يجب أنْ أُغيِّر الإضاءة. أودّ أنْ أُبرِز تشكيل القَسَمات. وأودُّ أنْ أحاول إبراز الشَعر كله من الخلف "

صرخت السيدة ماكي "ما كنتُ لأغيِّر الإضاءة لو كنت مكانك. أعتقد أنَّ ـ"

قال زوجها : "هسس! " ونظرنا جميعاً إلى الموديل من جديد، وعلى الأثر تثاءبَ توم بيوكانن بصوتٍ مسموع ونهضَ واقفاً على قدميه.

قال "فليشرب آل ماكي شيئاً. وأنتِ يا مرتل، أحضري بعض الثلج والمياه المعدنية قبل أنْ يأوي الجميع إلى النوم"

رفعَت مرتل حاجبيها بيأس جرّاء سوء تصرُّف الطبقات الدنيا وهي تقول "لقد قلت لذلك الصبي أنْ يُحضِر بعض الثلج. ما أسوأ أولئك الناس! يجب أنْ تتابعهم طوال الوقت"

نظرتْ إليّ وضحكت بلا داعٍ. ثم اندفعت نحو الكلب، قبّلته بنشوة، وانسابت إلى المطبخ، وكأنَّ حشداً من الطُهاة في انتظار تلقّي تعليماتها هناك.

شدَّد السيد ماكي "لقد أنجزتُ بعض الأشياء الجميلة هناك في لونغ آيلند"

رماه توم بنظرة جوفاء.

"أنشأنا اثنين منها في الطابق السُفلي"

سأل توم "اثنان ممَّ؟"

"مُحترفان. واحد سمّيته "مونتوك بوينت - طيور النورس"، والآخر سمّيته "مونتوك بوينت - البحر "

جلست الأخت كاثرين إلى جانبي على الأريكة.

سألتْ "هل تُقيمُ أنتَ أيضاً في لونغ أيلند؟

"أنا أُقيمُ في ويست إيغ"

"حقاً؟ ذهبتُ إلى هناك تلبية لدعوة قبل حوالي شهر. في منزل رجل يُدعى غاتسبي. أتعرفه؟"

"أنا جاره"

"حسن، يُقال إنه قريب للقيصر فيلهلم. ومنه يحصل على أمواله كلها"

"حقاً؟"

أومأتْ برأسها إيجاباً.

"إنه يُخيفني. وأكره أنْ يقترب مني"

هذه المعلومات الشيّقة عن جاري قاطعتها السيدة ماكي بإشارتها فجأةً نحو كاثرين :

اندفعت قائلة "تشستر، أعتقد أنَّ في استطاعتك أنْ تُنجز شيئاً معها"، لكنَّ السيد ماكي اكتفى بهز رأسه بطريقة تنم عن ضجر، ووجّه انتباهه نحو توم.

"أودّ أنْ أقوم بمزيد من الأعمال في لونغ أيلند، إذا استطعت أنْ أحصل على إجازة مرور. كل ما أطلبه هو أنْ يُتيحوا لي فرصة للانطلاق"

قال توم "اسأل مرتل"، وانطلق في نوبة عالية النبرة وقصيرة من الضحك لدى دخول السيدة ويلسون حاملةً صينية. "سوف تعطيك رسالة تعريف، أليس كذلك، يا مرتل؟"

سألتْ، مُجفلة، "أفعلُ ماذا؟"

"سوف تُعطين السيد ماكي رسالة تعريف إلى زوجك، لكي يتمكّن من تنفيذ بعض الرسوم الأولية له". تحرّكتْ شفتاه بصمت برهة وهو يلفّق عنواناً "جورج ب. ويلسون في مضخّة الوقود "أو ما شابه "

مالت كاثرين مقتربة مني وهمست في أذني :

"كلاهما لا يُطيق الشخص الذي تزوّجه"

"أحقاً؟"

"لا يُطيقانهما". ونظرتْ إلى مرتل ومن ثم إلى توم. "ما أريد أنْ أقوله هو، لماذا يستمران في العيش معهما إذا كانا لا يُطيقانهما؟ لو كنتُ في مكانهما لحصلت على الطلاق وتزوجنا فوراً"

"أهي لا تحب ويلسون أيضاً؟"

الجواب على هذا كان غير متوقَّع. صدر عن مرتل، التي سمعت السؤال، وكان عنيفاً وبذيئاً.

هتفتْ كاثرين بنبرة انتصار "ها أنت ترى"، ثم أخفضَتْ صوتها من جديد "إنَّ زوجته هي السبب في تباعدهما. إنها كاثوليكية، والكاثوليك لا يؤمنون بالطلاق"

لم تكن ديزي كاثوليكية، وقد صُعِقتُ قليلاً للكذبة المُحكَمة.

تابعتْ كاثرين "عندما سيتزوجان سوف يتوجهان إلى الغرب لكي يعيشان فترة من الوقت إلى أنْ يهدأ الوضع"

"سيكون من الحِكمة أكثر الذهاب إلى أوروبا"

هتفت بشكلٍ مُدهِش "أوه، هل تحب أوروبا؟ لقد عدتُ مؤخراً من مونت كارلو"

"حقاً"

"فقط في العام الفائت. ذهبتُ إلى هناك مع فتاة أخرى"

"مكثتما طويلاً؟"

"كلا، بل وصلنا إلى مونت كارلو وعُدنا. ذهبنا عبر مارسيليا. عندما انطلقنا كان في حوزتنا ألف ومائتا دولار، ولكنها سُرِقت منا بالاحتيال في غضون يومَين في الغرف الخاصة. وقد تعذّبنا كثيراً حتى تمكّنا من العودة، أؤكد لك. يا إلهي، كم كرهت تلك المدينة!"

في أول المساء سطعت السماء في النافذة برهة بلون البحر الأبيض المتوسط العسلي والأزرق – ثم أعادني صوت السيدة ماكي الحاد إلى الغرفة.

أعلنَتْ بحيوية "وكدتُ أيضاً أرتكبُ خطأً. كدتُ أتزوج كلباً حقيراً ظلَّ يسعى ورائي طوال سنوات. كنتُ أعلمُ أنه أدنى مني مرتبة. وكان الناس يقولون لي : "يا لوسيل إنَّ هذا الرجل أدنى منكِ مرتبة! "ولكن لو

لم أقابل تشستر، لتزوّجني دون أدنى شك"

قالت مرتل ويلسون، وهي تهز رأسها إلى أعلى وأسفل إيجاباً "نعم، ولكن اسمعي، على الأقل أنتِ لم تتزوجيه"

"أعلم أني لم أفعل"

قالت مرتل، بغموض، "حسن، أما أنا فتزوجته. وهذا هو الفرق بين حالتكِ وحالتي"

سألتْ كاثرين "لماذا فعلتِ، مرتل؟ لا أحد أجبركِ على ذلك"

فكّرتْ مرتل.

أخيراً قالت "لقد تزوجته لأنني ظننتُ أنه رجل محترم؛ اعتقدتُ أنه يعرف شيئاً عن التهذيب، لكنه لم يكن مؤهّلاً للعق حذائي"

قالت كاثرين "لقد مرّت فترة كنتِ مجنونة بحبه"

صرخت مرتل غير مُصدّقة "مجنونة بحبه! مَنْ قال أني جُننتُ بحبه؟ إني لم أُجنّ بحبه إلا بقدر ما جُننتُ بحب ذلك الرجل هناك"

أشارتْ فجأةً إليّ، ونظر الجميع إليّ نظرة اتّهام. حاولتُ أنْ أبيّن بتعبير وجهي أني لم أتوقع أي حب.

"المرة الوحيدة التي جُننتُ فيها كانت عندما تزوجته. وأدركتُ على الفور أني ارتكبتُ خطأً. لقد استعار أفضل بذلة لأحدهم ليتزوج بها، ولم يُخبرني بذلك، وذات يوم جاء الرجل ليستعيدها عندما كان في الخارج. قلت : "أوه، أهذه بذلتك؟ هذه أول مرة أسمع بها هذا". لكنني أعطيتها له ومن ثم ارتميتُ ورحتُ أبكي لأضمد جراحي حتى آخر النهار"

تابعت كاثرين تُخاطبني "عليها حقاً أنْ تهرب منه. إنهما يعيشان فوق ذلك المرآب منذ أحد عشر عاماً. وتوم هو أول حبيبٍ تتخذه"

زجاجة الويسكي – الثانية – ازداد عليها الطلب من الموجودين كلهم، ما عدا كاثرين، التي "شعرت بالسعادة دون أي سبب". قرع توم الجرس يستدعي الحاجب وأرسله ليُحضر بعض الشطائر الشهيرة، التي تُشكّل بحدّ ذاتها عشاءً متكاملاً. ورغبتُ في الخروج والتمشية نحو الشرق باتجاه الحديقة العامة في الغسق الرخيّ، ولكن كلما حاولتُ أنْ أفعل ذلك أنخرطُ في جدالٍ حادٍ وعنيف يُعيدني، كأنما بحبالٍ، إلى كرسيّي. ولكن عالياً فوق المدينة لابد أنَّ صفَّ نوافذنا الصفراء ساهمَ بحصته في السرّية الإنسانية بالنسبة إلى المُراقب العابر في الشوارع المظلمة، وقد شاهدته فعلاً، يرفعُ بصره ويتساءل. أنا كنتُ في الداخل وفي الخارج، مفتوناً ومشمئزاً في وقت واحد من تنوُّع الحياة الذي لا ينضب.

قرَّبَتْ مرتل كرسيها من كرسيّي، وفجأةً صبَّ نَفَسَها الدافئ عليّ قصة لقائها الأول مع توم.

"كنا نجلس على المقعدَين الصغيرَين الذي يواجه أحدهما الآخر وكان الجالسان عليهما دائماً هما آخر مَنْ يُغادر القطار. كنتُ ذاهبة إلى نيويورك لأزور أختي وأقضي الليلة عندها. كان يرتدي بذلة رسمية وينتعل حذاءً من الجلد الصقيل، ولم أتمكن من إبعاد عيني عنه، ولكن في كل مرة نظر فيها إليّ كنتُ أتظاهر بأني أنظر إلى الإعلان التجاري الذي يقع فوقه. وعندما وصلنا إلى المحطة كان أصبحَ إلى جواري، وضغطت مقدمة قميصه الأبيض على ذراعي، فقلت له إني سأستدعي رجل الشرطة، لكنه عرِفَ أني أكذب. كنتُ من فرط الإثارة بحيث أني عندما ولجت سيارة الأجرة معه لم أكن أعلم أني لا ألجُ قطاراً نفقياً. وكل ما كنتُ أفكّر فيه دون توقُّف هو "لن تعيشي إلى الأبد؛ لن تعيشي إلى الأبد "

التفتت إلى السيدة ماكي وضجَّتْ الغرفة وامتلأتْ بضحكها المّصطنع.

صرخت "يا عزيزتي، سوف أمنحكِ هذا الثوب حالما أنتهي من الأمر. يجب أنْ أحصل على آخر غداً. سوف أضعُ لائحة بكل الأشياء التي يجب أنْ أحصل عليها. تدليك وتصفيف الشَعر، وطوق للكلب، وإحدى تلك المنافض الصغيرة الظريفة للسجائر التي تلمسين فيها نابضاً، وإكليلاً مُحاطاً بقوس من الحرير الأسود من أجل قبر أمي يدوم طوال فصل الصيف. يجب أنْ أضعَ قائمة لكي لا أنسى كل الأشياء التي ينبغي أنْ أنجزها"

كانت الساعة قد وصلت التاسعة – وبعد ذلك على الفور تقريباً نظرت إلى ساعة يدي ووجدتُ أنها قد بلغت العاشرة. كان السيد ماكي نائماً على الأريكة وقبضتا يديه مشدودتان معاً في حجره، كصورة فوتوغرافية لرجلٍ حيويّ. وأخرجت منديلي وأزلتُ عن خده بقعة صابون الحلاقة الجافة التي ظلّت تقلني طوال فترة بعد الظهيرة.

كان الجرو جالساً على الطاولة وينظر بعينين لا تريان شيئاً إلى الدخان، وبين الحين والآخر يئن بصوت واهن. إنَّ الناس يختفون، ويعودون إلى الظهور، يضعون خُططاً للذهاب إلى مكان ما، ومن ثم يتوه بعضهم عن بعض، ويفتش بعضهم عن بعض، ويعثر بعضهم عن بعض على بُعد بضعة أقدام. وقُرابة منتصف الليل وقف توم بيوكانن والسيدة ويلسون وجهاً لوجه يتناقشان، بأصوات متّقدة، عمّا إذا كان للسيدة ويلسون الحق في ذِكر اسم ديزي.

صرخت السيدة ويلسون "ديزي! ديزي! ديزي! سأقوله كلما أردت! ديزي! ديـ"

وبحركة قصيرة رشيقة كسرَ توم بيوكانن أنفها بيده المفتوحة.

امتلأت أرضية الحمّام بالمناشف الملوثة بالدم، وتصاعدت أصوات

نساء مستهجنات، وفوق ذلك كله فوضى عويل متقطع طويل تعبيراً عن الألم، واستيقظ السيد ماكي من غفوته واندفعَ مذهولاً نحو الباب. وبعد أنْ قطع نصف الطريق استدار وحدَّقَ إلى المشهد - زوجته وكاثرين تؤنبان وتواسيان وتتعثّران هنا وهناك بين الأثاث المُكدَّس بأدوات الإسعاف، والمرأة اليائسة على الأريكة، تنزف بغزارة، وتحاول أنْ تنشر نسخة من "تاون تتلر" على مشاهد مزيَّنة لفيرساي. ثم التفتَ السيد ماكي وواصل سيره نحو الباب. فانتزعتُ قبعتي عن المشجب وتبعته.

اقترح قائلاً، ونحن نغمغمُ مُستنكرين داخل المصعد، "تعال وشاركنا طعام الغداء ذات يوم"

"أين؟"

"في أي مكان"

قال صبي المصعد بحِدّة "أبعد يديك عن العتلة"

قال السيد ماكي بوقار "عفواً، لم أكن أعلم أني ألمسها"

وافقت على دعوته "حسن، يُسعدني أنْ أفعل"

... كنتُ واقفاً بجانب سريره وكان جالساً منتصباً بين الملاءات، بملابسه الداخلية، ويحمل بيديه مِحفظة أوراق كبيرة.

"الجميلة والوحش... وحشة... حصان البقالة العجوز... جسر بروكلن..."

ثم كنتُ مستلقياً وأنا نصف نائم في المستوى المنخفض البارد من محطة بنسلفانيا، أحدِّقُ إلى النسخة الصباحية من صحيفة "تريبيون"، في انتظار وصول قطار الساعة الرابعة.

الفصل الثالث

خلال ليالي الصيف كانت موسيقى تنساب من جهة منزل جاري. في حدائقه الزرقاء كان الشبّان والشابات يرفرفون جيئة وذهاباً كالفراشات بين الهمس والشمبانيا والنجوم. وعندما يرتفع المدّ بعد الظهر كنتُ أراقب ضيوفه يقومون بالغوص من برج طوفه، أو يتمددون تحت أشعة الشمس على الرمال الساخنة لشاطئه بينما قارباه البخاريان يشقّان مياه الساوند، ويرسمان ألواحاً مائية فوق شلالات من الزَبَد. وفي عطل نهاية الأسبوع تُصبح سيارته الرولز رويس حافلةَ ركاب، تحملُ جماعات من المدينة وإليها بين الساعة التاسعة صباحاً وحتى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل، بينما سيارته الستيشن تعدو كبقّة صفراء نشطة لكي تلحق بالقطارات كلها. وفي أيام الاثنين يكدُّ ثمانية من الخدم طوال النهار، بمن فيهم البُستانيّ، بالممسحات وفراشي الكشط والمطارق ومِقصات الحديقة، في ترميم خراب الليلة السابقة.

في كل يوم جمعة تصل خمسة صناديق من البرتقال والليمون من بائع فاكهة في نيويورك - وفي كل يوم اثنين هذا البرتقال والليمون يُغادر من الباب الخلفي على شكل هرم من الأنصاف الخالية من اللب. فقد كانت هناك آلة في المطبخ يمكنها أنْ تستخلص عصير مائتي برتقالة في غضون نصف ساعة إذا ما ضُغِطَ على زرٍ مائتيّ مرة بإبهام يد الساقي.

مرةً على الأقلّ كل أسبوعَين تأتي محاصيل سائقي العربات مع عِدة مئات من الأقدام من الكنفا وما يكفي من الأضواء الملوّنة من أجل تزيين

شجرة الميلاد في حديقة غاتسبي المترامية الأطراف. وعلى طاولات الأطعمة، المزيّنة بالمُشهّيات البرّاقة، يحتشد لحم الخنزير المشوي والمُتبّل معاً مع أنواع السلطات ذات التصاميم المُبهرجة وفطائر لحم الخنزير والديك الرومي كأنها سُحرَت فأضحت ذهباً قاتماً. وفي القاعة الرئيسة هناك بار يُقام فيه حاجز من نحاسٍ حقيقي، مملوء بأنوع شتى من الجِنْ والمشروبات المُسكِرة والمُنبّهات نُسيَتْ منذ زمنٍ طويل بحيث أنَّ ضيوفه من النساء كنَّ أصغر سناً من أنْ يُميِّزن صِنفاً من آخر.

بحلول الساعة سبعة تصل الفرقة الموسيقية، ليس فرقة سقيمة رخيصة، بل مجموعة كاملة من عازفي الأبوا والترومبون والساكسيفون والكمان والكورنت والبيكولو، وطبول منخفضة الصوت وعالية. وحينئذٍ يكون آخر السابحين قد عادوا من الشاطئ وأخذوا يرتدون ملابسهم في الطابق العلوي؛ والسيارات القادمة من نيويورك اصطفّتْ كل خمس منها معاً على الممشى، وأضحت القاعات والصالونات والشرفات مُبهرجة بالألوان الأساسية، والشَعر مقصوص بطرق جديدة وغريبة، والشالات التي تتجاوز بتصاميمها أحلام قشتالة. ويمتلئ البار عن آخره، ويمتد فيض كؤوس الكوكتيل يمتد حتى الحديقة في الخارج، إلى أنْ تدبُّ الحياة في الجو بالأحاديث والضحك، وتُنسى التلميحات العابرة وعمليات التعارف في الحال، ولقاءات حماسية بين نساء لا تعرف أي منهنَّ اسم الأخرى.

وتزداد الأضواء سطوعاً مع ميل الأرض وابتعادها عن الشمس، وتباشر الفرقة الموسيقية عزف موسيقى الشمبانيا الرقراقة، مع جوقة أنغام صوتية أعلى بنبرة. ويزداد الضحك سهولة باطّراد، متدفّقاً بإسراف، منبثقاً لأقلّ كلمة مرحة. وتتبدل المجموعات بسرعة كبيرة، وتمتلئ بواصلين جُدد، وينفرط عقدها وتتشكّل بنفَسٍ واحد؛ والمتجولين موجودون أصلاً،

من فتيات جريئات يتمايلنَ هنا وهناك بين الأكثر بدانة وسكوناً، يُصبحن لبرهة خاطفة مرحة مركز المجموعة، ومن ثم، يثملنَ بخمر الانتصار، فينسبنَ خلال بحر الوجوه والأصوات والألوان المتلاطم تحت أضواء تتبدَّل باستمرار.

وفجأةً تلتقط واحدة من تلك الغجريات، بأصابع مرتعشة تحمل خاتماً كريماً متبدل الألوان، كأس كوكتيل من الهواء، وتجرعه لتستمد الشجاعة، وتحرّك يديها كبهلوان، وترقص وحدها على منصة الكانفا. ويسود صمت فوريّ؛ ويُغيِّر قائد الفرقة الموسيقية الإيقاع إكراماً لها، وتتفشّى الثرثرة حالما يشيع خبر خاطئ يقول إنها بديلة غيلدا غراي(٥) من مسرح الفولي. وبدأتْ الفرقة بالعزف.

أعتقد أنني في الليلة الأولى التي زرتُ فيها منزل غاتسبي كنت أحد الضيوف القلائل الذين دُعوا. فالناس لم يكونوا يُدعَون - كانوا يذهبون إلى هناك. يستقلون السيارات التي تحملهم إلى لونغ أيلند، وبصورة ما ينتهي بهم الأمر ويجدون أنفسهم أمام باب غاتسبي. وما أن يصلوا إلى هناك يتم تعريفهم من قِبل شخص يعرف غاتسبي، وبعد ذلك يتصرّفون وِفقاً لأصول السلوك المرتبطة بحديقة التسالي العامة. أحياناً كانوا يأتون ويُغادرون دون أنْ يُقابلوا غاتسبي، يأتون من أجل الاحتفال بطيبة قلب كانت هي بطاقة السماح لهم بالدخول.

أما أنا فقد دُعيتُ في الواقع. فقد جاء سائق سيارة بزي رسمي بزُرقة بيض طائر أبي الحنّاء عبر مرج بيتي في وقت مُبكِّر من يوم السبت مع

---

(٥) غيلدا غراي (١٩٠١ - ١٩٥٩) : وفي رواية أخرى ولدت عام ١٨٩٧. أصلها بولوني. تبنّتها عائلة أميركية. زُوِّجت وهي في سن ١٢ عاماً. عُرِفت كراقصة في مسارح زيغفيلْد فولي. ظهرت في بعض الأفلام. ماتت فقيرة مُعدَمة. - المترجم

رسالة رسمية بشكلٍ مُفاجئ موجّهة من مُستخدمه : تقول إنه يُشرّفُ غاتسبي أنْ أتفضَّل وأحضر "حفلته الصغيرة" في تلك الليلة. كانت قد رآني مرات عِدّة، وكان قد نوى أنْ يتّصل بي منذ وقتٍ طويل، لكنَّ مجموعة من الظروف الخاصة منعته من فعل ذلك - كانت موقَّعة باسم جاي غاتسبي، بخطٍ فخم.

ارتديتُ ملابس من الفانيلا البيضاء وانتقلتُ عبر المرج بُعيد الساعة السابعة بقليل، ورحتُ أتجول بين دوامات وتيارات من أناسٍ لا أعرفهم وأنا منزعج - على الرغم من أني كنتُ أشاهد أحياناً وجهاً لاحظته في القطار. وفي الحال ذُهِلتُ من عدد الشبّان الإنكليز الموزَّعين في المكان؛ كلهم حسنوا الملبس، ويبدو عليهم الجوع قليلاً، وكلهم يتحدثون بأصوات منخفضة، رصينة، إلى أميركيين أثرياء. كنتُ متأكداً من أنهم يبيعون شيئاً : سندات أو شهادات تأمين على السيارات الخاصة. على الأقلّ كانوا يعون بشكلٍ موجِع المال السهل الذي يُجاورونه واقتنعوا بأنَّه سيُصبح لهم مقابل بضع كلمات تُقال بالنبرة الصحيحة.

حالما وصلتُ قمتُ بمحاولةٍ لأعثر على مضيفي، لكنَّ الشخصَين أو الثلاثة الذين سألتهم عن مكان تواجده حدَّقوا إليّ بذهول، وأنكروا بشدّة أي معرفة لهم بتحرّكاته، حتى أني انسللتُ خِلسة باتجاه طاولة الكوكتيل - المكان الوحيد في الحديقة حيث يمكن لرجل وحيد أنْ يتلكأ دون أنْ يبدو وحيداً وبغير هدى.

كنتُ في طريقي لكي أسكر بصخب لمجرّد شعوري بالحرج وإذا بجوردان بيكر تخرج من المنزل وتقفُ على أعلى الدَرَج الرخامي، وهي تميل قليلاً إلى الخلف وتنظر باهتمامٍ ممتعِض باتجاه الحديقة.

وجدتُ أنَّ من الضروري أنْ أرتبط بأحد، سواء ألقيتُ الترحيب منه أم لا، قبل أنْ أبدأ بإبداء ملاحظات وديّة للمارة.

تقدَّمتُ منها، وصرخت "مرحباً!". بدا صوتي مرتفعاً بشكلٍ غير طبيعي عبر الحديقة.

أجابت بلا مُبالاة لدى اقترابي "خمّنتُ أني سأجدكَ هنا. تذكّرتُ أنكَ تقطنُ بجوار"

صافحت يدي بتجرُّد، كأنها تعِدُ بأنّها ستوليني اهتمامها في الحال، وراحت تُصغي إلى فتاتين ترتديان ثوبَين توأمين باللون الأصفر، توقّفتا عند أسفل الدَرَج.

هتفتا معاً "مرحباً! يؤسفنا أنكِ لم تفوزي"

قالتا ذلك بشأن دورة لعبة الغولف. كانت قد خسرت في النهائي في الأسبوع السابق.

قال إحدى الفاتين "أنتِ لا تعرفين من نحن، ولكن قابلناكِ هنا قبل حوالي شهر"

علّقتْ جوردان "لقد صبغتِ شعرك بعد ذلك"، فأجفلتُ، لكنّ الفتاتين كانتا قد ابتعدتا بشكلٍ عَرَضيّ وتلقّى القمر المرتفع قبلَ الأوان عبارتها، الذي خرج، دون أدنى شك، مثل طعام العشاء، من سلّة سائق العربة. هبطنا الدَرَج، وذراع جوردان النحيلة الذهبية ترتاح على ذراعي، وتجوّلنا في أرجاء الحديقة. طافَتْ صينية من كؤوس الكوكتيل نحونا تشق ضوء الغسق، وجلسنا على إحدى الطاولات مع الفتاتين اللتين ترتديان الأصفر وثلاثة رجال، قُدِّمَ كلّ منهم إلينا باسم السيد ممبل.

سألتْ جوردان الفتاة الجالسة إلى جوارها "هل ترتادين مثل هذه الحفلات كثيراً؟"

أجابت الفتاة، بصوتٍ يقِظ واثق، "آخر حفلة كانت تلك التي قابلتكِ فيها". ثم التفتت إلى رفيقتها : "ألم تكن كذلك بالنسبة إليكِ، يا لوسيل؟"

وهكذا كانت فعلاً.

قالت لوسيل "أنا أحب أنْ آتي. لا يهمني ماذا أفعل، لذا فأنا دائماً أقضي وقتاً ممتعاً. وعندما جئت إلى هنا في آخر مرة مزَّقتُ ثوبي في أثناء جلوسي على الكرسي، فسألني عن اسمي وعنواني - وفي غضون أسبوع وصلتني لُفافة من محلات كرواريير تضم ثوب سهرة جديداً".

سألتْ جوردان "وهل احتفظتِ به؟"

"طبعاً احتفظتُ به. كنتُ أنوي أنْ أرتديه هذه الليلة، لكنه واسع جداً عند الصدر ويجب إجراء تعديل عليه. كان بلون أزرق الغاز وعليه خرز بلون الخزامى. ثمنه مائتان وخمسة وستون دولاراً"

قالت الفتاة الأخرى بلهفة "إنَّ مَنْ يفعل مثل ذلك التصرُّف إنسان غريب. إنه يتفادى أي مشكلة مع أي شخص"

سألتُ "عمَّن تتحدثين؟"

"عن غاتسبي. قال لي أحدهم"

انضمّت الفتاتان مع جوردان معاً في تبادلٍ للأسرار.

"قال لي أحدهم إنهم يعتقدون أنّه قتلَ رجلاً ذات مرة"

سرتْ الإثارة بيننا جميعاً. ومال السادة ممبل الثلاثة إلى الأمام وأصغوا بلهفة.

جادلَتْ لوسيل "لا أعتقد أنَّ الأمر هو هكذا؛ الأغلب أنه كان جاسوساً ألمانياً خلال الحرب"

هزَّ أحد الرجال الثلاثة رأسه موافقاً.

شدَّدَ مؤكّداً لنا "لقد سمعتُ هذا من شخصٍ يعرف كلَّ شيءٍ عنه، ونشأ معه في ألمانيا"

قالت الفتاة الأولى "أوه، كلا، لا يمكن أنْ يكون كذلك، لأنه كان

منخرطاً في الجيش الأميركي في أثناء نشوب الحرب". عندما انتقلَ تصديقنا عائداً إليها مالت إلى الأمام بحماسة. "انظروا إليه أحياناً عندما يعتقد أنَّ لا أحد ينظر إليه. أراهنُ على أنه قتلَ شخصاً"

ضيَّقَتْ عينيها وارتعشَتْ. لوسيل ارتعشَتْ. تلفَّتنا جميعاً حولنا بحثاً عن غاتسبي. كان ذلك شهادة على التفكير الرومانسي الذي ألهمه ويقول إنَّ هناك همساً حوله يصدر عن أشخاص لم يجدوا شيئاً آخر في العالم يستحق التهامس حوله.

قُدِّمَ العشاء الأول – إذ يُقدَّم عشاء آخر بعد منتصف الليل – ودعتني جوردان للانضمام إلى أفراد مجموعتها الخاصة، المنتشرين حول إحدى الموائد في الجانب المقابل من الحديقة. كان هناك ثلاثة أزواج ومُرافق جوردان، وهو طالب جامعي مُثابر يميلُ إلى التلميح العنيف، ومن الواضح أنه يعتقد أنَّ جوردان سوف تسلِّم له شخصيتها بصورة أو بأخرى، إنْ عاجلاً أو آجلاً. وبدل التجول بلا هدى، حافظت تلك المجموعة على تجانس مُحترَم، وأخذت على عاتقها مهمة تمثيل النبالة الرصينة التي يتَّسِم بها الريف – إيست إيغ تتنازل لويست إيغ وتأخذ جانب الحذر ضد طابعها اللاهي المتنوع الجوانب.

همسَتْ جوردان، بعد مرور ما يُقارب نصف ساعة بلا فائدة ولا طائل، "هيا بنا نخرج؛ إنَّ هذا الجو مُهذَّب أكثر من طاقتي على احتماله"

نهضنا، وبرّرت تصرّفنا بقولها إننا ذاهبون لنفتّش عن المُضيف : قالت إنها لم تُقابله قط، وهذا يُزعجني. وهزّ الطالب الجامعي رأسه موافقاً بطريقة ساخرة، كئيبة.

البار، الذي القينا عليه نظرة أول مرة، كان مزدحماً، لكنَّ غاتسبي لم يكن موجوداً عنده. لم تعثر علَيه من موقعها في أعلى الدَرَج، ولم يكن موجوداً في الشرفة. وجرّبنا مُصادفة باباً يبدو هاماً، وولجنا إلى غرفة

مكتب عالية السقف مُصممة على الطراز الغوطي، مكسوة جدرانها بألواح من خشب الزان الإنكليزي المحفور، ولعلّه مجلوب بأكمله من بين آثارٍ تقع ما وراء البحار.

كان هناك رجل بدين، في منتصف العمر، يضع نظارة بعدستين كبيرتين تشبهان عينيّ بوم، يبدو ثملاً قليلاً، جالساً على حافة طاولة كبيرة، يُحدّقُ بتركيزٍ ثابت إلى أرففٍ من الكتب. ولدى دخولنا استدار بسرعة وأخذ يتفحّص جوردان من رأسها وحتى قدميها.

سألها باندفاع "ما رأيكِ؟"

"فيمَ؟"

لوَّحَ بيده باتجاه أرفف الكتب.

"في هذه. في الواقع لستِ في حاجةٍ إلى التحقُّق منها. أنا تحقَّقتُ. إنها حقيقية"

"الكتب؟"

أومأ بالإيجاب.

"إنها حقيقية دون أدنى شك - تحتوي صفحات وما إلى ذلك. لقد حسبتُ أنها من الكرتون الجميل القوي. ولكن في واقع الأمر هي حقيقية تماماً. الصفحات و - هنا! دعيني أُريكِ"

لقد سلَّم بأننا نشك في الأمر، واندفعَ نحو خزانه الكتب ثم عاد مع المجلد الأول من كتاب "محاضرات ستودارد".

هتف بانتصار "أتريان! إنه قطعة أصيلة من المادة المطبوعة. لقد خُدِعتُ. إنَّ هذا الرجل ساحر حقيقي. إنه انتصار. أي كمال! أي واقعية! يعرف متى يتوقّف، أيضاً - إنه لا يقطع الصفحات. ولكن ماذا تريدان؟ ماذا تتوقعان؟"

انتزعَ الكتاب من يدي وأعاده بسرعة إلى مكانه على الرف، وهو يُغمغمُ بأنه إذا ما أُزيل حجرٌ واحد من مكانه فمن الممكن للمكتبة كلها أنْ تتهاوى.

سال "مَنْ أحضركما إلى هنا؟ أم أنكما أتيتما من تلقاء نفسيكما؟ أنا أتيت بمعيّة أحدهم. أغلب الناس جاؤوا بمُصاحبة آخرين"

نظرتْ جوردان إليه بحذر، ومرح، دون أنْ تُجيب.

تابعَ قائلاً "لقد أحضرتني امرأةٌ اسمها روزفلت، السيدة كلود روزفلت. هل تعرفانها؟ لقد قابلتها في مكانٍ ما في الليلة الفائتة. إنني ثمل منذ ما يُقارب الأسبوع، ورأيتُ أنني قد أصحو إذا جلستُ في غرفة المكتبة"

"وهل صحوت؟"

"قليلاً، أعتقد. لم أتأكّد بعد. إنني هنا فقط منذ ساعة. هل حكيتُ لكما عن الكتب؟ إنها أصلية. إنها –"

"لقد أخبرتنا"

تصافحنا برصانة وعدنا إلى الخارج.

حينئذٍ كان الرقص قد بدأ على الكنفا في الحديقة؛ رجالٌ عجائز يدفعون فتيات صغيرات إلى الخلف بحركات دائرية خالية من الجمال، وأزواج أرقى متشابكون يلتوون، بأسلوبٍ عصري، ويلازمون الزوايا – وعدد كبير من العذارى يرقصن فُرادى أو يُخفّفنَ عن أفراد الفرقة الموسيقية برهة بالعزف على البانجو أو على الترامبون. وبحلول منتصف الليل كانت وتيرة المرح قد ازدادت. وكان مغني صوت تينور شهير قد غنّى بالايطالية، ومغنية صوت كونترالتو شهيرة قد غنّت لحن جاز، وبين الفقرات كان الناس يؤدون "حركات بهلوانية "في كل أرجاء

الحديقة، بينما عواصف سعيدة، لا معنى لها، من الضحك تتعالى نحو سماء الصيف. وقامت توأمان ممثلتان، تبيَّنَ أنهما الفتاتان اللتان ترتديان الثوب الأصفر، أدَّتا فصل طفلتين بملابسهما، وقُدِّمت الشمبانيا في كؤوسٍ أكبر حجماً من وعاء غسل الأنامل. كان القمر قد ارتفع إلى عنان السماء، وطاف فوق الساوند شكلٌ مثلَّث لميزان فضّي، مرتعشاً قليلاً على نقر آلات البانجو المشدود، الناعم على المرج.

كنتُ لا أزال واقفاً مع جوردان بيكر. وكنا جالسين على طاولة مع رجلٍ في مثل سنّي تقريباً وفتاة صغيرة مُشاكسة، كانت تنهار لدى أقلّ تحريض في ضحكٍ منفلت. كنت أستمتع بوقتي حينئذٍ. وكنتُ قد شربت ملْ وعائي غسل الأنامل من الشمبانيا، وتبدَّل المشهد أمام عينيّ إلى شيءٍ رائع، جوهري وعميق.

خلال فترة تراخي التسلية نظر الرجل إليّ وابتسم.

قال بأدب "وجهك مألوفٌ لديّ. ألم تكن في الفرقة الأولى في أثناء الحرب؟"

"في الواقع، نعم. كنتُ في كتيبة المُشاة الثامنة والعشرين"

"وأنا كنتُ في الكتيبة السادسة عشرة حتى شهر حزيران حتى عام ١٩١٨. كنتُ متأكداً من أني رأيتك في مكان ما من قبل"

تحدّثنا برهة عن بعض القرى الفرنسية الصغيرة، الكئيبة والرطبة. من الواضح أنه كان يُقيم في منطقة مجاورة، لأنه أخبرني أنه اشترى تواً زورقاً بُخارياً، وأنه سيجرّبه في الصباح.

"أتريد أنْ ترافقني، أيها الرياضي القديم؟ سوف نبقى بالقرب من شاطئ ساوند"

"في أي وقت؟"

"في أي وقتٍ يُناسبك"

كان على طرف لساني أنْ أساله عن اسمه عندما تلفَّتت جوردان حولها وابتسمت.

سألتُ "هل أصبحت تقضي وقتاً مرحاً الآن؟"

"أنا أفضل بكثير"، والتفتُّ من جديد إلى الشخص الذي تعرَّفتُ عليه حديثاً. "هذه حفلة غير عادية بالنسبة إليّ. إنني حتى لم أرَ المضيف. أنا أقيمُ هناك – "وأشرتُ بيدي إلى السياج غير المرئي على البُعد، "وهذا الرجل غاتسبي أرسل لي سائقه الشخصي حاملاً دعوة"

للوهلة الأولى نظر إليّ كأنه عاجز عن الفهم.

فجأةً قال "أنا غاتسبي"

هتفت "ماذا! أوه، عفواً"

"حسبتُ أنكَ عرفتني، يا صاحبي. أخشى أني لستُ مضيفاً بارعاً جداً"

رسم ابتسامةً مُتفهّمة – بل أكثر من متفهّمة. إنها واحدة من تلك الابتسامات النادرة تنطوي على خاصية الطمأنينة الأبدية، ولا تصادفها في حياتك كلها أكثر من أربع أو خمس مرات. تواجه للوهلة الأولى – أو بدا أنها تواجه – العالم الأبدي بأسره، ومن ثم تركِّز على المرء بتحامُل لا يُقاوَم لصالحه. إنها تفهمه ما دام يُريد أنْ يُفهَم، وتؤمن به بقدر ما يودّ أنْ يؤمن بنفسه، وتؤكّد له أنها تحمل عنه بالضبط الانطباع الذي يريد أن يُعطيه، في أحسن الأحوال. في تلك اللحظة بالذات تلاشت – ووجدتني أنظر إلى شاب وسيم ذي رقبة ثخينة، يتجاوز عمر الثلاثين بعام أو عامَين، أسلوبه الرسمي الدقيق في الكلام يكاد يكون سخيفاً. وقبل أنْ يُقدِّم نفسه إليّ بقليل تكوَّنَ لديّ انطباعٌ قوي بأنه ينتقي كلماته بعناية.

في اللحظة التي عرّفَ السيد غاتسبي فيها بنفسه هرعَ ساقٍ نحوه يحمل معلومة تقول إنَّ مكالمةً تنتظره من شيكاغو. فاستأذنَ مع انحناءة صغيرة لكل واحد منا على حِدة.

ألحَّ عليّ "إذا أردتَ أيَّ شيء فاطلبه مني، يا صاحبي. عن إذنك. سأنضم إليك لاحقاً"

بعد أنْ ابتعد التفت فوراً إلى جوردان - وأنا مُكره على التأكيد لها على أني قد فوجئت. لقد توقّعت أنْ يكون السيد غاتسبي شخصاً مُنمَّقاً بديناً في منتصف العمر.

سألت "مَنْ هو؟ أتعلمين؟"

"إنه مجرد رجل اسمه غاتسبي"

"أعني، مِنْ أين هو؟ وما هو عمله؟"

أجابت مع ابتسامة واهنة "الآن أنت فتحت الموضوع. حسن، لقد قال لي ذات مرة إنه كان مُلتحقاً بجامعة أوكسفورد"

بدأتْ تتكون لديّ سيرة غامضة عنه، ولكن بعد ملاحظتها التالية تلاشتْ.

"لكني لا أصدقُ ذلك"

"ولِمَ لا؟"

أصرَّتْ "لا أدري. أنا فقط لا أعتقد أنه ذهب إلى هناك"

شيءٌ في نبرة صوتها ذكَّرني بملاحظة الفتاة الأخرى "أعتقد أنه قتلَ شخصاً"، وأثارت فضولي. وكان يمكن أنْ أقبل دون نقاش المعلومة التي تقول إنَّ غاتسبي نشأ في مستنقعات لويزيانا أو في الحي الشرقي السفلي من نيويورك. كان ذلك مفهوماً. لكنَّ الشبّان لا يظهرون - على الأقلّ

لم أؤمن بأنهم كذلك من خلال تجربتي الريفية - بهدوء من المجهول ويشترون قصراً يقع في لونغ أيلند ساوند.

قالت جوردان، مغيِّرة الموضوع مع معبِّرة عن كراهية أهل المدن للأشياء الملموسة، "على أي حال، إنه يُقيمُ حفلات كبيرة، وأنا أحبُ الحفلات الكبيرة. إنها حميمة جداً. في الحفلات الصغيرة لا تتوفَّر أي خصوصية"

سُمع دويّ الطبل النحاسي، وصوت قائد الفرقة الموسيقية يعلو فجأةً فوق الأصداء التي تصدر عن الحديقة.

صرخَ "سيداتي سادتي، نزولاً عند طلبِ من السيد غاتسبي سوف نعزف لكم آخر أعمال فلاديمير توستوف[٦]، الذي استقطبَ الكثير من الاهتمام في كارناغي هول في شهر أيار الفائت. وإذا قرأتم الصحف فستعرفون الضجّة التي أثارها". وابتسمَ بتعطُّف مرِح، ثم أضاف "ويا لها من ضجة!"، وعلى الأثر ضحك الجميع.

وختم بحيوية "المقطوعة معروفة باسم "التاريخ العالمي للجاز حسب فلاديمير توستوف!"

مقطوعة فلاديمير توستوف حيَّرتني، لأنه حالما بدأتْ وقعَتْ عيناي على غاتسبي وهو واقف وحيداً على الدَرَج الرخامي ويُنقِّل نظره من مجموعةٍ إلى أخرى باستحسان. كانت بشرة وجهه التي لفحتها أشعة الشمس مشدودة على وجهه بشكلٍ جذّاب وبدا شعره القصير وكأنه يُشذَّب كل يوم. ولم أرَ فيه شيئاً شريراً. وتساءلتُ إنْ كان امتناعه عن شرب الخمر ساعدَ على إبعاده عن ضيوفه، لأنه أصبح يبدو أكثر صواباً

(٦) توستوف : هذا المؤلِّف الموسيقي لا وجود له ، وهو من اختراع مؤلِّف الكتاب. - المترجم

مع ازدياد وتيرة المرح الصاخب الودّي. وعندما انتهت مقطوعة "التاريخ العالمي للجاز"، كانت الفتيات يضعن رؤوسهن على أكتاف الرجال باستكانةٍ مخمورة، وهنَّ منتشيات ويملنَ إلى الخلف عابثات بين أذرع الرجال، حتى وهنّ ضمن مجموعات، لعلمهنَّ أنَّ أحدهم سيدعم سقوطهنّ - ولكن ولا واحدة مارست ذلك مع غاتسبي، ولا لمس رأسٌ بقصّة شعر فرنسية قصيرة كتف غاتسبي، ولا تشكّلتْ جوقة غناء رباعيّة لأجله.

"عُذراً"

فجأةً وجدنا ساقي غاتسبي واقفاً بجانبنا.

سأل "مس بيكر؟ عُذراً، ولكن السيد غاتسبي يودُّ أنْ يتحدَّث معك على انفراد"

هتفت بدهشة "معي أنا؟"

"نعم، مدام"

نهضت ببطء، رافعة حاجبيها لي من فرط الدهشة، وتبعت الساقي باتجاه المنزل. ولاحظتُ أنها ترتدي ثوبها المسائي، بل وملابسها كلها، وكأنها ملابس رياضية - كانت حركاتها تتسِم بالمرح وكأنها تتعلَّم المشي للمرة الأولى على مضامير لعبة الغولف في صباحٍ صافٍ و منعش الهواء.

أصبحتُ وحيداً وكادت الساعة تبلغ الثانية. صدرت لبعض الوقت أصواتٌ مضطربة وغامضة من غرفةٍ طويلة، متعددة النوافذ تعلو المصطبة. فتملَّصتُ من صديق جوردان طالب الجامعة، الذي كان قد حينئذٍ قد انهمكَ في حديث عن التوليد مع فتاتين من الجوقة، وناشدني أنْ أنضمَّ إليه، وخرجتُ.

كانت الغرفة الرحبة ممتلئة بالناس. وإحدى الفتاتين اللتين ترتديان الثوب الأصفر تعزف على البيانو، وإلى جوارها وقفت صبيّة ممشوقة القامة، حمراء الشَعر من أفراد الجوقة الشهيرة، منهمكة في الغناء. كانت قد شربت كمية كبيرة من الشمبانيا، وفي أثناء أداء أغنيتها قرَّرتْ، بشكلٍ أخرق، أنَّ كل شيء أضحى حزيناً جداً، جداً - ولم تكن فقط تغني، بل وتبكي أيضاً. وكلما مرّت برهة صمت في سياق الأغنية كانت تملأها بزفر الآهات، والنشيج المتقطِّع، ومن ثم تعود إلى كلمات الأغنية بصوت سوبرانو مرتعش. وجرت الدموع على وجنتيها - ولكن ليس بغزارة، لأنها حين كانت تلمس رموش عينيها المُثقلة بقطرات الدمع كانت تتخذ لون الحبر، ومن ثم تتابع ما تبقّى من طريقها على شكل جداول بطيئة سوداء اللون. وصدر اقتراحٌ ظريف هو أنْ تغني النوتة المرسومة على صفحة وجهها، وعلى الأثر رفعت يديها عالياً، ثم غاصت في أحد الكراسي، وغطّتْ في نوم الخمر العميق.

شرحَتْ الفتاة الواقفة إلى جواري "لقد تشاجرت مع رجلٍ يقول إنه زوجها"

تلفَّتُ حولي. كانت غالبية النساء يتشاجرن الآن مع رجالٍ يُقال إنهم أزواجهن. حتى أفراد مجموعة جوردان، الرباعي من إيست إيغ، تمزَّقوا إرباً بالشِقاق. كان أحد الرجال يتحدّث بحِدّة غريبة مع ممثلة شابة، أما زوجته، وبعد محاولةٍ للضحك على الوضع بطريقة وقور ولا مبالية، انهارت تماماً ولجأتْ إلى نوبات توجع الخواصِر - كانت على فترات تظهر فجأةً إلى جواره كجوهرةٍ غضبى، وتهمس : "لقد وعدتني! " في أذنه.

كراهية العودة إلى المنزل لم تكن تقتصر على العاصين من الرجال. كانت القاعة في ذلك الوقت يشغلها رجلان ليسا ثملَين بشكلٍ يدعو إلى

الأسى مع زوجتيهما الساخطتين إلى أقصى درجة. كانت الزوجتان تعبِّر عن تعاطف كل منهما مع الأخرى بأصوات عالية قليلاً.

"إنه كلما رأى أني أقضي وقتاً ممتعاً يرغب في العودة إلى المنزل"

"أنا لم أسمع بمثل هذه الأنانية في حياتي"

"إننا دائماً أول المغادرين"

"ونحن أيضاً"

قال أحد الرجلَين بارتباك "حسن، نحن تقريباً آخر الباقين هذه الليلة. والفرقة الموسيقية غادرتْ منذ نصف ساعة مضت"

على الرغم من اتّفاق الزوجتَين على أنَّ هذه الضغينة لا تُصدَّق، انتهى النزاع بشجار قصير، رُفِعَتْ الزوجتان، وهما ترفسان، وخرجوا إلى قلب الليل.

في أثناء انتظار جلب قبعتي في القاعة فُتِحَ باب غرفة المكتبة وخرج منها جوردان بيكر وغاتسبي معاً. كان يقول لها آخر كلمة، لكنَّ اللهفة في مظهره ضُبِطَتْ على عَجَل وتحوّلتْ إلى سلوكٍ رسمي لدى اقتراب عدد من الناس منه ليودّعوه.

كان فريق جوردان بيكر يُناديها بصبر نافد من شرفة المدخل، لكنها تلكّأت برهةً لتقوم بالمصافحة.

همستْ "لقد سمعت شيئاً مذهلاً. كم دام مكوثنا هناك؟"

"حوالي الساعة"

كرّرت بشرود "لقد كان... ببساطة شيئاً مذهلاً. لكني أقسمتُ على ألاّ أُفشيه وها أنا أعذّبك". تثاءبتْ في وجهي. "أرجوك تعال وزُرني... دليل الهاتف... مُدرَج تحت اسم السيدة سيغورني هوارد... عمتي... " كانت تُسرع في الرحيل وهي تتكلّم - لوّحت بيدها السمراء بتحية وداع مرحة وهي تغيب داخل جماعتها عند الباب.

شعرتُ بالخجل لأني في زيارتي الأولى مكثتُ حتى وقتٍ متأخر، فانضممتُ إلى آخر ضيوف غاتسبي الذين تجمهروا حوله. أردتُ أنْ أبرِّر موقفي بالقول إني بحثتُ عنه في وقتٍ مُبكِّر من المساء وأنْ اعتذر لأني لم أتعرَّف عليه في الحديقة.

قال لي بنبرة آمرة متلهّفة "لا داعي للتبرير. لا تفكِّر في الأمر، يا صاحبي". التعبير المألوف لم يعُد يحمل شيئاً من الألفة أكثر من اليد التي شدّت على كتفي مُطمئنة. "ولا تنسَ أننا سنستقل الزورق البخاري غداً صباحاً، عند الساعة التاسعة"

ثم قال له الساقي، الواقف خلف كتفه :

"فيلادلفيا تريدك على الهاتف، يا سيدي"

"حسن، سآتي بعد دقيقة. قُل لهم إني سأكون معهم... تصبح على خير"

"تصبح على خير"

"تصبح على خير". ابتسمَ - وفجأةً بدا لي أنَّ في كوني من بين آخر المُغادرين مغزى سارّ، وكأنه كان يرغب في ذلك طوال الوقت. "تصبح على خير، يا صاحبي... تصبح على خير"

ولكن في أثناء هبوطي الدَرَج رأيتُ أنَّ السهرة لم تنتهِ بعد. فعلى بُعد خمسين قدماً من الباب أضاء عدد من أضواء السيارات الأمامية مشهداً غريباً وعنيفاً. ففي الخندق بجانب الطريق، استقرَّت سيارة كوبيه جديدة، منقلبة على جنبها، لكنَّ أحد دواليبها منزوع بعنف، كانت قد غادرتْ ممشى منزل غاتسبي قبل دقيقتين. البروز الحادّ للجدار فسَّرَ انفصال الدولاب، الذي كان عندئذٍ يحظى بانتباه شديد من مجموعة فضولية من السائقين. ولكن، بينما هم يتركون سياراتهم تسدّ الشارع،

سُمعَ ضجيج، عنيف ومتنافر من الجزء الخلفي لبعض الوقت، وضاعفَ من فوضى المشهد العارمة.

كان رجل يرتدي مئزراً طويلاً قد ترجل عن الحطام ووقفَ في وسط الطريق، يُنقِّل نظره من السيارة إلى إطار الدولاب ومن الإطار إلى المُشاهدين بطريقة ممتعة وقد أخذته الحيرة.

هتفَ "كما ترون! لقد وقعت في الخندق"

لقد كانت هذه الحقيقة مُدهِشةً أيّما إدهاش بالنسبة إليه، وقد لاحظتُ أولاً نوعية الاستعجاب الغريبة، ومن ثم الرجل - إنه آخر مَنْ أبدى إعجابه بمكتبة غاتسبي.

"كيف وقع الأمر؟"

هزَّ كتفيه مُبدياً جهله.

قال بحزم "أنا لا أفهم أيَّ شيء في الميكانيكا"

"ولكن كيف وقع الحادث؟ هل ارتطمتَ بالجدار؟"

قال صاحب عينيّ البوم، نافضاً يديه من المسألة برمَّتها، "لا تسألني، أنا لا أعرف الكثير عن قيادة السيارات - بل لا شيء. لقد وقع الأمر، وهذا كل ما أعرفه"

"إذن، ما دمتَ سائقاً رديئاً ما كان ينبغي أنْ تحاول القيادة ليلاً"

شرح بسخط "ولكني لم أكن حتى أحاول ذلك، لم أكن حتى أحاول"

خيَّمَ صمت مهيب على الواقفين.

"أتريد أنْ تنتحر؟"

"أنتَ محظوظ لأنَّ الضرر اقتصرَ على الدولاب! سائق سيء ولم يكن حتى يُحاول"

شرح المجرم "أنتم لا تفهمون؛ أنا لم أكن أقود السيارة. هناك شخصٌ آخر في السيارة"

وجدت الصعقة التي تلت هذا الإعلان تعبيراً عنها في "آه—ه—ه! " مكبوتة، عندما فُتحَ باب السيارة ببطء. تراجع الحشد - أصبح الآن حشداً - إلى الخلف بحركة عفوية، وعندما فُتحَ الباب واسعاً ساد صمتٌ مُخيف. ثم، ببطءٍ شديد، وجزء بعد جزء، خطا شخصٌ شاحب الوجه خارجاً من بين الحطام، مُتلمِّساً الأرض بحذاء رقص كبير متعثِّر.

بهرت عينيّ الشخص أضواء السيارات الأمامية واضطربَ من زئير الأبواق المتواصِل، فوقفَ مترنحاً برهة قبل أنْ يُميِّز الرجل ذا المئزر.

سأل بهدوء "ما الأمر؟ هل نفد منا الوقود؟"

"انظر!"

أشارت مجموعة من الأصابع باتجاه الدولاب المبتور - فحدَّقَ إليه برهة، ومن ثم رفعَ بصره عالياً وكأنه توقَّعَ أنْ يكون قد هبط من السماء.

شرحَ أحدهم "لقد انفكّ"

هزَّ رأسه إيجاباً.

"في أول الأمر لم ألاحظ أننا توقّفنا"

سادت برهة صمت. ثم، أخذ نَفَساً عميقاً وشدَّ كتفيه، وعلَّقَ بصوت حازم:

"هل يمكنكم أنْ تخبروني أين يمكن أنْ أجد محطة لبيع الوقود؟"

أخيراً قام عدد من الرجال، بعضهم أكثر ثراءً منه، بالشرح له بأنّ الدولاب والسيارة لم يعودا يرتبطان بأي رباط ماديّ.

بعد قليل اقترح قائلاً "تراجع. ضعه بالعكس"

"ولكن الدولاب مخلوع!"

تردَّد.

قال "لا ضرر في المحاولة"

كانت الأبواق التي تموء قد وصلتْ إلى الذروة واستدرتُ واجتزتُ المرج باتجاه المنزل. نظرت خلفي مرة. كانت رُقاقة القمر تسطع على منزل غاتسبي، جاعلة الليل رائعاً كما كان، مُبقية على الضحك وعلى أصوات حديقته التي لا تزال تتوهّج. ثم بدا كأنَّ فراغاً مُفاجِئاً يتدفّق من النوافذ ومن الأبواب الكبيرة، وظهرت العزلة الكاملة لقامة المُضيف، الذي وقف على رواق المدخل، رافعاً يده في إيماءة وداع رسميّة.

عندما أقرأ ما كتبته حتى الآن أرى أني أعطيتُ انطباعاً بأنَّ أحداث ثلاث ليالٍ يفصل بينها عِدّة أسابيع هي كل ما شغلني. والعكس هو الصحيح، فقد كانت مجرد أحداث عارضة في صيفٍ مُزدحم بالأحداث، وقد بقيَتْ، حتى بعد ذلك بوقت طويل، لا تشغلني إلا أقلّ من شؤوني الشخصية بما لا يُقارَن.

كنتُ أعمل مُعظم الوقت. في الصباح الباكر ترمي أشعة الشمس ظلي جهة الغرب وأنا أهرع على طول التصدعات البيضاء لنيويورك السفلى متجهاً إلى شركة بروبيتي ترست. كنتُ أعرف باقي الكتبة وبائعي السندات الشبان بأسمائهم الأولى، وأتناول معهم وجبات الغداء في مطاعم مزدحمة ومظلمة المؤلّفة من سجق لحم الخنزير الصغير والبطاطا المسحوقة والقهوة. بل أني أقمتُ علاقة قصيرة الأمد مع فتاةٍ تعيشُ في جرزي سيتي وتعمل في قسم الحسابات، لكنَّ أخاها بدأ يرميني بنظرات خبيثة، لذا عندما ذهبتْ لقضاء إجازتها في شهر تموز كانت فرصة لي لإنهاء العلاقة بهدوء.

كنتُ أتناول طعام العشاء في المعتاد في نادي ييل - لسببٍ ما كان ذلك هو أشد أحداث يومي كآبة - ومن ثم أرتقي إلى الطابق العلوي إلى المكتبة لأدرس التوظيفات والسندات المالية حتى ساعة يرضى عنها ضميري. وفي العموم كان هناك عدد من المشاغبين في المكان، لكنهم لم يقتربوا من المكتبة، لذا كان العمل في المكتبة ممتعاً. وبعد ذلك، إذا كان الليل رائقاً، أتمشّى في جادة ماديسون وصولاً حتى محطة بنسلفانيا.

وبدأتُ أحبّ نيويورك، الإحساس بتنوّعها العرقي، وبطابعها المُغامِر ليلاً، وبالإشباع الذي يمنحه بريقُ الرجال والنساء والآلات للعين القلقة. أحببتُ المشي في الجادة الخامسة وانتقاء نساء رومانسيات من بين الحشد وتخيُّل أني في غضون بضع دقائق سوف ألج حياتهنّ، دون أنْ يعرف أحدٌ بذلك أو يُبدي اعتراضه. وأحياناً، في ذهني، كنتُ ألاحقهنّ حتى شققهن عند منعطفات شوارع مُستترة، ويلتفتنَ ويبادلنني الابتسام قبل أنْ يختفين وراء أحد الأبواب داخل ظلمة دافئة. وفي غسق المدينة الكبرى السحري كنتُ أشعر بوحشة تتملّكني أحياناً، وشعرتُ بها عند أشخاص آخرين - عند كتبة شبان مساكين يتسكّعون أمام الواجهات ينتظرون إلى أنْ يحين موعد تناول وجبة عشاء في مطعم منعزل - كتبة شبّان عند الغسق، يُبددون أشد لحظات الليل والحياة خصباً دون طائل.

مرة أخرى عند الساعة الثامنة، عندما تغصُّ الأزقة المُظلمة لمنطقة فورتيز بعمق خمسة صفوف من سيارات الأجرة، أنطلقُ إلى منطقة المسارح، وأشعر بقلبي يغوص بين أضلعي. ارى أشكالاً تتجمع معاً داخل سيارات الأجرة وتنتظر، وثمة أصوات تغني، وضحك ينطلق على نكات غير مسموعة، وسجائر مشتعلة تبثُّ دوائر غامضة في الداخل. وأتخيَّل نفسي أيضاً أهرَعُ باتجاه مكان الابتهاج لأشاركهم مرحهم الحميم، وأتمنى لهم الخير.

مرت فترة فقدت خلالها أثر جوردان بيكر، ثم في منتصف الصيف عثرتُ عليها من جديد. في أول الأمر شعرتُ بالفخر لارتيادي الأماكن معها، لأنها كانت بطلة في لعبة الغولف، والجميع يعرفونها بالاسم. لكنَّ الأمر تعدَّى ذلك. لم أكن بالضبط واقعاً في شِباك الحب، لكنني شعرتُ بما يُشبه الفضول الرقيق. الوجه المتغطرس الملول الذي وجّهته نحو العالم كان يُخفي شيئاً - فمعظم التعبيرات المُتكلّفة تُخفي شيئاً في نهاية المطاف، على الرغم من أنها لا تفعل في البداية - وذات يوم عرفتُ ما هو. فعندما كنا معاً في حفلٍ عائلي في وارويك، تركت سيارة مُستعارة في الخارج تحت المطر دون غطاء، ومن ثم كذبت بهذا الشأن - وفجأةً تذكّرتُ قصةً عنها كانت قد غابت عن ذهني في تلك الأمسية في منزل ديزي. فخلال أول اشتراكٍ لها في دورة كبرى للعبة الغولف نشجب شجارٌ كاد خبره يصل إلى الصحافة - عن تلميحٍ إلى أنها حرّكتْ الكرة عن موقعٍ سيء في جولة نصف النهائي - ثم نُسيَ الأمر. ثم تراجع صبي جمع الكرات عن أقواله، وكان الشاهد الوحيد الذي اعترفَ بأنه يمكن أنْ يكون قد أخطأ. وبقيت الحادثة والاسم معاً في ذاكرتي.

لقد كانت جوردان بيكر تتفادى غريزياً الرجال الحاذقين، الأذكياء، والآن اكتشفتُ أنَّ سببَ ذلك يعود إلى أنها كانت تشعر بأمانٍ أكبر على المستوى الذي من المستحيل الانحراف فيه عن الدستور القائم. لقد كانت كاذبة بشكلٍ ميؤوس منه. لم تكن قادرة على تحمُّل كونها في وضع الخاسر، وبسبب هذا العِناد أعتقد أنها بدأتْ تلجأ إلى الحيل الخادعة منذ أنْ كانت صغيرة جداً لكي تحتفظ بتلك الابتسامة الهادئة، الوقحة، وتواجه بها العالم وفي الوقت نفسه تلبي مطالب جسدها الصلب، الطروب.

الأمر لم يعنِ لي شيئاً. الكذب عند المرأة صِفة غير مُستهجنة كثيراً -

وشعرت ببعض الأسف، ومن ثم نسيتُ الأمر. وفي تلك الحفلة المنزلية ذاتها أجرينا حديثاً غريباً حول قيادة السيارات. وقد بدأناه لأنها كانت قد مرَّت بأحد العمّال من مسافة قريبة جداً حتى أنَّ رفرف سيارتنا مسَّ زراً في معطف أحدهم.

قلتُ مُحتجّاً "أنتِ سائقة رديئة. فإما أنْ تكون أكثر حرصاً، أو تتخلّي عن القيادة كلها"

"أنا حريصة"

"كلا، لستِ كذلك"

أجابت بخفّة "حسن، الآخرون حريصون"

"ما دخل هذا في الأمر؟"

أصرّتْ "سوف يبتعدون عن طريقي. إنَّ الحوادث تحتاج إلى طرفَين لتقع"

"لنفرض أنكِ قابلت شخصاً يُعادلك في الإهمال"

أجابت "آمل ألا أقابله. أنا أكره المُهملين. لهذا أنتَ تعجبني"

حدَّقَت عيناها الرماديتان، المتوترتان بتأثير أشعة الشمس، أمامها، لكنها كانت قد عمدتْ إلى إحداث تغيير في علاقاتنا، وظننتُ للوهلة الأولى أني أحببتُها. لكنني بطيء التفكير وممتلئ بالقواعد الداخلية التي تعمل كمكابح لرغباتي، وأدركتُ أنَّ عليَّ أولاً أنْ أتخلَّص حتماً من ذلك الشرك في المنزل. كنتُ أكتب رسائل مرةً في الأسبوع وأوقّعها بـ : "مع حبي، نيك"، وكل ما استطعت أنْ أفكر فيه هو كيف كان يظهر لتلك

الفتاة وهي تلعب التنس شارباً رفيعاً من العَرَق فوق شفتها العليا. ومع ذلك كان هناك تفاهمٌ مُبهمٌ يجب كسره بلباقة قبل أنْ أتحرَّر.

إنَّ كل إنسان ينسب إلى نفسه على الأقلّ واحدة من الفضائل الأصلية، وهذه هي فضيلتي: أنا أحد الصادقين القلائل الذين قابلتهم في حياتي.

الفصل الرابع

في صباح يوم الأحد بينما أجراس الكنيسة تقرع في القرى الواقعة على طول الساحل، عاد العالم وخليلته إلى منزل غاتسبي ولمعا بتلألؤ على مرجه.

قالت الصبايا، وهنَّ يتنقّلنَ ما بين كوكتيله وأزهاره، "إنه مُهرِّب خمور. وذات مرة قتلَ رجلاً اكتشفَ أنه يمتُّ بصِلة قُربى لفون هندنبرغ[٧] من ناحية وللشيطان من ناحية أخرى. أعطني وردة، يا عزيزتي، وصبّي لي قطرة أخيرة في هذه الكأس المتلألئة"

ذات مرة كتبتُ على مساحةٍ فارغة من جدول مواعيد أسماءَ الذين تردّدوا على منزل غاتسبي في ذلك الصيف. أصبح الآن جدول مواعيد عتيقاً، يتعفَّن عند حوافه المطوية، ومُعنون "هذه القائمة واجبة في الخامس من شهر تموز، عام ١٩٢٢". ولكن لا يزال في استطاعتي أنْ أقرأ الأسماء الباهتة، وسوف يعطونكَ انطباعاً أفضل مما تفعله معلوماتي العامة عن أولئك الذين قبلوا حُسن ضيافة غاتسبي وعبَّروا عن امتنانهم المرهف له بعدم معرفتهم أي شيء مهما كان عنه.

إذن، من إيست إيغ قدِمَ آل تشستر بيكر وآل ليتش، ورجلٌ اسمه بنسِنْ، عرفته في جامعة ييل، والدكتور وبستر سيفت، الذي غرق في الصيف الفائت في ولاية مين. وآل هورنبيم وآل ويلي فولتير وقبيلة

(٧) بول فون هندنبرغ (١٨٤٧-١٩٣٤) : قائد حربي ، ورجل دولة ، وأخيراً رئيس دولة ألمانيا ما بين ١٩٢٥- ١٩٣٤. - المترجم

بأكملها اسمها بلاكْبَكْ، دائماً يتجمّع أفرادها في إحدى الزوايا ويرفعون أنوفهم كالتيوس باتّجاه كل مَنْ يقترب منهم. وآل إزميه وآل كريستي (أو بالأحرى هيوبرت أورباخ وزوجة السيد كريستي) وإدغار بيفر، الذي يُقال إنَّ شَعره تحول فأصبحَ بلون القطن بعد ظهيرة يوم شتائيّ بدون أي سبب.

كلارنس إندايف، كما أذكر، كان من إيست إيغ. وجاء مرة واحدة فقط، مرتدياً بنطلوناً قصيراً مزموماً عند الركبة، وتقاتلَ من متشرّد اسمه إتي في الحديقة. ومن مكانٍ قصيّ على الجزيرة أتى آل تشيدل وآل أ. ر. ب. شريدر، وآل ستونْويلْ جاكسون أبرامس من جورجيا، وآل فيشغارد وآل ريبلي سنيل. مكثَ سنيل ثلاثة أيام قبل أنْ يذهب إلى الإصلاحية، وكان من شِدّة السُكر وهو يمشي على الممر المُحصّى بحيث أنَّ سيارة السيدة يوليسيس سويت داست على يده اليمنى. وآل دانسي جاؤوا أيضاً، وس. ب. وايتبيت، الذي يتجاوز الستين بكثير، وموريس أ. فلينك، وآل هامرهيد، وبيلوغا مُستورِد التبغ، وفتيات بيلوغا.

ومن ويست إيغ جاء آل بول وآل ملريدي وسيسيل روبك وسيسل شون وغوليك عضو مجلس الولاية ونيوتن أوركيد، الذي يُهيمن على شركة فليمز بار إكسيلنس، وإيكهوست وكلايد كوهن ودون س. شفارتس (الابن) وآرثر مكارتي، وكلهم لهم صِلة بمجال السينما بطريقة أو بأخرى. وآل كاتليب وآل بمبرغ و جـ. إيرل ملدون، أخو ملدون الذي خنقَ زوجته لاحقاً. دا فونتانو المتعهّد جاء إلى هناك، وإد ليغروس وجيمس ب. ("الخسيس") فيريت و آل ديه يونغ وإرنست ليلي – جاؤوا ليُقامروا، وعندما راح فيريت يتجول في الحديقة كان ذلك يعني أنه قد أفلس وسوف تُضطر أسوشيتد تراكشن في اليوم التالي إلى التحرُّك لتزيد أرباحها.

رجل اسمه كليبسبرينغر كان يتردَّد إلى هناك كثيراً ويُطيل المكوث حتى أصبحَ يُعرَف بـ "النزيل"- وأشكُّ في أنه كان لديه منزل آخر. ومن أهل المسرح كان هناك غص ويز وهوراس ودونافان وليستر ماير وجورج دكْويد وفرانسيس بول. وأيضاً من نيويورك كان هناك آل كروم وآل باكايسون وآل دنيكر ورسل بتي وآل كوريغان وآل كيلير وآل ديوار وآل سكالي و س.و. بلتشر وآل سميرك والزوج الشاب كوين، اللذان تطلّقا الآن، وهنري ل. بالميتو، الذي انتحر بالقفز أمام قطارٍ نفقي في ساحة تايمس.

كان بيني ماكلينان يصل دائماً مع أربع فتيات. وكنَّ مختلفات في كل مرة في الشكل، لكنهنَّ كنَّ متشابهات إلى درجة أنه كان يبدو أنهنَّ جئنَ إلى هناك من قبل. لقد نسيت أسماءهن - جاكلين، أعتقد، أو كونسويلا، أو غلوريا أو جودي أو جين، وكنيتهنّ كانت إما أسماءً موسيقية لأزهار وأشهر أو أسماء أكثر تجهّماً لرأسماليين أميركيين كِبار، وإذا مورِسَ الضغطُ عليهنّ فسوف يعترفن بأنهنّ أقرباء لهم.

بالإضافة إلى كل هؤلاء أذكُرُ أنَّ فاوستينا أوبراين أتت إلى هناك على الأقلّ مرة واحدة وفتيات بيديكر والشاب بريوير، الذي جُدِعَ أنفه في الحرب، والسيد ألبروكسبيرغر والآنسة هاغ، خطيبته، وأرديتا فيتز- بيترز والسيد ب. جويت، الذي كان ذات مرة قائد الفيلق الأميركي، والآنسة كلوديا هيب، بصُحبة رجلٍ يُظنُّ بأنه سائقها الشخصي، وأمير على شيء ما، كنا نخاطبه بدوق، واسمه، إنْ كنتُ أعرفه، فقد نسيته.

أولئك الناس جميعاً جاؤوا إلى منزل غاتسبي في الصيف.

عند الساعة التاسعة من صباح أحد أيام أواخر شهر تموز، تهادت سيارة غاتسبي الفخمة على الممشى الصخري المؤدي إلى باب منزلي وأطلقتْ صوتاً قوياً متناغماً من بوقها ذي النغمات الثلاث. كانت تلك

المرة الأولى التي يُعرِّج فيها عليّ، على الرغم من أني كنتُ قد ارتدتُ اثنتين من حفلاته، وركبتُ زورقه البخاري، واستخدمتُ مراراً، بعد دعوة ملحّة منه، شاطئه.

"صباح الخير، يا صاحبي. سوف تتناول طعام الغداء معي اليوم وقد فكَّرتُ في أنْ نذهب في نزهة معاً بالسيارة"

كان يوازنُ نفسه على حاجب السيارة الأمامي بتلك الحركة البارعة التي يتميَّز بها الأميركيون – أعتقد أنَّ ذلك ناتج عن غياب أعمال الرفع التي كان تُمارَس في عهد الشباب، وأيضاً عن الجمال غير المُحدَّد الناجم عن ممارسة ألعابنا العصبية، المتفرّقة. هذه الخاصيّة كانت تتبدّى باستمرار عبر سلوكه الحريص على الشكليات على شكل قلق. لم يكن يبقى أبداً ساكناً؛ كان هناك دائماً وقع أقدام في مكانٍ ما أو حركة فتح اليد وإغلاقها العصبية.

لاحظ أني أنظر بإعجابٍ إلى سيارته.

قفز مبتعداً عنها ليُتيح لي رؤية أفضل "إنها جميلة، أليست كذلك، يا صاحبي؟ هل سبقَ لك أنْ رأيتَ مثلها؟"

كنتُ قد رأيت. الجميع رأوا. كانت ذات لون كريم غني، برّاق بالنيكل، منتفخة هنا وهناك بطولها الهائل ومزوّدة بفخامة بصناديق للقبعات وصناديق للطعام وصناديق للأدوات، وبمصاطب من حاجبات الرياح المعقَّدة التي تعكس أشعة عدد من الشموس. وجلسنا خلف عدد كبير من طبقات الزجاج فيما يُشبه المُستنبَتْ المصنوع من الجلد الأخضر، وانطلقنا إلى المدينة.

ربما فتحتُ معه عدد من المرات أحاديث خلال الأشهر الفائتة ووجدتُ، مع خيبة أمل، أنه ليس لديه الكثير ليقوله. لذا فإنَّ انطباعي

الأول عن أنه شخص ذو شأن بشكل مُبهم تلاشى تدريجياً وأصبح ببساطة مجرد مالك لمنزل فخمٍ يقع على الشارع ومجاور لي.

ثم كانت تلك النزهة المُحبِطة بالسيارة. لم نكن قد وصلنا قرية ويست إيغ عندما بدأ غاتسبي يترك جُمَله الأنيقة غير مكتملة ويوجّه صفعات غير قوية إلى رُكبة بذلته ذات لون الحلوى الدبقة.

قال بشكل مُفاجئ ومُدهِش "اسمع، يا صاحبي، ما هو رأيك فيَّ، على أي حال؟"

بُهتُّ قليلاً، وبدأتُ بإعطاء أجوبة متملّصة مُعمّمة يستحقها ذلك السؤال.

قاطعني "حسن، سأقول لك شيئاً عن حياتي. لا أريد منك أنْ تُكوِّن فكرة خاطئة عني اعتماداً على كل تلك القصص التي تسمعها"

إذن هو كان مُدرِكاً للاتهامات التي كانت تُضفي نكهة على الأحاديث التي تجري في صالونه.

"سأقول لك حقيقة الله"، وفجأةً أمرتْ يده اليمنى بالاستعداد لإنزال الجزاء الإلهي. "أنا ابن قوم أثرياء في الغرب الأوسط - كلهم ماتوا الآن. نشأتُ في أميركا ولكن تلقّيتُ ثقافتي في أوكسفورد، لأنَّ أسلافي كلهم تلقّوا ثقافتهم هناك على مدى سنين طويلة. إنه تقليد عائلي"

ألقى عليّ نظرة جانبية - وأدركتُ لماذا اعتقدتْ جوردان بيكر أنه يكذب. لقد قال عبارة "تثقّفتُ في أوكسفورد" بسرعة، أو ابتلعها، أو اختنقَ بها، وكأنها كانت قد أزعجته من قبل. ومع هذا الشك، تهشَّمَ تصريحه بأكمله، وتساءلتُ إن كان ينطوي على جانب شرير، قبل أي شيء.

سألتُ عَرَضاً "أي جزء من الغرب الأوسط؟"

"سان فرانسيسكو"

"فهمت"

"أفراد عائلتي كلهم ماتوا وحصلتُ على قدرٍ كبير من المال"

كان صوته رصيناً، وكأنَّ ذِكرى ذلك الفناء المُفاجئ لقبيلة لا تزال تسكنه. للوهلة الأولى شككتُ في أنه يخدعني، ولكنَّ نظرةً سريعة ألقيتها عليه أقنعتني بالعكس.

"بعد ذلك عشتُ حياة راجا شاب في عواصم أوروبا كلبها – باريس، البندقية، روما – أجمعُ الأحجار الكريمة، خاصةً الياقوت، وأسعى وراء لعبة كبرى، أمارس قليلاً من الرسم، لنفسي فقط، وأحاول أنْ أنسى شيئاً مُحزناً جداً وقعَ لي قبل وقت بعيد."

نجحتُ بعد جهد في ضبط ضحكي غير المُصدِّق. العبارات بحد ذاتها كانت من فرط الضعف بحيث أنها لم تُثِر في ذهني غير صورة "شخصية" مُعمَّمة يرشحُ نشارة خشب من مسامّه كلها وهو يُلاحقُ نمراً خلال غابة بولونيه.

"ثم نشبت الحرب، يا صاحبي. وكانت مصدر ارتياح عظيم، وبذلت أقصى جهدي كي أموت، ولكن يبدو أني كنتُ أستحقُ حياةً سحرية. فعند بدايتها قبلتُ رتبة ملازم أول. وفي غابة أرغون تقدَّمتُ مع ما تبقّى من كتيبة الأسلحة الرشاشات التي كنتُ أرأسها إلى درجة أنه كانت هناك فجوة بلغت نصف ميل من كل جانب حولنا في المنطقة التي لم يتمكن سلاح المُشاة من التقدُّم داخلها. ومكثنا هناك يومين وليلتين، مائة وثلاثون رجلاً مع ستة عشر رشاش من نوع لويس، وعندما وصل أفراد سلاح المُشاة أخيراً وجدوا بين أكوام الموتى ما يدل على وجود ثلاث فرق عسكرية ألمانية. ورُقّيتُ إلى رتبة رائد، ومنحتني كل حكومة

من حكومات التحالف وساماً – حتى مونتنيغرو، تلك الحكومة الصغيرة التي تطلٌ على البحر الأدرياتيكي!"

مونتنيغروا الصغيرة! رفعَ الكلمتين عالياً وأوماً إليهما برأسه مُحيياً – مع ابتسامة. كانت الابتسامة شملَتْ تاريخ مونتنيغرو المضطرب وتعاطفت مع الكفاح الشجاع للشعب المونتنيغري ؛ أبدتْ كامل استحسانها لسلسلة الظروف الوطنية التي أفرزتْ لفتة التقدير هذه من قلب مونتنيغرو الدافئ الصغير. هنا تغلَّبَ افتتاني على شكي؛ كان شيئاً أشبه بتصفُّح عدد من المجلات على عَجَل.

مدَّ يده إلى جيبه، ووضعَ في راحة يدي قطعة معدنية، تتدلى من شريط.

"هذا الذي حصلتُ عليه من مونتنيغرو"

وكم دُهِشتُ عندما رأيتُ أنَّ ذلك الشيء بدا أصيلاً. كان الشِعار المنقوش عليها يقول "وسام دانيللو من مونتنيغرو، الملك نيقولاس"

"أدِرها"

قرأتُ "الرائد جاي غاتسبي. على بسالته الفائقة"

"وهنا شيء آخر دائماً أحمله معي. تذكارٌ من أيام أوكسفورد. التُقِطَتْ في فناء كلية ترينيتي – الرجل الواقف إلى يساري أصبح الآن إيرل أوف دونكاستر"

كانت صورة فوتوغرافية تبيِّن مجموعة من الشبان بملابس رياضية فضفاضة يتمشّون تحت قنطرة يبدو من خلالها عدد غفير من الأبراج. ويظهر غاتسبي، يبدو أصغر سناً، قليلاً، وليس كثيراً – ويحمل بيده مضرب لعبة الكريكيت.

إذن فكل ما قاله صحيح. رأيتُ جلود نمور تتوهج في قصره المُطل على قنال غراند؛ رأيته يفتح صندوقاً يحتوي ياقوتاً لكي يُخفف، بأعماقها ذات الضياء القرمزي، أوجاع قلبه المُحطَّم.

قال، وهو يضع تذكاراته في جيبه راضياً، "اليوم سوف أطلبُ منكَ طلباً كبيراً. لذا فكّرتُ في أنْ أُطلعكَ على جانب من حياتي. لم أكن أريد أنْ تظن أني مجرد نكرة. في الواقع، أنا عادةً أجد نفسي بين أشخاصٍ غرباء لأني أتنقّل هنا وهناك مُحاولاً أنْ أنسى الأمر الحزين الذي وقعَ لي "وتردَّد. "سوف تسمع عنه بعد ظهر هذا اليوم"

"على مائدة الغداء؟"

"كلا، بعد ظهيرة هذا اليوم. لقد علِمتُ أنكَ ستصطحب مس بيكر لتشربا الشاي"

"أتعني أنكَ مغرمٌ بالمس بيكر؟"

"كلا، يا صاحبي، لستُ كذلك. لكنَّ مس بيكر تنازلتْ وقبِلتْ أنْ تتحدث معك حول هذه المسألة"

لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا هي "تلك المسألة"، لكنَّ ذلك أثار إزعاجي أكثر مما أثار اهتمامي. فأنا لم أطلب من جوردان أنْ نشرب الشاي لكي نُناقشَ أمور السيد جاي غاتسبي. كنتُ متأكّداً من أنَّ طلباً كهذا كان سيكون شيئاً شديد الحمق، وشعرت لبرهةٍ من الزمن بالندم لأني وطأتُ مرجه المزدحم بالناس.

ولم ينطق بأي كلمة أخرى. ومع اقترابنا من المدينة استعاد انضباط سلوكه. مررنا ببورت روزفلت، حيث لمحنا عابرات المحيط ذات الحزام الأحمر، وانطلقنا بسرعة على طول حي الفقراء المرصوف بالحصى وتقوم على طوله حانات مظلمة، لم تخلُ من روادها ومُذهّبة

بأسلوب أوائل القرن. ثم تكشَّفَ أمامنا وادي الرماد على كِلا الجانبَين، ولمحتُ السيدة ويلسون تعمل بكدّ عند مضخة المرآب وتلهثُ بحيوية في أثناء مرورنا.

برفارف دواليب ممدودة كالأجنحة فرشنا الأضواء ونثرناها على امتداد نصف ساحة أستوريا – فقط نصفها، لأنه بينما كنا نلتفُّ بين أعمدة الحافلة المرفوعة سمعت ضجيج الدراجة النارية، ورأيتُ رجل الشرطة الشديد الهياج يمشي بمحاذاتها.

هتف غاتسبي "حسن، يا صاحبي". وأبطأنا. أخرجَ بطاقة من محفظته، ولوّحَ بها أما عينيّ الرجل.

"أنتَ على حق"، وافقه رجل الشرطة، ونقر طرف قبعته. "سأعرفك في المرة التالية، يا سيد غاتسبي. عذراً!"

سألته "ما هذا؟ أهي صورة جامعة أوكسفورد؟"

"لقد قدَّمتُ معروفاً للمفوَّض ذات مرة، فأصبح يُرسل لي بطاقة معايدة كل عام في عيد الميلاد"

على الجسر الكبير، وأشعة الشمس تتخلل العوارض وترسل ومضاً مستمراً على السيارة المتحرّكة، والمدينة ترتفعُ عبر النهر على شكل كُتلٍ بيضاء وأكوامٍ من السُكّر بُنيَتْ كلها مع أمنية بمال لا رائحة له. والمدينة المرئية من جسر كوينسبورو هي دائماً المدينة المرئية للمرة الأولى، بوعدها الأول الجامح بكل ما في العالم من إبهام وجمال.

مرّتْ بنا جنازة رجل محمولة جثّته على عربة مُغطّاة بالأزهار، تتبعها عربتان مزوّدتين بستائر مُسدلة، وبعربات أكثر مرحاً مُخصصة للأصدقاء. أطلَّ الأصدقاء علينا بعيون مأساوية وشِفاه عليا قصيرة يتصف بها أهالي جنوب شرق أوروبا، وقد سررتُ لأنَّ مرأى سيارة غاتسبي الرائعة دخلَ إلى عطلتهم الكئيبة. ولدى عبورنا جزيرة بلاكويل مرّتْ بنا

سيارة ليموزين، يقودها سائق خاص أبيض البشرة، ويجلس فيها ثلاثة من الزنوج الأنيقين، شابان وفتاة. ضحكتُ بصوتٍ عالٍ عندما اتّجه بياض عيونهم باتجاهنا نحونا في تنافسٍ متغطرس.

قلتُ في نفسي "يمكن الآن أنْ يحدث أي شيء بعد أنْ اجتزنا هذا الجسر، أي شيء على الإطلاق..."

حتى غاتسبي يمكن أنْ يحدث، دون أنْ يُثير أي تعجُّب.

***

فترة ظهيرة صاخبة. في قبو يقع في الشارع الثاني والأربعين حسن التهوية قابلتُ غاتسبي لتناول وجبة الغداء. وبينما عيناي ترفّان درءاً لبريق الشارع في الخارج، لمحتاه بغموض في غرفة الانتظار يتحدث مع رجل آخر.

"مستر كاراواي، هذا صديقي مستر وولفشيم"

رفعَ يهودي قميء، أفطس الأنف، رأسه الكبير ونظر إليّ ويظهر من منخريه كتلتان غزيرتان من الشعر الدقيق. وبعد برهة تبيَّنتُ عينيه الصغيرتين وسط العتمة.

قال السيد وولفشيم، وهو يُصافحني برصانة، "- فألقيتُ عليه نظرة واحدة، وماذا تعتقد أني فعلت؟"

سألته بأدب "ماذا؟"

ولكن من الجليّ أنه لم يكن يُخاطبني أنا، ذلك أنه أفلتَ يدي وغطّى غاتسبي بأنفه المُعبِّر.

"سلَّمتُ النقود لكاتسبو وقلتُ : "حسن، يا كاتسبو، لا تدفع له أي بنس إلا بعد أنْ يسكت"، فسكت على الفور"

أمسك غاتسبي بذراع كلٍ منا وتقدَّم نحو المطعم، وعلى الأثر ابتلع السيد وولفشيم جملةً جديدةً كان قد بدأها وغاب في ذهولِ المُسرنَم.

سأل كبيرُ النُدُل "ويسكي؟"

قال السيد وولفشيم، وهو ينظر إلى الحوريات البروتستانتيات المرسومة على السقف، "هذا مطعم جيد. لكني أفضِّل ذاك الواقع على الطرف المقابل من الشارع!"

"وافقَ غاتسبي نعم، ويسكي"، ثم قال للسيد وولفشيم : "هناك الجو شديد الحرارة"

قال وولفشيم "حار وصغير – نعم، ولكن مفعم بالذكريات"

سألتُ "ما ذاك المكان؟"

"المتروبول القديم"

قال السيد وولفشيم وهو يفكّر بكآبة "إنَّ المتروبول القديم مملوءٌ بوجوه ماتت واندثرت؛ مملوء بأصدقاء رحلوا إلى الأبد. لن أنسى ما حييتُ ليلةَ أطلقوا النار على روزي روزنتال. كنا ستة جالسين حول الطاولة، وكان روزي قد أكثر من الأكل والشرب طِوال الأمسية. وعندما بدأ الصباح ينبلج اقتربَ النادل منه وعلى وجهه نظرة غريبة وقال إنَّ أحدهم يُريد أنْ يتكلَّم معه في الخارج. قال روزي "حسن"، وهمَّ بالنهوض، فأعدتُه إلى الكرسي.

"فليأت أولاد الحرام إلى هنا إذا أرادوا منكَ شيئاً، يا روزي، أما أنتَ فإياكَ أنْ تخرج من هذا المكان"

سألتُ ببراءة "وهل خرج؟"

لمعَ أنف السيد وولفشيم في وجهي بسخط. "طبعاً خرج. وعند الباب التفتَ نحونا وقال : "لا تدعوا ذلك النادل يأخذ قهوتي!"، ثم خرج إلى الرصيف، فأردوه بثلاث رصاصات في بطنه وانطلقوا مبتعدين بالسيارة"

قلت، متذكِّراً، "أربعة منهم أُعدِموا بالكرسي الكهربائي"

"بل خمسة، مع بيكر"، ووجَّه منخريه نحوي مُبدياً اهتمامه، "لقد فهمتُ أنكَ تبحث عن علاقات عمل"

كان تجاوُر الملاحظتين مذهلاً. وأجاب غاتسبي نيابة عني :

هتف "أوه، كلا، ليس هذا هو الرجل"

"أليس هو؟". بدا السيد وولفشيم خائب الأمل.

"هذا مجرد صديق. لقد أخبرتك أننا سنتحدث في ذلك في وقتٍ لاحق"

قال السيد وولفشيم "عذراً، حسبتكَ شخصاً آخر"

ثم وصل اللحم الغض المفروم، وباشر السيد وولفشيم، الذي نسيَ الجو الأكثر رومانسية للمتروبول القديم، الأكل بأناقة ضارية. في تلك الأثناء أخذت عيناه تحومان في كل أرجاء المكان ببطء – وأكمل الجولة بالتحوُّل إلى تفحُّص الناس الذين خلفي مباشرةً. وأعتقد أنه، لولا حضوري، لألقى نظرة سريعة تحت طاولتنا.

قال غاتسبي، وهو يميل نحوي، "اسمع، يا صاحبي، أخشى أني أغضبتكَ قليلاً هذا الصباح ونحن في السيارة"

وابتسم من جديد، ولكني في هذه المرة صمدتُ في وجهها.

أجبتُ "أنا لا أحب الألغاز، ولا أفهم لِمَ لا تكون صريحاً وتخبرني ماذا تريد. لِمَ ينبغي على كل شيء أنْ يمرّ عبر مس بيكر؟"

قال يُطمئنني "أوه، لا شيء مُستتر. إنَّ مس بيكر رياضية عظيمة، كما تعلم، ولن تفعل أي شيء لا تراه صواباً"

فجأةً نظر في ساعة يده، وقفز واقفاً، وهرع خارجاً من المكان، وتركني مع السيد ولفشيم على الطاولة.

قال السيد ولفشيم، وهو يتبعه بعينيه، "عليه أنْ يتصل بالهاتف. رجل رائع، أليس كذلك؟ وسيم وجنتلمن مثالي"

"نعم"

"وخريج أوكسفورد"

"أوه!"

"لقد التحق بجامعة أوكسفورد في إنكلترا. ألا تعرف جامعة أوكسفورد؟"

"سمعتُ عنها"

"إنها إحدى أشهر الجامعات في العالم"

سألته "هل تعرف غاتسبي منذ وقت طويل؟"

أجاب بطريقة تدل على الرضا "منذ سنوات عديدة. لقد سرّني التعرُّف عليه بُعيد انتهاء الحرب. لكنني أدركتُ أني اكتشفتُ رجلاً رفيع الأصل بعد أنْ تبادلتُ الحديث معه مدة ساعة. وقلت لنفسي: "هذا هو نوع الرجال الذي تودّ أنْ تصطحبه إلى منزلك وتقدّمه إلى والدتك وأختك". سكت برهة. "أرى أنكَ تنظر إلى أزرار كُم قميصي"

لم أكن أنظر إليها، لكنني فعلتُ عندئذٍ. كانت مصنوعة من قِطعٍ مألوفة بشكلٍ غريب من العاج.

أبلغني "إنها من أروع عيّنات الأضراس الإنسانيّة"

"يا سلام!" وتفحّصتها. "هذه فكرة مثيرة جداً"

"نعم"، ورفعَ كُمَّيه عالياً من تحت معطفه. "نعم. إنَّ غاتسبي شديد الحرص فيما يتعلّق بالنساء. فهو لا يمكن أنْ ينظر إلى زوجة صديقٍ له"

عندما عاد موضوع هذه الثقة الغريزية إلى الطاولة وجلسَ شرِبَ السيد وولفشيم قهوته دفعة واحدة ونهضَ واقفاً على قدميه.

قال "لقد استمتعتُ بغدائي وسوف أهرب منكما أيها الشابان قبل أنْ يصبح وجودي غير مرغوب فيه"

قال غاتسبي، دون حماسة، "لا داعي للعجلة، ماير". فرفعَ السيد وولفشيم يده وكأنه يمنحنا بركته.

أعلنَ بكل وقار "أنت جمّ الأدب، لكنني أنتمي إلى جيلٍ آخر. اجلسا أنتما هنا وناقشا نشاطاتكما ونساءكما و- "وأضافَ اسمَ علمٍ وهميّ بتلويح آخر من يده. "أما أنا، فأبلغ الخمسين من العمر، ولن أفرضَ نفسي عليكما أكثر من ذلك"

بينما هو يصافحنا ويستدير ليُغادر كان أنفه المأساوي يرتعش. وتساءلتُ إنْ كنتُ قد قلتُ أيَّ شيءٍ أهانه.

شرح لي غاتسبي "أحياناً يغدو عاطفياً جداً. وهذا أحد أيامه العاطفية. إنه شخصية بارزة جداً في نيويورك - ومقيمٌ في برودواي"

"وماذا يعمل، أهو ممثل؟"

"كلا"

"طبيب أسنان؟"

"ماير وولفشيم؟ كلا، إنه مُقامر"، وتردّد غاتسبي، ومن ثم أضافَ،

بهدوء : "إنه الشخص الذي تلاعبَ في نتائج مباريات البيسبول في عام ١٩١٩"

كرّرت "تلاعب في نتائج مباريات البيسبول؟"

صعقتني الفكرة. وتذكّرتُ، طبعاً، أنَّ مباريات البيسبول قد تمَّ التلاعب فيها في عام ١٩١٩، ولكن إن كنتُ قد فكّرتُ فيها فقد فكّرتُ فيها فقط كشيءٍ حدث، كنهاية لسلسلة حتمية. ولم يخطر في بالي أنه يمكن لرجل وحده أنْ يتلاعب بإيمان خمسين مليون إنسان – بعزيمة سارقٍ يُفجّر خزنة نقود.

بعد قليل سألته "كيف نجحَ في فعل ذلك؟"

"إنه فقط انتهز الفرصة المُتاحة"

"ولِمَ لم يدخل السجن؟"

"لا يستطيعون إيداعه السجن، يا صاحبي. إنه رجل ذكي"

أصررتُ على دفع قيمة الفاتورة. وبينما النادل يُحضر لي الباقي لمحتُ توم بيوكانن من بين الحشد.

قلت "تعالَ معي برهة. يجب أنْ أحيي أحدهم"

عندما شاهدنا توم قفز واقفاً وقطع عدد من الخطوات في اتجاهنا.

سأل بلهفة "أين كنتَ؟ إنَّ ديزي حانقة لأنكَ لم تتصل"

"هذا السيد غاتسبي، يا سيد بيوكانن"

تصافحا باقتضاب، وطغى على وجه غاتسبي تعبير متوتر، غير مألوف، من الارتباك.

سألني توم "كيف خالك، على أي حال؟ كيف تصادفَ أنْ وصلتَ إلى هنا لتتناول الطعام؟"

"كنتُ أتناول طعام الغداء مع السيد غاتسبي"

والتفتُّ ناحية السيد غاتسبي، فلم أجده.

***

في أحد أيام شهر تشرين أول من عام ١٩١٧ –

(قالت جوردان بيكر بعد ظهيرة ذلك اليوم، وهي جالسة باعتدالٍ شديد على كرسي قائم في حديقة شرب الشاي في فندق بلاتزا)

– كنتُ أتمشى متنقّلة من مكانٍ إلى آخر، تارة على الرصيف وطوراً على المرج. كنتُ أسعد حالاً وأنا على المرج لأنني كنتُ أنتعل حذاءً اشتريته من إنكلترا له قطعة من المطاط في الأسفل ويغوصُ داخل التربة الرخوة. وكنتُ أرتدي تنورة من نسيج مطبوع بمربعات تتطاير قليلاً كلما هبّت الريح، وكلما حدث ذلك ترتفعُ الرايات الحمراء، والبيضاء، والزرقاء أمام المنازل كلها وتمتد يابسة وتُصدرُ أصوات الاستهجان.

أكبر الرايات وأوسع المروج ينتميان إلى منزل فاي ديزي. لم تكن قد تجاوزت الثامنة عشرة، وهي أكبر مني بسنتين، وكانت محبوبة وأكثر شهرة بين الفتيات الصغيرات في لويزفيل. كانت ترتدي الأبيض، وتمتلك سيارة صغيرة بيضاء، وطوال النهار يرنّ الهاتف في منزلها ويطلب ضباطٌ شبان متحمسون من كامب تيلر شرف الاستئثار بها في تلك الليلة. "لا يهم، لمدة ساعة!"

عندما أصبحتُ قِبالة منزلها في صباح ذلك اليوم كانت سيارتها الصغيرة البيضاء متوقفة بمحاذاة الرصيف، وهي جالسة داخلها مع ملازم أول لم أكن قد رأيته من قبل. كانا من شدة الاستغراق كلٌ في الآخر بحيث أنها لم ترني إلى أنْ أصبحتُ على مسافة خمسة أقدام منها.

قالت بشكلٍ غير متوقَّع "مرحبا، جوردان. اقتربي أرجوك"

شعرت بالإطراء لأنها أرادت أنْ تتحدث معي، لأني كنتُ مُعجبة بها أكثر من كل الفتيات الأخريات الأكبر سناً مني. سألتني إنْ كنتُ أنوي أنْ أذهب إلى الصليب الأحمر لأصنع ضمادات. وكنتُ كذلك فعلاً. حسن، إذن، هل لي أنْ أخبرهم أنها لن تستطيع أنْ تأتي في ذلك اليوم؟ نظر الضابط إلى ديزي وهي تتكلّم، بطريقة ترغب كل فتاة شابة في أنْ يُنظَر بها إليها أحياناً، ولأنها بدت لي نظرة رومانسية تذكّرتُ الحادثة منذ ذلك الحين. كان اسمه جاي غاتسبي، ولم تقع عيني عليه بعد ذلك إلا بعد مرور أكثر من أربع سنوات – وحتى بعد أنْ قابلته في لونغ أيلند لم أدرك أنه هو الرجل نفسه.

حدثَ هذا في عام ١٩١٧. وبعد ذلك بعام أصبحت أرافق بدوري بضعة شبان وسيمين، وبدأتُ أشارك في دورات الألعاب، لذا لم أعُدْ أرى ديزي كثيراً. أصبحت ترافقُ مجموعات أكبر قليلاً في السن – هذا إذا رافقتْ أحداً أصلاً. ودارت حولها إشاعات شنيعة – كيف وجدتها أمها تحزم أمتعتها ذات ليلة في الشتاء لكي تذهب إلى نيويورك وتودّع جندياً كان سينتقل إلى ما وراء البحار. وقد مُنِعَت تماماً من فعل ذلك، لكنها لم تتكلّم مع أهلها على مدى أسابيع. وبعد ذلك لم تعُد إلى العبث مع الجنود، بل فقط مع شبان مُسحاء الأقدام، حسيري الأبصار في المدينة، لم يتمكّنوا من الانضمام إلى الجيش.

بحلول فصل الخريف التالي عادت إلى مرحها، مرحها المعتاد. وبعد إعلان الهدنة خرجت للمرة الأولى إلى المجتمع، وفي شهر شباط من المفترَض أنها خُطِبَتْ إلى رجلٍ من نيو أورلينز. وفي شهر حزيران تزوجت من توم بيوكانن من شيكاغو، بضجيج ومرح لم يسبقها فيهما أحد في لويزفيل. فقد جاء مع مائة شخص حملتهم أربع سيارات خاصة،

واستأجر طابقاً كاملاً في فندق ملباك، وفي اليوم السابق ليوم الزفاف أهداها عقداً من اللؤلؤ بلغت قيمته ثلاثمائة وخمسون ألف دولار.

كنتُ أنا إشبينة العروس. ولجتُ غرفتها قبل تقديم عشاء العرس بنصف ساعة، فوجدتها مستلقية على السرير جميلة كليلةٍ صيفيّة وهي بثوبها المرصّع بالأزهار – وثملة كقرد. كانت تحمل زجاجة خمر بيدها ورسالةً باليد الأخرى.

غمغمت "هنّئيني. أنا لم أشرب خمراً قبل اليوم، ولكن آه كم أستمتع بهذا"

"ما الأمر، ديزي؟"

"استولى عليّ الخوف، "أؤكّد لك"؛ فلم أكن قد رأيتُ قبل ذلك فتاة في مثل تلك الحالة"

تلمّست داخل سلة المهملات الموجودة معها على السرير وقالت "هاك، خذي"، وأخرجتْ منها عقد اللؤلؤ، "خذيه إلى أسفل وأعيديه إلى مَنْ يخصّه ، قولي لهم جميعاً إنَّ ديزي غيَّرتْ رأيها. قولي: "ديزي غيَّرتْ رأيها!"

وأخذت تبكي – بكت وبكت. فاندفعتُ إلى الخارج وبحثتُ عن خادمة أمها، وعمدنا إلى إقفال الباب بالمفتاح وعرّضناها لحمّام من الماء البارد. رفضتْ أنْ تتخلى عن الرسالة، وأخذتها معها إلى المغطس وعركتها حتى أضحت كرة مُبلّلة، ولم تسمح لي إلا بوضعها في صحن الصابون عندما وجدتْ أنها تتفتّت كالثلج.

لكنها لم تنطق بأي كلمة أخرى. أعطيناها روح النشادر ووضعنا ثلجاً على جبينها وألبسناها ثوبها من جديد، وبعد ذلك بنصف ساعة، بعد

أنْ خرجنا من الغرفة، كان عقد اللؤلؤ يُحيط بعنقها وكانت الحادثة قد انتهت. وفي اليوم التالي عند الساعة الخامسة تزوجت توم بيوكانن دون تردُّد، وانطلقا ليُمضيا رحلة مدتها ثلاثة أشهر في البحار الجنوبية.

قابلتهما في سانتا باربارة إبّان عودتهما، وأعتقد أني لم أرَ فتاة مجنونة بحب زوجها مثلها. إذا غادر الغرفة دقيقة تفتش عنه وقد استولى عليها القلق، وتقول: "إلى أين ذهب توم؟"، وترسم على وجهها أشد التعبيرات غموضاً إلى أنْ تراه يدخل من الباب. وكانت تجلس على الرمل ويضع رأسه على حجرها على مدى ساعة، وتمسح بأصابعها على عينيه وهي تتأمله بسرورٍ لا حدود له. كان منظرهما مؤثّراً - يدفع إلى الضحك بطريقة خرساء، مفتونة. حدث ذلك في شهر آب. وبعد أنْ غادرتُ سانتا باربارة بأسبوع اصطدمَ توم بعربة على طريق فنتورا ذات ليلة، وانتُزِعَ الدولاب الأمامي من سيارته. والفتاة التي كانت معه وردَ ذِكرها أيضاً في الصحف، لأنَّ ذراعها كُسِرَتْ - كانت فتاة تعمل خادمة في فندق سانتا باربارة.

في شهر نيسان الذي تلا أنجبتْ ديزي بنتاً صغيرة، وذهبوا لتمضية عام في فرنسا. وقد قابلتهم ذات ربيع في كان، ولاحقاً في دوفيل، ومن ثم عادوا إلى شيكاغو ليستقروا. وفي شيكاغو كانت ديزي تحظى بشعبية واسعة، كما تعلم. وانضموا إلى جماعة تعيش حياةً سريعة، وكلهم شبان وأثرياء وجامحون، لكنها حظيتْ بمحبّة الجميع دون استثناء. ربما لأنها لم تكن تشرب الخمر. فمن المزايا الكبرى ألا يشرب المرء الخمر بين أناس مدمنين على شربها. يمكنه أنْ يلزم الصمت، وأيضاً أنْ يوقِّتَ تصرّفه غير العادي بحيث يعمى الجميع عنه ولا يرونه ولا يأبهون به. لعلَّ ديزي لم تأبه بالحب على الإطلاق - ومع ذلك هناك شيء في صوتها...

حسن، قبل ستة أسابيع مضتْ، سمعتُ باسم غاتسبي للمرة الأولى

منذ سنين. وذلك عندما سألتكَ - أتذكُر؟ - إنْ كنتَ قد تعرَّفتَ إلى غاتسبي في ويست إيغ. وبعد أنْ ذهبتَ إلى منزلكَ أتتْ هي إلى غرفتي وأيقظتني، وقالت: "أي غاتسبي؟"، وعندما وصفته لها - يُغالبني النوم - قالتْ بأغرب صوت سمعته إنه لابد الرجل الذي كانت تعرفه. والآن فقط ربطتُ بين غاتسبي هذا والضابط الذي كان معها في سيارتها البيضاء.

بعد أنْ انتهت جوردان بيكر من إخباري بهذا كله غادرنا إلى البلازا لنقضي هناك ساعة من الزمن وكنا نركب سيارة مكشوفة خلال سنترال بارك. كانت الشمس قد انحدرتْ واختفت خلف أبنية شاهقة يسكنها نجوم سينما في ويست فيفتيز، وأصوات الأطفال الصافية، الذين تجمعوا كالجنادب على العشب، ترتفع وتشقُ الغسق الحارّ:

"أنا شيخ عربي.
وحبكِ لي أنا.
ليلاً وأنتِ نائمة
سأزحفُ إلى خيمتكِ -"

قلت "يا لها من مُصادفة غريبة"

"لكنها لم تكن مُصادفة أبداً"

"ولِمَ لا؟"

"لقد اشترى غاتسبي ذلك المنزل لكي يكون قريباً من ديزي"

إذن لم يكن يتوقُ فقط إلى النجوم في تلك الليلة من شهر حزيران. وعاد إلى ذاكرتي يضجُّ بالحيوية، خارجاً فجأةً من رحم روعته التائهة.

تابعتْ جوردان "إنه يريد أنْ يعرف إنْ كنتَ تودّ أنْ تدعو ديزي إلى منزلك بعد ظهيرة أحد الأيام لكي يأتي هو أيضاً"

تواضع الطلب صعقني. لقد انتظرَ خمس سنوات واشترى القصر حيث يوزِّع ضياء النجوم على الفراشات العابرة – لكي "يأتي" بعد ظهيرة أحد الأيام إلى حديقة شخصٍ غريب.

"هل كان ينبغي أنْ أعرف هذا كله قبل أنْ يتمكن من أنْ يطلب مني مثل هذا الطلب الصغير؟"

"إنه خائف، وقد انتظر وقتاً طويلاً جداً. ظنَّ أنكَ يمكن أنْ تشعر بالإهانة. في الواقع، إنه يُخفي طبعاً صلباً تحت ما تراه منه"

شيءٌ ما أقلقني.

"لِمَ لم يطلب منكِ أنتِ أنْ ترتِّبي هذا اللقاء؟"

شرحتْ قائلة "إنه يريد أنْ يُريها منزله. ومنزلكَ يُجاور منزله"

"أوه!"

تابعتْ جوردان "أعتقد أنه شبه توقَّع منها أنْ تنضمَّ إلى إحدى حفلاته، ذات ليلة، لكنها لم تفعل. ثم بدأ يسأل الناس عَرَضاً إنْ كانوا يعرفونها، وكنتُ أول مَنْ قابلني. في تلك الليلة أرسل يدعوني إلى حفله الراقص، ولابد أنَّكَ سمعتَ عن الطريقة المرهفة التي نفَّذَ بها ذلك. طبعاً، اقترحتُ على الفور وجبة غداء في نيويورك – وحسبتُ أنه سيفقد عقله:

"وراح يُكرِّر: لا أريد أنْ أفعلَ أي شيء بعيداً عن المألوف! أريد أنْ أراها في مكانٍ مجاور"

"وعندما قلتُ أنكَ صديق مُقرَّب من توم، بدأ يتخلّى على الفكرة برمّتها. إنه لا يعرف الشيء الكثير عن توم، مع أنه قال إنه ظلَّ يقرأ صحيفة شيكاغو على مدى سنوات طويلة على أمل أنْ يلمح اسم ديزي مكتوباً فيها"

كان الظلام قد ساد عندئذٍ، وبينما نحن نعبر من تحت جسرٍ صغير أحطتُ كتفَيّ جوردان الذهبيين بذراعي وقرّبتها مني وطلبتُ منها أنْ تتناول العشاء معي. وفجأةً لم أعُد أفكرُ في ديزي وغاتسبي، بل في ذلك المخلوق النظيف، الصلب، المحدود، الذي يتعامل مع الشك العالمي، والمتكئ بمرح داخل انحناء ذراعي. وبدأ وقعُ عبارة يتردَّد في أذنيّ بنوعٍ من الإثارة المُسكِرة : "ليس هناك غير المُلاحَقين، والمُلاحِقين، والمَشغولين، والمُتعَبين"

غمغمتْ جوردان وهي تقول لي "وكانت ديزي في حاجة إلى أنْ يحدث شيء في حياتها"

"هل أبدتْ رغبتها في رؤية غاتسبي؟"

"ينبغي ألا تعرف بالأمر. لا يريد غاتسبي لها أنْ تعرف. من المفترض بكَ أنْ تدعوها لشرب الشاي معك"

مررنا بحاجز من الأشجار القاتمة، ومن ثم واجهة الشارع التاسع والخمسين، وبناءٍ ذي إضاءة باهتة، رقيقة، يُرسلُ ضياءه نحو الأسفل إلى الحديقة العامة. وخِلافاً لغاتسبي ولتوم بيوكانن، لم يكن لديَّ فتاة يطفو وجهها وحده على طول الأفاريز المُظلمة والإشارات التي تُبهر الأبصار، وهكذا قرَّبتُ الفتاة الجالسة إلى جواري مني، مُحكِماً قبضة ذراعي. ابتسمَ ثغرها الواهن، المُزدري، فقرّبتها من جديد، هذه المرة من وجهي.

الفصل الخامس

عندما عدتُ إلى منزلي في ويست إيغ في تلك الليلة انتابني خوف للوهلة الأولى من أنَّ منزلي يحترق. فقد كانت الساعة الثانية صباحاً وزوايا شبه الجزيرة كلها تتوهَّج بالضوء، الذي انعكس بشكل غير واقعي على الشجيرات وأرسل ومضاً رفيعاً طويلاً على طول أسلاك جانب الطريق. عندما وصلت إلى المنعطف وجدتُ أنَّ ذلك كان منزل غاتسبي، مُضاءً من البرج وحتى القبو.

في أول الأمر حسبتُ أنها حفلة أخرى، حشد صاخب تحوَّلَ إلى لعبة "الغمّيضة" أو "سمك سردين محشور في العلب" بعد فتح المنزل كله لممارسة اللعبة. ولكن لم يكن هناك أي صوت. فقط صوت الريح تتغلغل بين الأشجار، هزَّتْ الأسلاك وجعلت الأضواء تنطفئ ثم تُضاء من جديد وكأنَّ الظلام غمر المنزل خلال طرفة عين. ومع ابتعاد سيارة الأجرة رأيتُ غاتسبي يقترب مني عبر المرج.

قلت "يبدو منزلك أشبه بمعرض عالمي"

"أحقاً؟"، والتفتَ نحوه بشرود، "كنتُ أتفقَّد بعض الغرف. هيا بنا نذهب إلى كوني أيلند، يا صاحبي. في سيارتي"

"الوقت متأخر جداً"

"حسن، ما رأيكَ في نسبح قليلاً في بركة السباحة؟ إنني لم أستخدمها طوال فصل الصيف"

"يجب أنْ آوي إلى السرير"

"حسن"

انتظرَ، وهو ينظر إليّ بلهفةٍ مكبوحة.

قلتُ بعد قليل "لقد تحدثتُ مع مس بيكر. سوف أتّصل بديزي غداً وأدعوها لتناول الشاي عندي"

قال بلا مبالاة "أوه، هذا حسن. لا أريد أنْ أُسبب لك أي مشكلة"

"أي الأيام يناسبك؟"

"بل أي الأيام يُناسبك أنت؟" هكذا صحَّحَ لي بسرعة، "لا أريد أنْ أسبب لك أي مشكلة، في الواقع"

"ما رأيك في يوم بعد غد؟"

فكّر برهة. ثم، قال على مضض : "أريد أنْ أجزّ العشب"

نظرنا معاً إلى العشب – كان هناك خط حاد يفصلُ بين نهاية عشبي المُهمل وامتداد عشبه ذي اللون القاتم، والمُشذَّب. واعتقدتُ أنه يتكلَّم عن عشبي.

قال غير متأكّد، وبتردُّد "هناك شيء آخر صغير"

سألته "أتفضِّل أنْ نُرجئ الأمر بضعة أيام؟"

"أوه، ليس هذا ما أعنيه. على الأقلّ – "وتلعثمَ بسلسلة من البدايات "في الواقع، لقد فكَّرت – في الواقع، اسمع، يا صاحبي، أنتَ لا تكسب الكثير من النقود، أليس كذلك؟"

"ليس الكثير"

بدا أنَّ جوابي طمأنه فتابع بمزيد من الثقة في النفس.

"فكَّرتُ في أنكَ لا، إذا أذنتَ لي - في الواقع، إنني أدير مشروعاً صغيراً جانبياً، أشبه برافد، أنت تفهم. وقد فكّرتُ في أنه بما أنكَ لا تكسب الكثير - أنتَ تبيع السندات، أليس كذلك يا صاحبي؟"

"أحاول أنْ أفعل ذلك"

"حسن، إنَّ هذا سيُثير اهتمامك. لن يستهلك الكثير من وقتك ويمكنك أنْ تكسب مبلغاً جيداً من المال. وبالمصادفة هو عمل من النوع السرّي"

عندئذٍ أدركتُ أنه لو أنَّ تلك المحادثة تمّتْ في ظروفٍ مختلفة لشكّلتْ أزمة في حياتي. ولكن، ولأنَّ العَرض كان بكل وضوح وبلا مواربة يتعلّق بتقديم خدمة ما، لم يكن أمامي خيار غير أنْ أوقِفه عند هذا الحد.

قلت "إنني مشغولٌ جداً. أنا ممتن جداً لكني لا أستطيع أنْ أتولى مزيداً من العمل"

"لستَ مضطراً إلى القيام بأي عمل مع وولفشيم". من الواضح أنه اعتقدَ أني أنأى بنفسي حياءً عن "العلاقات "التي أتى على ذكرها على مائدة الغداء، لكني أكّدتُ له أنه على خطأ. وانتظر برهة أخرى، آملاً أنْ أبدأ حديثاً آخر، لكني كنتُ مستغرقاً في الشرود بحيث أستجيب له، لذا توجه إلى منزله على مضض.

كانت الأمسية قد جعلتني خليّ البال وسعيداً؛ وخُيل إليّ أني ولجتُ حالة النوم العميق حالما دخلتُ من الباب الأمامي. لذا لا أعلم إنْ كان غاتسبي قد ذهب إلى كوني أيلند أم لا، أو على مدى كم من الوقت بقيَ "يتفقَّد الغرف" بينما منزله يتوهَّج بالأضواء المتلألئة. وفي صباح اليوم التالي اتصلتُ بديزي من المكتب، ودعوتها إلى شرب الشاي معي.

حذَّرتها "إياكِ أنْ تُحضري توم"

"ماذا؟"

"لا تُحضري توم"

سألتْ ببراءة "ومن هو " توم "هذا؟"

في اليوم المتَّفَق عليه هطل المطر سيولاً. وعند الساعة الحادية عشرة قرع رجلٌ يرتدي معطفاً واقياً من المطر، ويجرّ معه جزّازة عشب، على بابي الرئيسي وقال إنَّ السيد غاتسبي أرسله إليّ لكي يجزَّ عشبي. فتذكَّرتُ أني نسيتُ أنْ أُخبر خادمتي الفنلنديّة أنْ تعود، لذا توجّهتُ إلى قرية ويست إيغ لأبحثَ عنها بين الأزقة الرطبة والمدهونة بماء الكلس ولكي أشتري بعض الأكواب والليمون والأزهار.

لم تكن الأزهار ضرورية، ذلك أنّه عند الساعة الثانية وصلَني بيت زجاجي من منزل غاتسبي، مع عدد هائل من الأزهار لتوضع داخله. وبعد ذلك بساعة فُتِحَ الباب الرئيسي بعصبيّة، وإذا بغاتسبي، ببذلة من الفانيلا البيضاء، وقميص فضيّ، وربطة عنق ذهبية اللون، يندفعُ داخلاً. كان شاحب الوجه، وتحت عينيه علامات داكنة دلالة الأرق.

سأل على الفور "هل كل شيء على ما يُرام؟"

"العشب يبدو رائعاً، إذا كان هذا ما تعني"

سألَ مشدوهاً "أي عشب؟ أوه، العشب في الفناء"، وأطلَّ عليه من النافذة، ولكني لم أصدِّق، استناداً إلى تعبير وجهه، أنه رأى شيئاً.

علَّقَ بغموض "يبدو جيداً جداً. إحدى الصحف قالت إنَّ المطر سوف يتوقف عن الهطل عند حوالي الساعة الرابعة. أعتقد أنها "الجورنال". هل حصلتَ على كل ما يلزم لتحضير الـ - الشاي؟"

أخذته إلى حجرة المؤن، حيث رمى الفنلندية بنظرة مؤنِّبة. وأخذنا معاً نتفحَّص كعكات الليمون الاثنتي عشرة التي جلبناها من محل بيع المعلّبات.

سألته "هل تكفي؟"

"طبعاً، طبعاً! إنها رائعة!"، ثم أضاف بلا لزوم".... يا صاحبي"

خفَّ هطل المطر بحلول الساعة الثالثة والنصف وتحوّلَ الجو إلى ضباب رطب، كانت تتخلّله قطرات خفيفة متفرّقة تحتشد أشبه بالندى. نظرَ غاتسبي بعينين خاويتين مُستعرضاً نسخة من كتاب كلاي "الاقتصاد"، مذعوراً من وقع خطوات الفنلندية التي هزّتْ أرض المطبخ، ومُنعِماً النظر بين حينٍ وآخر باتجاه النوافذ الغائمة وكأنَّ سلسلة من الأحداث غير المرئية ولكن المرعبة تقع في الخارج. وأخيراً نهضَ واقفاً وأبلغني، بصوتٍ غير واثق، بأنه عائد إلى منزله.

"لماذا؟"

"لا أحد سيأتي ليشرب الشاي. لقد تأخر الوقت كثيراً!"، ونظر في ساعة يده وكأنَّ هناك حاجةً مُلحّة تنتظره في مكان آخر. "لا يمكن أنْ أنتظر طوال النهار"

"لا تكن أحمق؛ الساعة لم تتجاوز الرابعة إلا دقيقتين"

جلس وهو في حالة بائسة، وكأني دفعته دفعاً، وفي الوقت نفسه سُمِعَ صوت دوران محرّك على ممري. قفزنا معاً، وخرجت وأنا مضطرب قليلاً إلى الفناء.

تحت شجرة ليلك تقطر كانت سيارة كبيرة مكشوفة تتقدم على الممر. توقّفتْ. برز وجه ديزي، مائلاً قليلاً إلى الجانب من تحت قبعة ثلاثية الزوايا بلون الخزامى، ونظر إليّ مع ابتسامة نشوة مشرقة.

"أهذا حقاً المكان الذي تعيش فيه، يا أعزّ الناس؟"

ارتعاش البهجة في صوتها كان كالشراب المقوّي الشديد وسط المطر. كان يجب أنْ أتبع رنينه برهة، يرتفع وينخفض، بأذني وحدها، قبل أنْ تصلني أي كلمة. كانت خصلة من الشعر الرطب كضربة من الدهان الأزرق عبر وجنتها، وكانت يدها رطبة بقطرات برّاقة عندما أمسكتها لأساعدها في النزول من السيارة.

قالت لي بصوت منخفض في أذني "هل أنت واقع في حبي، وإلا لماذا اضطررتُ إلى المجيء وحدي؟ "

"هذا هو سر قلعة ركرينت. أخبري سائقك الشخصي أنْ يبتعد ويغيب مدة ساعة"

"تعال بعد ساعة، يا فيردي"، ثم أردفَت بغمغمةٍ رصينة "اسمه فيردي"

"هل تؤثّر رائحة الوقود على أنفه؟"

قالت ببراءة "لا أعتقد ذلك. لماذا؟"

دخلنا. وذُهِلتُ أيّما ذهول عندما وجدتُ غرفة الجلوس مُقفِرة.

قلتُ مندهشاً "حسن، هذا غريب"

"ما الغريب؟"

أدارتْ رأسها عندما سمعت قرعاً خفيفاً رزيناً على الباب الأمامي. خرجتُ لأفتحه. وإذا بغاتسبي، شاحب شحوب الموتى، ويداه غارقتان كالأوزان الثقيلة داخل جيبيّ معطفه، واقفاً وسط بركة من الماء يُحدِّقُ بغضب مأساوي إلى عينيّ.

مرَّ بجواري، ويداه لا تزالان داخل جيبيّ معطفه، بخطى شامخة إلى

الردهة، والتفتَ بحِدَّة وكأنه يقفُ على سلك، ثم اختفى داخل غرفة الجلوس. لم يكن الموقف مُضحكاً على الإطلاق. وأغلقتُ الباب في وجه المطر المتزايد، وأنا أكاد أسمع وجيب قلبي العالي.

لم يُسمَع أي صوت على مدى نصف دقيقة. ثم سمعتُ من غرفة الجلوس ما يُشبه الغمغمة المختنقة وشبه ضحك، تبعه صوت ديزي بنبرة مصطنعة صافية :

"إنني حتماً سعيدة كل السعادة برؤيتك ثانية"

ثم صمت؛ طال بشكلٍ مُخيف. لم يكن لديَّ ما أفعله في الردهة، لذا انتقلتُ إلى الغرفة.

كان غاتسبي متكئ، ويداه لا تزالان في جيبَيه، على رفّ المدفأة في تعبيرٍ زائف مشدود عن الارتياح التام، أو حتى الضجر. ومال رأسه إلى الخلف كثيراً حتى أنه ارتاحَ على وجه ساعة رف مدفأة ميتة، ومن موقعه حدَّقت عيناه بذهول إلى ديزي، التي كانت جالسة، خائفة ولكن جميلة، على حافة كرسي جافّ.

غمغمَ غاتسبي "لقد تقابلنا من قبل". ألقتْ عيناه نظرة سريعة عليّ، وافترّت شفتاه في محاولةٍ مُجهَضَة للضحك. ولحسن الحظ مالت الساعة في تلك اللحظة إلى الحافة بشكلٍ خطير تحت ضغط رأسه، وعلى الأثر التفتَ والتقطها بأصابع مرتعشة، وأعادها إلى مكانها. ثم جلسَ، جِلسةً متيبّسة، ووضعَ مِرفقه على ذراع الصوفا وأسندَ ذقنه على يده.

قال "أنا آسف بشأن الساعة"

بدا وجهي عندئذٍ كأنه محروق بحرارةٍ استوائية. ولم أتمكّن من استحضار عبارة مبتذلة واحدة من الآلاف المحتشدة في ذهني.

قلت لهما بحمق "إنها مجرد ساعة قديمة"

أعتقد أننا جميعاً اعتقدنا لبرهة من الزمن أنها قد تهشّمت إلى قِطعٍ صغيرة على الأرض.

قالت ديزي، بصوتٍ عادي قدر استطاعتها، "لم نتقابل منذ سنين"

"سيكون قد مرَّ خمس سنوات في شهر تشرين ثاني القادم"

جوابه ذات الطبيعة الآليّة عطّلنا جميعاً دقيقة أخرى على الأقلّ. دفعتهما معهاً إلى النهوض على أقدامهما باقتراحٍ يائس بمساعدتي في تحضير الشاي في المطبخ وإذا بالفنلندية الشيطانة تجلبه محمولاً على صينية.

وسط فوضى ترحيب الأكواب والكعك ترسّختْ كياسة جسدية معيَّنة. وانزوى غاتسبي في الظل، وبينما كنت وديزي نتحدث، كنا نتبادل النظر بضمير حيّ، بعيونٍ متوترة، تعيسة. ولكن بما أنَّ الهدوء لم يكن هدفاً بحدّ ذاته استأذنتُ في أول لحظة أُتيحت لي، ونهضتُ.

سألني غاتسبي بفزعٍ مفاجئ "إلى أين أنتَ ذاهب؟"

"سأعود"

"يجب أنْ أتحدث معك قبل أنْ تذهب"

تبعني بهياج إلى المطبخ، وأغلقَ الباب، وهمسَ : "أوه، يا إلهي!" بطريقة تدل على اليأس.

"ما الأمر؟"

قال، وهو يهزّ رأسه من طرفٍ إلى طرف "هذه غلطة رهيبة؛ غلطة رهيبة، رهيبة"

"أنتَ فقط مرتبك، هذا كل ما في الأمر"، ثم أضفتُ لحسن الحظ :

"وديزي مرتبكة أيضاً"

كرَّر غير مُصدِّق "أهي مرتبكة؟"

"مثلك تماماً"

"لا ترفع صوتك كثيراً"

اندفعتُ قائلاً بنزق "أنت تتصرف كطفلٍ صغير. ليس فقط هذا، بل أنتَ فظ. إنَّ ديزي جالسة هناك وحدها"

رفعَ يده ليُوقِف سيل كلامي، ونظر إليّ نظرة تأنيبٍ لا تُنسى، ثم فتح الباب بحذر، وعاد إلى الغرفة الأخرى.

خرجتُ من الباب الآخر - كما فعلَ غاتسبي عندما دار حول المنزل بعصبيّة قبل ذلك بنصف ساعة - وركضتُ لأحتمي بشجرة سوداء ضخمة كثيرة العُقد، شكّلَتْ أوراقها الكثيفة نسيجاً يحمي من المطر. فمرة أخرى عادت تُمطر سيولاً، ومرجي غير التناسق، الذي شذّبه بستاني غاتسبي، امتلأ بسبخات صغيرة موحلة ومستنقعاتٍ ما قبل تاريخية. لم يكن مكان وقوفي تحت الشجرة يمنحني أي مشهد للنظر اللهم غير منزل غاتسبي الشاسع، فرحتُ أحدِّقُ إليه، كما كان يُحدِّقُ الفيلسوف كانْتْ إلى برج الكنيسة على مدى نصف ساعة. وكان بائع خمور قد بناه في أوائل "فترة" الجنون، قبل عقدٍ من الزمان، وكانت تدور حكاية تقول إنه وافق على دفع ضريبة خمس سنوات مفروضة على الأكواخ الخمسة المجاورة له كلها على أنْ يوافق أصحابها على جعل أسقفها مغطّاة بالقش. ولعلَّ رفضهم أفسد عليه جوهر خطّته لبناء عائلة - وبدأتْ صحته تتدهور على الفور. فباع أولاده بيته ولا يزال إكليلٌ أسود موضوع على بابه. وفي حين أنَّ الأميركيين يرغبون، بل يتوقون، إلى أنْ يكونوا رقيقاً، إلا أنهم طالما كانوا عنيدين في رفضهم أنْ يكونوا من الفلاحين.

بعد مرور نصف ساعة، عادت الشمس إلى البروز من جديد، ودارت سيارة البقال على ممشى سيارة غاتسبي حاملة المواد الأساسية لعشاء خدمه - وشعرت أني متأكد من أنه لن يأكل ولا حتى ملء ملعقة منه. وبدأتْ خادمة بفتح نوافذ الطابق العلوي من منزله، وكانت تظهر دقيقة في كلٍ منها، ثم مالت من النافذة المركزية الكبيرة، وبصقَتْ بشرود نحو الحديقة. وحان وقت عودتي. ومع استمرار هطل المطر بدا أشبه بغمغمة صوتيهما، كان عندئذٍ يرتفع وينتفخ قليلاً ومن ثم ينبجس في دفقٍ انفعاليّ. ولكن خلال الصمت الجديد شعرتُ أنَّ الصمتَ قد سقطَ داخلَ المنزل أيضاً.

دخلتُ - بعد أنْ أثرتُ كل ضجة ممكنة في المطبخ، ولم يبقَ إلا أنْ أقلب المدفأة - ولكن لا أعتقد أنهما سمعا أي شيء. كانا جالسَين على كلا طرفَيّ الأريكة، ينظر كلّ منهما إلى الآخر وكأنَّ هناك سؤالاً قد طُرِح، أو أنه مُعلَّقٌ في الهواء، وكان كل أثر للارتباك قد زال. كان وجه ديزي مُلطَّخاً بالدموع، وعندما دخلتُ قفزت واقفة وبدأتْ تمسحها بمنديلها أمام المرآة. ولكن كان تغيُّر مُدهِشاً قد طرأ على غاتسبي. لقد كان متورّداً بكل معنى الكلمة؛ وبدون أي كلمة أو إيماءة ابتهاج شعَّت منه السعادة وملأتْ الغرفة الصغيرة.

قال، وكأنه لم يرني منذ سنين، "أوه، أهلاً، يا صاحبي". اعتقدتُ للوهلة الأولى أنه سيُصافحني.

"توقَّفَ المطر"

"أحقاً؟". عندما أدركَ عمّا كنتُ أتحدث، ورأى أجراس أشعة الشمس المتلألئة داخل الغرفة، ابتسمَ كمتنبّئ الطقس، أو كالسيد المسؤول المُبتهج بظهور النور، وكرر النبأ على مسمع ديزي. "ما رأيكِ في هذا؟ لقد توقف المطر"

"أنا سعيدة، يا جاي". لم تفشِ حنجرتها المترعة بالألم، والأسى، والجمال، إلا فرحها غير المتوقَّع.

قال "أريد منك ومن ديزي أنْ تنتقلا إلى منزلي؛ أريد أنْ أريكما المكان"

"أأنت متأكد من أنكَ تريد مني أنْ آتي؟"

"حتماً، يا صاحبي"

ارتقتْ ديزي الدرج لتغسل وجهها - وفكَّرتُ في مناشفي مع شعورٍ بالمذلّة بعد فوات الأوان - وانتظرنا غاتسبي وأنا على المرج.

سأل "منزلي يبدو جيداً، أليس كذلك؟ أترى كيف تستقبل واجهته كلها النور"

وافقته على أنه يبدو رائعاً.

"نعم"، ومرَّت عيناه عليه، على كل بابٍ مُقنطر وبرج مُربّع، "استغرقَت مني استعادة النقود التي دفعتها فيه فقط ثلاث سنوات"

"حسبتُ أنكَ ورثت مالك"

قال آلياً "فعلاً، يا صاحبي، ولكني خسرتُ معظمه خلال الرعب الكبير - رعب الحرب"

أعتقد أنه لم يكن يعي ما يقول، ذلك أنه عندما سألته عن عمله أجاب: "هذا شأني"، قبل أنْ يُدرك أنه ليس الجواب المناسب.

فصحَّحَ لنفسه "أوه، لقد خضتُ في أعمال كثيرة. عملتُ في مجال الأدوية ومن ثم في مجال البترول. لكني لم أجد نفسي في أيٍ منهما". نظر إليّ بانتباهٍ أشد. "هل فكّرت في العرض الذي قدّمته لك في تلك الأمسية؟"

قبل أنْ أتمكن من الإجابة، خرجت ديزي من المنزل ولمعَ صفّان من الأزرار النحاسية على ثوبها تحت أشعة الشمس.

هتفت وهي تُشير "أهو ذلك المكان الضخم هناك؟"

"أيعجبك؟"

"بل أحبه، لكنني لا أفهم كيف تعيش فيه وحدك"

"إنني أُبقيه مملوءاً دائماً بأناسٍ مُثيرين للاهتمام، ليلاً ونهاراً. أناس يقومون بأعمال مُثيرة للاهتمام. أُناس مشهورون"

بدل أنْ نسلك الطريق المُختصرة على طول شاطئ ساوند سرنا على الطريق وولجنا من البوابة الكبيرة. أبدتْ ديزي بغمغماتٍ فاتنة إعجابها بذلك الجانب من المشهد أو بمشهد الصورة الجانبية الإقطاعية أمام صفحة السماء، أبدتْ إعجابها بالحدائق، وبالعطر الساري للنرجس الأسلي وبالأريج الخفيف للزعرور البري والبراعم المتفتحة وبالعطر الذهبي الباهت لزهرة "قبّلني عند البوابة". كان أمراً غريباً أنْ نصل إلى الدَرَج الرخامي دون أنْ يستقبلنا حفيف أثواب برّاقة داخلة وخارجة من الباب، أو أنْ نسمع أي صوت غير تغريد العصافير الكامنة في الأشجار.

وفي الداخل، وبينما نحن بتجول في أرجاء غرف الموسيقى المُصممة على طراز ماري أنطوانيت والصالونات على طراز فترة الإصلاح، شعرتُ أنَّ هناك ضيوفاً مختبئون خلف كل أريكة وطاولة، صدرت إليهم الأوامر بلزم الصمت المُطبق إلى أنْ نمر ونذهب. وعندما أغلقَ غاتسبي باب "مكتبة كلية مورتن "كدتُ أُقسِمُ على أني سمعتُ الرجل ذا عين البوم انفجر في نوبة ضحك مخيف.

ارتقينا إلى الطابق العلوي، واخترقنا غرف نوم الفترات الزمنية مكسوّة بالحرير ذي ألوان الوردي والخزامى ومزوَّدة بأزهار نضرة

جديدة، وخلال غرف تغيير ملابس وغرف لعبة البلياردو، والحمّامات ذات الأحواض المنخفضة - وتطفّلنا على غرفة نوم كان يشغلها رجل أشعث المظهر يرتدي المنامة ويقوم بتمارين لمعالجة كبده على الأرض. كان السيد كليبسبرينغر، "النزيل". كنتُ قد شاهدته يتجول متلهّفاً حول الشاطئ في صباح ذلك اليوم. وأخيراً وصلنا إلى شقة غاتسبي الخاصة، المؤلّفة من غرفة نوم وحمّام، وغرفة مكتب على طراز آدم(٨)، حيث جلسنا وشربنا كأساً من زجاجة شارتروز أخذها من الخزانة الجدارية.

لم يكفّ لحظة واحدة عن النظر إلى ديزي، وأعتقدُ أنه أعاد تقييم كل شيء في المنزل وِفقاً إلى معيار الاستجابة التي استمدّها من عينيها الحبيبتين. وأحياناً كان أيضاً يُحدّقُ حوله إلى ممتلكاته بذهول، وكأنَّ في حضورها الفعلي والمذهل لم يعُد أي شيء منها حقيقياً. وذات مرة كاد يتعثَّر ويسقط من أعلى الدَرَج.

كانت غرفة نومه هي أبسط الغرف كلها - إلا أنَّ طاولة الزينة كانت مزخرفة بمجموعة من أدوات الزينة من الذهب الخالص. تناولت ديزي الفرشاة بابتهاج، وراحت تسرّح شعرها، وعلى الأثر جلس غاتسبي وظلّلَ عينيه وبدأ يضحك.

قال بمرح شديد "هذا مشهد مضحك جداً، يا صاحبي. لا أستطيع - عندما أحاول أنْ -"

كان قد مرّ بوضوح بحالتين ويوشك أنْ يلج الثالثة. فبعد ارتباكه وفرحه المفرط استهلكته روعة حضورها. ولطالما كان مترعاً بالأفكار، وحلمَ بها حتى النهاية، وانتظر وهو يشدُّ على أسنانه، إنْ صحَّ التعبير،

(٨) آدم : طراز من الزخرفة والديكور ابتكره الأخوان روبرت وجيمس آدم في القرن الثامن عشر. - المترجم

بقوّة غير مفهومة. والآن، كردّة فعل، ها هو يهبط راكضاً كساعةٍ مُلِئت أكثر مما ينبغي.

بعد قليل استعاد رشده وفتحَ لنا خزانتين ضخمتين مُباحتين تحتويان أكداس بذلاته ومباذله وبطات عنقه، وقمصانه، مكوَّمة كحجارة القرميد في أكيـاس بعلو أمتار.

"أعرفُ رجلاً في إنكلترا يشتري لي ملابس. إنه يُرسل إليّ مجموعة من الأشياء في بداية كل موسم، من الربيع وحتى الخريف"

أخرج كومة من القمصان وبدأ يرميها، واحداً إثر آخر، أمامنا، قمصان من الكتّان الصِرف والحرير السميك والفلانيلة الناعمة، فقدت ترتيب طيّاتها وهي تسقط وتغطي الطاولة بفوضى من الألوان. وبينما نحن نُبدي إعجابنا بها جلب المزيد وازدادت الكومة الناعمة والفخمة علواً – من قمصان ذات خطوط ولوالب ومربعات بألوان قرنفليّة مرجانية وخضراء بلون التفاح والخزامى والبرتقالي الخفيف، مع أحرف أولى باللون الأزرق الهندي. وفجأةً، وبصوتٍ متوتر، دفنتْ ديزي وجهها في أحد القمصان وأخذت تبكي بعنف.

أخذت تنشج "يا لها من قمصان جميلة"، بصوت مكبوت داخل التضاعيف السميكة. "إنها تُحزنني لأنني لم أر مثل – مثل هذه القمصان الجميلة من قبل"

***

بعد زيارة المنزل ذهبنا لمشاهدة الأرض المحيطة به وبركة السباحة، والزورق البخاري وأزهار منتصف الصيف – ولكن خارج نافذة غاتسبي بدأتْ تُمطر من جديد، فوقفنا صفاً واحداً ننظر إلى السطح المتموّج لشاطئ ساوند.

قال غاتسبي "لولا الضباب لتمكّنا من مشاهدة منزلك عبر الخليج. هناك دائماً ضوء أخضر يسطع طوال الليل من آخر جانبك من الرصيف"

بحركة سريعة أحاطت ديزي ذراعها حول ذراعه، لكنه بدا مستغرقاً فيما قاله تواً. ربما تبدّى له أنَّ مغزى الضوء الهائل قد تلاشى الآن إلى الأبد. وبالمقارنة مع المسافة الكبيرة التي كانت تفصله عن ديزي بدا شديد القُرب منها، بل يكاد يلمسها. لقد بدا قريباً كقُرب نجم من القمر. والآن عاد من جديد مجرد ضوء أخضر على رصيف. وقلّت الأشياء الفاتنة التي يكنُّ لها تقديراً شيئاً واحداً.

بدأتُ أتجول في الغرفة، أتفحَّصُ أشياء متنوعة وغير مُحدَّدة في النصف المظلم. وجذبت نظري صورة فوتوغرافية كبيرة لرجلٍ عجوز بملابس الإبحار في اليخت، مُعلّقة على الجدار فوق طاولة مكتبه.

"مَنْ هذا؟"

"هذا؟ هذا السيد دان كودي، يا صاحبي"

الاسم بدا لأذني مألوفاً بصورة باهتة.

"لقد مات الآن. كان أفضل أصدقائي قبل سنين عديدة"

كانت هناك صورة صغيرة لغاتسبي، أيضاً بملابس ركوب اليخت، موضوعة على المكتب – تصوّرُ غاتسبي رافعاً رأسه بحركة تحدٍ – يبدو أنها أُخِذَتْ له عندما كان في نحو الثامنة عشرة.

هتفت ديزي "إنها رائعة. تسريحة بومبادورا لم تخبرني أبداً أنكَ كنتَ تسرح شعرك على طريقة بومبادور – أو أنه كان لديك يخت"

قال غاتسبي بسرعة "انظري إلى هذا. هنا الكثير من القصاصات – عنك"

وقفوا جنباً إلى جنب يتفحصونها. وأوشكتُ أنْ أطلب مشاهدة

حجارة الياقوت وإذا بالهاتف يرنّ، ورفع غاتسبي السمّاعة.

"نعم... حسن، لا أستطيع أنْ أتكلّم الآن... لا أستطيع أنْ أتكلّم الآن، يا صاحبي... أنا قلت بلدة صغيرة... يجب أنْ يعلم ما معنى بلدة صغيرة... حسن، إنه لا يفيدنا إذا كانت ديترويت تمثّل فكرته عن البلدة الصغيرة..."

ووضع السماعة.

هتفت ديزي عند النافذة "تعالا هنا بسرعة!"

كان المطر لا يزال يهطل، لكنَّ الظلام كان قد انفرج من جهة الغرب، وكانت هناك كتلة رغوية منتفخة من السحب الذهبية والوردية فوق البحر.

همستْ "انظرا إلى هذا"، ومن ثم أضافت بعد لحظة: "أودُّ لو أحصل على واحدة فقط من تلك السحب الوردية لكي أضعكَ فيها وأحملك معي"

عندئذٍ حاولتُ أنْ أغادر، لكنهما لم يسمحا لي؛ لعلَّ حضوري جعلهما يشعران بأنهما وحدهما بصورة مُرضية أكثر.

قال غاتسبي "أنا أعرف ماذا سنفعل؛ سنجعل كليبسبرينغر يعزف على البيانو"

خرجَ من الغرفة وهو يهتف "يوينغ!" ثم عاد بعد بضع دقائق يصطحبه شاب مرتبك، يبدو عليه شيء من الرثاثة، يضعُ نظارة بإطارٍ من الصدف وذو شعرٍ أشقر هزيل. كان عندئذٍ حسن الملبس يرتدي "قميصاً رياضياً"، مفتوحاً عند العنق، وينتعل حذاءً خفيفاً، ويلبس بنطلوناً قطنياً قاتماً.

سألتْ ديزي بأدب "هل قاطعنا تمارينك؟"

صرخ السيد كليبسبرينغر، في فورةٍ من الارتباك، "كنتُ نائماً. أعني،

أني كنتُ قبل قليل نائماً. ثم نهضتُ... "

قال غاتسبي، مُقاطعاً إياه "إنَّ كليبسبرينغر يعزف على البيانو. أليس كذلك، يا يورينغ، يا صاحبي؟"

"إنني لستُ عازفاً جيداً. أنا لا – أكاد لا أعزف أبداً. إنني لا أتمرّ –"

قاطعه غاتسبي "سنهبط إلى الطابق السفلي". وأدار مفتاحاً، فاختفتْ النوافذ الرمادية عندما توهّجت أرجاء المنزل كلها بالأضواء.

في غرفة الموسيقى أدار غاتسبي مصباحاً وحيداً موجود بجانب البيانو. أشعل سيجارة ديزي من عود ثقاب مرتعش، وجلس معها على أريكة بعيدة في آخر الغرفة، حيث لا ضوء غير ما تعكسه صفحة الأرضية من الصالة.

بعد أنْ انتهى كليبسبرينغر من عزف مقطوعة "عش الحب "استدار على المقعد وراح يفتش منزعجاً عن غاتسبي وسط الجو الكئيب.

"في الواقع، إنني لا أتمرن أبداً. لقد قلت لك أني لا أُحسن العزف. أنا لا أتمر"

أمره غاتسبي "لا تُكثِر من الكلام، يا صاحبي، واعزف!"

"في الصباح

في المساء،

ألم نستمتع"

في الخارج كانت الريح عاصفة وهدر على امتداد ساحل ساوند رعدٌ متدرِّج خافت. كانت الأضواء كلها مُضاءة في ويست إيغ عندئذٍ؛ وكانت القطارات الكهربائية تغوص، حاملةً الركاب إلى منازلهم، خلال المطر، من نيويورك. كانت تلك ساعة التغيُّر الإنساني العميق، وكانت

الإثارة تتولّد في الجو.

"شيء واحد مؤكَّد أكثر من غيره

الأثرياء يزدادون ثراءً والفقراء يزدادون – عدداً.

في تلك الأثناء

في تلك الأثناء"

عندما تقدَّمتُ لأودّعهما رأيتُ أنَّ تعبير الارتباك قد عاد إلى وجه غاتسبي، وكأنَّ ظلاً من الشك قد لاحَ له بالنسبة إلى طبيعة سعادته الحاضرة. لقد مضى ما يُقارب الخمس سنوات! لا ريب في أنَّ لحظات قد مرّت حتى خلال بعد ظهيرةِ ذلك اليوم سقطَتْ خلالها ديزي من أحلامه – ليس بسبب خطأ ارتَكَبَته، بل بسبب الحيوية الهائلة لوهمه. لقد كان يتجاوزها، يتجاوز كل شيء. لقد ارتمى في أحضانه بشغفٍ مُبدِع، وعزّزه طوال الوقت، وزخرفه بكل أنواع الريش البرّاق التي صادفها في طريقه. لا يمكن لأي مقدار من النار أو النضارة أنْ يتحدّى ما يستطيعُ الإنسان أنْ يُخزّنه في قلبه الغامض.

بينما كنتُ أراقبه عدَّلَ قليلاً من شأنه، ظاهرياً. أمسكَتْ يده بيدها، وبينما كانت تقولُ شيئاً بصوتٍ منخفض في أذنه التفتَ إليها مع دفقٍ من المشاعر. أعتقدُ أنَّ ذلك الصوت كان أشدّ ما أسره، بتموّجه، وبدفئه الشديد، إذ لا يمكن المُغالاة في الحلم به – ذلك الصوت كان أغنيةً خالدة.

كانا قد نسيا أمري، لكنَّ ديزي رفعَتْ بصرها نحوي ومدَّت لي يدها؛ أما غاتسبي فلم يكن يعرفني على الإطلاق عندئذٍ. نظرتُ مرةً أخرى إليهما وبادلاني النظر، بنظرةٍ شاردة، ممسوسة بحياةٍ مُكثَّفة. ثم خرجتُ من الغرفة وهبطتُ الدَرَج الرخامي وانتقلتُ منه إلى المطر، وتركتهما هناك معاً.

الفصل السادس

في نحو ذلك الوقت وصل مُراسلٌ صحفيٌ شاب وطموح من نيويورك ذات صباح إلى باب منزل غاتسبي وسأله إنْ كان لديه ما يقوله.

سأله غاتسبي بأدب "عن ماذا؟"

"يعني – أي تصريح تُدلي به"

وقد اتَّضحَ بعد خمس دقائق مشوَّشة أنَّ الرجل سمعَ باسم غاتسبي من أشخاص قريبين من مكتبه في صِلته بأمرٍ إما أنه لم يُفصِح عنه أو لم يفهمه فهماً تاماً. وقد كان ذاك يوم عطلته فانطلقَ تحدوه روح المبادرة الجديرة بالثناء لـ "يرى".

كانت رمية بلا رام، ومع ذلك أصابتْ غريزة المراسل. كانت شهرة غاتسبي، التي نشرها المئات مِمَّن قبلوا حُسن ضيافته وأُصبحوا بذلك مراجع لماضيه، قد ازدادت طوال فصل الصيف حتى كاد يُصبح أحد مواد الأخبار. وربط أساطين معاصرين أمثال أصحاب "شركة الأنبوب التحت أرضي إلى كندا" أنفسهم به، وسرتْ حكاية واحدة تقول بإلحاح إنه لم يكن يُقيم في المنزل أبداً، بل في قارب يُشبه المنزل ويتنقَّل سراً جيئة وذهاباً على طول شاطئ لونغ أيلند. وليس من السهل معرفة سبب كون تلك التلفيقات مصدر راحة لجيمس غاتس من داكوتا الشمالية.

جيمس غاتس – هذا كان اسمه حقاً، أو على الأقلّ قانونياً. وكان قد

غيَّره وهو في سن السابعة عشرة وفي لحظةٍ معيَّنة شهِدتْ بداية حياته المهنية - عندما رأى يخت دان كودي يُنزِل مرساته عبر أشد صفحات المياه الساكنة غدراً لبحيرة سوبيرير. كان جيمس غاتس هو الذي يتمشّى على طول الشاطئ بعد ظهيرة ذلك اليوم مرتدياً قميصاً أخضر اللون وممزقاً وبنطلوناً من الكنفا، لكنَّ جاي غاتسبي كان هو الذي استعار قارب تجديف، وجدّفَ حتى اليخت "تولومي"، وأبلغَ كودي بأنَّ ريحاً قد تهبُّ عليه وتفاجئه خلال نصف ساعة.

أعتقد أنه كان قد أعدَّ الاسمَ منذ زمن بعيد، حتى في ذلك الحين. كان والداه مُزارعَين كسولَين وفاشلَين - ومُخيّلته لم تقبلهما أبداً كوالدَين له. والحقيقة هي أنَّ جاي غاتسبي نزيل ويست إيغ، في لونغ أيلند، برزَ من تصوّره الأفلاطوني لنفسه. لقد كان ابناً لله - وهي عبارة، إنْ كانت تعني شيئاً، فهي تعني ما تقول - وعليه أنْ يواصل عمل أبيه الذي في الأعالي، أي خدمة الجمال العاهر، السوقي، الواسع الانتشار. لذلك اخترع نسخةً من جاي غاتسبي من النوع الذي يُتوقَّع من فتى في السابعة عشرة أنْ يخترعه، ولهذا التصوُّر كان مخلصاً حتى النهاية.

كان قد أمضى أكثر من عام وهو يقطع الطريق الممتد على طول الشاطئ الجنوبي لبحيرة سوبيرير يجمع الصدفيات ويصطاد السلمون أو يلجأ إلى أي مقدرة توفر له الغذاء والنوم. كان جسمه الأسمر، الصلب، يعيش حياةً طبيعية من خلال العمل نصف القاسي، نصف الكسول، في أيام النشاط. وعرِف النساء باكراً، ولأنهن أفسدنه بالتدليل احتقرهنّ، العذراوات لأنهم جاهلات، والأخريات لأنهنّ مهووسات بأشياء اعتبرها، في غمرة استغراقه في ذاته، بديهية.

لكنَّ قلبه كان في حالة ثورة مضطربة دائمة. كانت تسكن أحلامه أشد الأوهام غرابة وحمقاً. وتشكّلَ في ذهنه كون من البهرجة العصيّة

على الوصف مع دقّات ساعة المغسلة ونقعَ القمر بالضوء الرطب ملابسه المتشابكة على الأرض. كان نمط أوهامه يزداد في كل ليلة إلى أنْ يُغمِض النعاس عينيه على مشهد حيّ بعناق النسيان. وقد زوّدته أحلام اليقظة تلك لبعض الوقت بمنفذ لمخيّلته؛ كانت بمثابة إشارةٍ مُرضية إلى لا واقعيّة الواقع، وعدٍ بأنَّ صخرة العالم قد أُسستْ بأمان على جناح خرافة.

ثمة غريزة نحو مجده المستقبلي قادته، قبل بضعة أشهر، إلى كلّية سينت أولاف اللوثرية الصغيرة في جنوب مينيسوتا. مكثَ هناك أسبوعين، وقد أفزعته لا مبالاتها الضارية بطبول القَدَر، بل بالقدر نفسه، وبَغَضَ عمل الحاجب الذي قام به ليكسب معيشته. ثم عاد إلى بحيرة سوبيرير، وكان لا يزال يفتش عن شيءٍ يقوم به في اليوم الذي أسقطَ دان طودي مرساة اليخت في المياه الضحلة على طول الشاطئ.

حينئذٍ كان كودي في الخمسين من العمر، نِتاج حقول نيفادا الفضيّة، ويوكون، وكل هجوم على معدن منذ عام ١٨٧٥. والصفقات التجارية التي عقدها في نحاس مونتانا وجعلت منه مليونيراً أضعافاً مُضاعفة وجدته غليظاً جسدياً ولكن على حافة الخرف، ولاحظ عدد غير محدود من النساء ذلك فحاولنَ أنْ يفصلنه عن ماله. والنتائج غير المقبولة كثيراً التي خرجت بها إللا كاي، الصحفيّة، ولعبت بواسطتها دور مدام دو ماتنون[٩] أمام ضعفه وأرسلته إلى البحر في يخت، أصبحت مدار أحاديث صحافة عام ١٩٠٢ الطنّانة. كان يُبحر بمُحاذاة كل الشواطئ المُبالِغة في حُسن ضيافتها على مدى خمس سنوات عندما ظهر في حياة جيمس غاتس في ليتل غيرل باي.

---

(٩) مدام دو ماتنون ١٦٣٥ - ١٧١٩) : اسمها في الأصل فرانسواز دوبينيه، ثم أصبح مدام دو سكارون، أو مدام دو ماتنون. كانت موهوبة وكاتبة، لكن حياتها كانت تعيسة، تزوجت وطلقت وهي في السادسة والعشرين. عملت مربية لطفل غير شرعي للملك لويس الرابع عشر، ثم أقنعته بالزواج منها. ويُقال إنها كانت صاحبة نفوذ وتأثير في إدارته للبلاد - المترجم

بالنسبة إلى غاتس الشاب، المرتاح على مجدافَيه ويرفعُ نظره إلى السطح ذي السياج، مثَّلَ ذلك اليخت كل جمال العالم ومجده. أعتقد أنه ابتسمَ لكودي - لعلّه اكتشفَ أنَّ الناس يُحبونه عندما يتسم. على أي حال سأله كودي بضعة أسئلة (أحدها كان السبب في إطلاق الاسم الجديد) ووجدَ أنه سريع البديهة وطموحاً بإفراط. وبعد ذلك ببضعة أيام أخذه إلى دولوث وأحضر له مِعطفاً أزرق، وستة أزواج من البناطيل البيضاء القطنية، وقلنسوة خاصة براكبي اليخوت. وعندما غادر يخت "تولومي "إلى الأنديز الغربية وبارباري كوست، غادر غاتسبي أيضاً.

لقد تمَّ استخدامه بمقدرة شخصية غامضة - وفي أثناء ملازمته كودي عمِلَ على التوالي خادماً، ومعاوناً، رباناً، وأمين سر، وحتى سجّاناً، ذلك أنَّ دان كودي الصاحي كان يعرف أي أفعال سخيّة يمكن لدان كودي الثمل أنْ يقوم بها سريعاً فاستعدَّ لمثل تلك الاحتمالات بوضعه المزيد من ثقته في غاتسبي. استمر هذا الترتيب خمس سنوات، دار القارب خلالها ثلاث مرات حول القارة. وكان يمكن أنْ يستمر الأمر إلى ما لا نهاية لولا أنَّ إللا كاى استقلَّت القارب من بوسطن ذات ليلة وبعد مرور أسبوع مات دان كودي بشكلٍ مُجحِف.

أذكُرُ صورته التي وجدتها في غرفة نوم غاتسبي، تُبيِّن رجلاً أشيب الشعر، متورداً ذا وجه قاسٍ، خالٍ من التعبير - الرائد الفاسق الذي أعاد، خلال إحدى فترات الحياة الأميركية، إلى الساحل الشرقي العنف الوحشي الذي اتّسمَ به الماخور والحانة الحدوديّتين. والفضل في قلّة شرب غاتسبي للخمر يعود فضله بشكلٍ غير مباشر إلى كودي. وأحياناً، في سياق الحفلات المرحة، كانت النسوة تغسل شعره بالشمبانيا؛ واكتسبَ عادة ترك شرب الخمر.

ومن كودي ورثَ المال - إرثاً تبلغ قيمته خمساً وعشرين ألف

دولار. لكنه لم يستلمه. لم يفهم أبداً الآلية القانونية التي استُخدِمَتْ ضده في هذا المجال، ولكن ما تبقّى من الملايين ذهب كله إلى إللا كاى. ولم يتبقَّ له غير ثقافته المناسبة بشكلٍ فريد؛ واكتملَتْ الملامح الأساسية لجاي غاتسبي.

أخبرني بذلك كله بعد ذلك بوقت طويل، لكني أدوّنه هنا وفي نيّتي أنْ أُفجّر تلك الشائعات الجامحة الأولى حول أسلافه، التي كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة. وزيادة على ذلك أفشى به لي خلال فترة من الفوضى، عندما وصلتُ إلى نقطة تصديق كل شيء ولا شيء عنه. لذا انتهزتُ فترة التوقف تلك، أي ريثما يلتقط غاتسبي أنفاسه، لكي أزيل هذه المجموعة من الأفكار الخاطئة.

كانت أيضاً فترة توقف في صِلتي بشؤونه. ومضت أسابيع طويلة لم أره خلالها أو أسمع صوته عبر الهاتف - كنتُ غالباً موجوداً في نيويورك، أتسكّعُ مع جوردان وأحاولُ أنْ أفوز بحظوة عند عمّتها الخرفة - لكني في النهاية توجهتُ إلى منزله بعد ظهيرة يوم أحد. ولم يمضِ على وجودي هناك دقيقتان حتى أعلنَ أحدهم عن وصول توم بيوكانن ليتناول مشروباً. وفوجئتُ، طبعاً، لكنَّ المفاجئة الحقيقية كانت أنَّ ذلك لم يحدث من قبل.

شكلوا فرقة من ثلاثة أشخاص على صهوة جواد - توم ورجل اسمه سلون وامرأة جميلة ترتدي زيّ ركوبٍ بُنيّ اللون، كانت قد جاءت إلى هناك من قبل.

قال غاتسبي، وهو واقف في الرواق، "أنا سعيد برؤيتكم. أنا سعيد لأنكم أتيتم"

وكأنَّهم يأبهون لذلك!

أخذ يتمشّى في أرجاء الغرفة بسرعة، ويرن الجرس. "اجلسوا هنا. دخّنوا سيجارة أو سيجاراً. سأعدّ لكم شيئاً لتشربوه فوراً"

كان متأثّراً بعمق بحضور توم. لكنه كان سيبقى مضطرباً إلى أنْ يُقدم لهم شيئاً، لإدراكه بصورةٍ غامضةٍ أنَّ ذلك هو ما حضروا لأجله. السيد سلون لم يُرِد شيئاً. ليمونادة؟ كلا، شكراً. قليلاً من الشمبانيا؟ لا شيء على الإطلاق، شكراً... أنا آسف –

"هل أمضيتم وقتاً ممتعاً في الركوب؟"

"الطرقات في هذه الأنحاء جيدة جداً"

"أعتقد أنَّ السيارات الخاصة –"

"نعم"

التفتَ غاتسبي نحو توم، الذي قبِلَ التعريف به كأنه شخص غريب، مدفوعاً بدافع لا يُقاوَم.

"أعتقد أننا تقابلنا في مكان ما من قبل، يا سيد بيوكانن"

قال توم، بأدب فظ، ولكن من الواضح أنه لم يتذكّر، "أوه، نعم. تقابلنا . أذكرُ ذلك جيداً"

"قبل نحو أسبوعَين"

"هذا صحيح. كنتَ مع نيك هنا"

تابعَ غاتسبي، بشيء من العِدائيّة، "أنا أعرف زوجتك"

"أحقاً؟"

التفتَ توم إليّ.

"أتقيمُ هنا، يا نيك؟"

"في الجوار"

"أحقاً؟"

لم يشترك السيد سلون في المحادثة، لكنه استرخى بغطرسة على كرسيه؛ والمرأة أيضاً لم يفه بأي كلمة - إلى أنْ، بصورة غير متوقَعَة، بعد شرب كأسين، أصبحت ودوداً.

اقترحَتْ "سوف نحضر جميعنا حفلتك التالية، يا سيد غاتسبي. ما رأيك؟"

"حتماً؛ سوف يُسعدني أنْ أكون في استقبالكم"

قال سلون، دون تعبير عن الامتنان "هذا لطف منك. حسن - أعتقد أنه يجب أنْ نعود إلى منازلنا"

ألحّ غاتسبي "أرجوكم، لا داعي للاستعجال". كان عندئذٍ قد تمالك نفسه، وأراد أنْ يتردد توم عليه. "لِمَ لا - لِمَ لا تمكثوا حتى العشاء؟ لن أُدهَش إذا ما جاءنا ضيوف آخرون من نيويورك"

قالت السيدة بحماس "تعالا أنتما الاثنان لتناول العشاء معي أنا"

الدعوة شملتني أنا. ونهضَ سلون واقفاً على قَدَميه.

قال "هيا "- ولكن فقط لها.

أصرّت "أنا جادّة. يسعدني أنْ أستقبلكما. هناك متّسع وافر"

نظر إليّ غاتسبي مُستفهماً. لقد أراد أنْ يذهب، ولم يرَ أنَّ السيد سلون يُمانع في ذلك.

قلت "أخشى أني لن أتمكن"

ألحّت، مع تركيزٍ على غاتسبي "حسن، تعالَ أنت"

غمغمَ السيد سلون بشيء بالقرب من أُذنها.

ألحّتْ بصوت عالٍ "لن نتأخر إذا انطلقنا الآن"

قال غاتسبي "ليس لدي حصان. كنتُ أمارس الركوب وأنا في الجيش، ولكني لم أشترِ حصاناً أبداً. سوف أُضطر إلى أنْ اتبعكِ بسيارتي. عن إذنكم دقيقة واحدة"

خرج بقيّتنا إلى الرواق، حيث بدأ سلون والسيدة حديثاً جانبياً ملتهباً.

قال توم "يا إلهي، أعتقد أنَّ الرجلَ قادم. ألا يُدرك أنها لا تريده؟"

"هي تقول إنها تريده"

تجهَّمَ وقال "إنها تُقيم حفل عشاء كبير وهو لا يعرف أحداً هناك. أتساءل أين قابلَ ديزي. وحقُّ الله، قد أكون متخلفاً في أفكاري، لكنَّ النساء يتنقّلنَ كثيراً هذه الأيام وهذا لا يناسبني. إنهنَّ يُقابلن كل أنواع الأشخاص المجانين"

فجأةً أخذ السيد سلون والسيدة يهبطان الدَرَج ويرتقيان صهوة جواديهما.

قال السيد سلون لتوم "هيا، لقد تأخّرنا. يجب أنْ نذهب"، ثم التفتَ إليّ : "قُلْ له إننا لم نتمكن من الانتظار، هلاّ فعلت؟"

صافحتُ توم، وتبادل بقيتنا إيماءً بارداً بالرأس، وخبّوا بخطى سريعة على الممشى، واختفوا تحت خُضرة شهر آب في الوقت الذي خرج غاتسبي، حاملاً قبعة ومعطفاً بيده، إلى الباب الأمامي.

كان جلياً أنَّ توم قلق من تجوُّل ديزي وحدها، ذلك أنه في ليلة يوم السبت التالية جاء مع ديزي إلى حفل غاتسبي. ولعلَّ حضوره أضفى على الأمسية سِمة استبدادية خاصة - إنها متميِّزة في ذاكرتي عن باقي حفلات

غاتسبي الصيفية. كان هناك الأشخاص أنفسهم، أو على الأقلّ النوع نفسه من الأشخاص، وفرة الشمبانيا ذاتها، تعدُّد الألوان نفسه، الضجة المتعددة النبرات، ولكني شعرتُ بغياب السرور في الجو، بخشونة سائدة لم توجد هناك من قبل. أو ربما أني فقط تعوَّدتُ عليها، تعوّدتُ على قبول ويست إيغ كعالم مكتمل بحد ذاته، بمعاييره وشخصياته البارزة، الفريد من نوعه لأنه لا يعي أنه كذلك، وها أنا الآن أنظر إليه من جديد، من خلال عينيّ ديزي. ومن المُحزن دائماً أنْ تنظر من خلال عيونٍ جديدة إلى أشياء أنفقتَ طاقاتك للتكيُّف معها.

وصلوا عند الغسق، وفي أثناء تجوالنا بين الحشود المتلألئة، كان صوت ديزي يُمارسُ خدعاً هامسة بحنجرتها.

همست "إنَّ هذه الأشياء تُثيرني كثيراً. إذا أردتَ أنْ تُقبّلني في أي وقت خلال الأمسية، يا نيك، أعلِمني وسوف يسعدني أنْ أستعد لذلك. يكفي أنْ تذكر اسمي. أو أنْ تُبرز البطاقة الخضراء. أنا أعطي بطاقة خضراء"

اقترحَ غاتسبي "أنظر حولك"

"أنا أنظر حولي. إنني أقضي وقتاً رائعاً"

"يجب أنْ ترى وجوه الأناس الكثيرين الذين سمعتَ عنهم"

تجوّلتْ عينا توم المتغطرسة بين الحشد.

قال "إننا لا نخرج كثيراً، في الواقع، كنتُ فقط أفكّر في أننا لا نعرف أحداً هنا"

"لعلّكَ تعرف تلك السيدة"، وأشار غاتسبي إلى امرأة رائعة الجمال أشبه بزهرة سحلبية لا صِلة لها بالبشر كانت تجلس بفخامة تحت شجرة خوخ بيضاء. حدَّقَ توم وديزي، مع ذلك الشعور غير الحقيقي الذي

يُصاحب التعرُّف على شخصية سينمائية مشهورة جداً حتى اليوم.

قالت ديزي "ما أجملها"

"الرجل الذي يميل عليها هو مُخرج أفلامها"

وأخذ ينتقل بهما بسلوك رسميّ من مجموعة إلى مجموعة :

"السيدة بيوكانن... والسيد بيوكانن -"، وبعد برهة تردُّد أضاف : "لاعب البولو"

اعترضَ توم بسرعة "أوه كلا، ليس صحيحاً"

ولكن من الواضح أنَّ وقعه أعجبَ غاتسبي لأنَّ توم بقيَ "لاعب البولو "حتى آخر السهرة.

هتفت ديزي "لم أقابل أبداً مثل هذا العدد الكبير من الشخصيات الشهيرة. يُعجبني ذلك الرجل - ما اسمه؟ - ذو الأنف الأزرق"

عرَّفه غاتسبي، مُضيفاً أنه مُنتج صغير.

"حسن، إنه يعجبني في كل الأحوال"

قال توم بمرح "أنا أفضِّل قليلاً ألاّ أكون لاعب بولو؛ أفضِّل أنْ أتفرَّج إلى كل هؤلاء المشاهير وأنا في - في عالم النسيان"

رقصت ديزي مع غاتسبي. وأتذكَّر أني فوجئت بذلك الرقص المتحفِّظ، الجميل للفوكس-تروت - لم أكن قد رأيته يرقص قبل ذلك. ثم تمشيا بخطى متمهّلة إلى منزلي وجلسا على الدَرَج على مدى نصف ساعة، بينما بقيتُ، نزولاً عند رغبتها، حارساً في الحديقة. شرحت "فربما ينشب حريق أو يحدث فيضان، أو أي فعل من عند الله"

ظهر توم من عالم نسيانه في أثناء جلوسنا على مائدة العشاء معاً. قال

"هل تمانع في أنْ أتناول الطعام مع بعض الأشخاص هنا؟ هناك شخص يلقي بعض الأشياء المضحكة"

أجابت ديزي بكياسة "اذهب، وإذا أردتَ أنْ تدوِّن أي عنوان إليكَ قلمي الرصاص الصغير الذهبي"... وبعد قليل تلفَّتت حولها وقالت لي إنَّ الفتاة "سوقية ولكن جميلة"، وأدركتُ أنه فيما عدا النصف الساعة التي اختلت خلالها مع غاتسبي لم تعد تقضي وقتاً ممتعاً.

كنا مجموعة من السكارى حول المائدة. وكان الذنب ذنبي – واستُدعيَ غاتسبي إلى الهاتف، وكنتُ قد استمتعت بصُحبة الأشخاص أنفسهم قبل أسبوعَين. ولكن ما أمتعني حينئذٍ تحول هذه المرة إلى عفن في الجو.

"كيف تشعرين، مس بيديكر؟"

الفتاة المُشار إليها كان تحاول، دون نجاح، أنْ تنام على كتفي. إبّان ذلك السؤال اعتدلتْ في جلستها وفتحت عينيها.

"ماذا؟"

تكلّمتْ امرأة ضخمة الجثة وبليدة، كانت تحثُّ ديزي على لعب الغولف معها في النادي المحلّي في الغد، دِفاعاً عن المس بيديكر:

"أوه، إنها على ما يُرام الآن. إنها بعد شرب خمسة كؤوس أو ستة من الكوكتيل دائماً تبدأ بالصراخ هكذا. وأطلب منها أنْ تكفّ عن الشرب"

أكّدتْ المُتّهَمة بصوت أجوف "أنا أكفّ فعلاً"

"لقد سمعناكِ تصرخين، فقلتُ للدكتور سيفيت هنا : "هذه حالة تحتاج إلى مساعدتك، يا دكتور "

قال صديق آخر، دوُن إحساس بالامتنان، "إنها شديدة الامتنان، أنا متأكد، لكنك بللت ثوبها عندما غمست رأسها في البركة"

غمغمت المس بيديكر "إنَّ الشيء الوحيد الذي أكرهه هو أنْ أغمس رأسي في بركة. لقد كادوا يُغرقونني هناك في نيو جرسي"

ردَّ الدكتور سيفيت "إذن يجب أنْ تكفّي عن الشرب"

صرخت مس بيديكر بعنف "تكلَّم عن نفسك! إنَّ يداك ترتعشان. لن أسمح لك أن تمارس سلطتك عليَّ!"

هكذا كان الأمر. وآخر ما أتذكّره تقريباً هو أني كنتُ واقفاً مع ديزي وأراقب مخرج الأفلام السينمائية ونجمته. كانا لا يزالان واقفين تحت شجرة الخوخ البيضاء ووجهيهما يتلامسان لا يفصل بينهما غير شعاع رفيع من ضوء القمر الشاحب. وتبيَّنَ لي أنه كان يميل ببطءٍ شديد نحوها طوال الأمسية ليتوصل إلى ذلك القُرب، وحتى في أثناء مراقبتي رأيته ينحني مقدار درجة واحدة أخيرة ويُقبّلها على خدّها.

قالت ديزي "إنها تعجبني. أعتقد أنها ظريفة"

لكنَّ ما تبقّى أزعجها - وبلا نِقاش، لأنه لم يكن إيماءة بل انفعالاً. لقد أصابتها ويست إيغ بالرعب، ذلك "المكان "غير المسبوق الذي أفرزه برودواي في قرية صيد في لونغ أيلند - أفزعتها حيويته الفظّة التي تجيش تحت التعبيرات اللطيفة القديمة والقَدَر الشديد الفضول الذي ساقَ سكانه على طول الطريق المُختَصَرَة من عَدمٍ إلى عَدَم. رأتْ شيئاً فظيعاً في البساطة ذاتها التي فشلتْ في فهمها.

جلستُ على الدَرَج الأمامي معهما في أثناء انتظارهما سيارتهما. كان الظلام يسود هنا عند الواجهة؛ وحده الباب البرّاق كان يشعّ مقدار عشرة أقدام مُربّعة من الضوء تنبعث إلى الصباح المظلم الرقيق. أحياناً كان يتحرّك شبحٌ على ستارة غرفة تغيير ملابس في الأعلى، ويفسح المجال لشبحٍ آخر، لموكبٍ لا ينتهي من الأشباح، التي تبرّجتْ أمام مرآة خفيّة.

سأل توم فجأةً "مَنْ هو هذا المدعو غاتسبي على أي حال؟ أحد مُهرّبي الخمور؟"

سألته "أين سمعتَ هذا؟"

"لم أسمعه. هكذا خُيِّلَ إليّ. إنَّ كثيراً من مُحدثي النعمة والثراء ليسوا أكثر من مُهرّبي خمور، في الواقع"

قلتُ باقتضاب "ليس غاتسبي"

صمتَ برهة. سُحِقَ حصى الممشى تحت قدميه.

"حسن، لا شك في أنه بذل جهداً كبيراً ليجمع تلك الوحوش معاً"

حرَّكَ نسيمٌ الهالة الرمادية لياقة ديزي الفرو.

قالت بصعوبة "على الأقلّ هي أشدّ إثارة للاهتمام من الناس الذين نعرفهم"

"لا يبدو عليكِ الاهتمام الشديد"

"في الواقع، كنتُ كذلك"

ضحك توم والتفتَ نحوي.

"هل لاحظتَ وجه ديزي عندما طلبت منها تلك الفتاة أنْ تضعها تحت الدش البارد؟"

بدأتْ ديزي تغني بمُصاحبة الموسيقى بهمسٍ أجشّ، موزون، مُعبِّرة عن معنى في كل كلمة لم يكن موجوداً قبل ذلك ولن يوجد بعد ذلك. وعندما تصاعد اللحن ارتفعَ معه صوتها بعذوبة، وتبعه، كما تفعل الأصوات النسائية الخشنة، وكل تغيُّر كان يبثُّ قليلاً من سحرها الإنساني الدافئ في الجو.

قالت فجأةً "إنَّ أناساً كثيرين يأتون دون دعوة. تلك الفتاة غير مدعوَّة. إنها ببساطة يقتحمون المكان وهو من فرط التهذيب بحيث لا يعترض"

أصرَّ توم "أودّ أنْ أعرف مَنْ هو وماذا يعمل، وأعتقد أني سأصرّ على معرفة ذلك"

أجابت "أستطيع أنْ أخبرك الآن حالاً. كان يمتلك بعض المحال التجارية، بل الكثير منها. وبناها بنفسه"

جاءت سيارة الليموزين البطيئة تتقدم على الممشى.

قالت ديزي "تصبح على خير، يا نيك"

تركَتْه نظرتُها وفتشَتْ عن الجزء العلوي المُضاء من الدَرَج، حيث كان فالس "الساعة الثالثة صباحاً"، الرقيق، الحزين والأنيق، الذي راجَ في ذلك العام، ينسابُ من النافذة المفتوحة. فقبل كل شيء، كان في طابع حفلة غاتسبي العَرَضيّ نفسه إمكانات رومانسية بعيدةً كلَّ البُعد عن عالمها. ماذا كان يوجد في تلك الأغنية الآتية من فوق جذبها لتعود إلى الداخل؟ ماذا سيحدث الآن خلال ساعات العتمة التي لا تُحصى؟ قد يصل ضيف يكاد لا يُصدَّق، شخصٌ نادر جداً ويُثير الإعجاب، فتاة شابة متورّدة بصدق تمحو بنظرةٍ واحدة نضرة منها إلى غاتسبي، بلحظة من اللقاء السحري، خمس سنوات من الإخلاص الثابت.

في تلك الليلة مكثتُ حتى وقتٍ متأخر، فقد طلب مني غاتسبي أنْ أنتظر ريثما يُصبح حراً، فرحتُ أتمشى في الحديقة إلى أنْ عادتْ مجموعة السباحة التي لا غِنى عنها، من الشاطئ المظلم، واسترخت وابتهجت، وأُطفئت الأنوار في غرف الضيوف العليا. وعندما هبط الدَرَج أخيراً كانت بشرة وجهه المُسمرَّة بتأثير الشمس مشدودةً بشكل غير اعتيادي على وجهه، وعيناه برّاقتين ومُتعبتين.

قال على الفور "لم تُعجبها"

"طبعاً أعجبتَها"

أصرّ "لم تُعجبها. لم تستمتع بوقتها"

صمتَ، وخمّنتُ كآبته الخرساء.

قال "أشعر أني شديد البُعد عنها. أجد صعوبة في جعلها تفهم"

"تعني بشأن الرقصة؟"

"الرقصة؟". بدَّدَ كل الرقصات التي اشترك فيها بفرقعة من أصابعه. "يا صاحبي، الرقص لا أهمية له"

لم يكن يُريد من ديزي أقلّ من أنْ تتقدم من توم وتقول له : "إنني لم أحبك أبداً"، وبعد أنْ يلغيا أربع سنوات بتلك الجملة يمكنهما أنْ يتوصلا إلى قرار بشأن الإجراءات الأكثر عملية الواجب اتّخاذها. وأحدها هو أنْ يعودا إلى لويزفيل، بعد أنْ تحصل على حريتها، وتتزوج شخصاً من عائلتها – وكأنَّ الزمن عاد خمس سنوات إلى الوراء.

قال "وهي لا تفهم. كانت تفهم في العادة. كنا نجلس ساعات طوال"

ثم أخذ فجأةً يمشي جيئة وذهاباً على درب مقفر تحفّه قشور الفاكهة والنفايات والأزهار المسحوقة.

غامرتُ بالقول : "لو كنتُ مكانك لما طلبتُ منها الكثير. لا يمكن تكرار الماضي"

صرخ غير مُصدِّق "لا نستطيع تكرار الماضي؟ طبعاً نستطيع!"

تلفَّتَ حوله بضراوة، وكأنَّ الماضي يكمنُ هنا في ظل منزله، ولا تبلغه يده.

قال، وهو يومئ في تصميم "سوف أُرمم كل شيء لأعيده بالضبط كما كان من قبل. سوف أُريها"

تكلَّمَ كثيراً عن الماضي، وأدركتُ أنه أراد أنْ يستعيد شيئاً، فكرةً ما عن نفسه ربما، تحوّلت إلى حب لديزي. منذ ذلك الحين أضحت

حياته مضطربة ومشوَّشة، ولكن لو كان في استطاعته أنْ يعود من جديد إلى نقطة انطلاق معيَّنة ويتجول فيها ببطء، فقد يكتشف ماذا كان ذلك الشيء...

.... ذات ليلة من الخريف، قبل خمس سنوات، كانا يتمشيان في الشارع وأوراق الأشجار تتساقطُ، ووصلا إلى مكانٍ لا شجر فيه وكان الرصيف أبيض اللون من ضياء القمر. هنا توقفا واستدار كلٌّ منهما نحو الآخر. كان الليل قد أضحى بارداً بما فيه من إثارة غامضة ترافقُ انقلابَيّ العام؛ والأضواء الهادئة في المنازل تُرسلُ همهمتها إلى الليل وكان هناك تململٌ وصخب بين النجوم. ومن زاوية عينه رأى غاتسبي أنَّ الحجارة الموضوعة على طول الرصيفين شكّلتْ في الواقع سُلّماً يرتفع حتى مكانٍ سرّي فوق الأشجار - يستطيع أنْ يرتقيه، إذا ما ارتقاه وحده، وحالما يبلغ آخره يمكنه أنْ يرضع من ثدي الحياة، يجرع حليب العجائب الفريد من نوعه.

أسرعَ وجيبُ قلبه أكثر فأكثر مع اقتراب وجه ديزي الأبيض من وجهه. وعلِمَ أنه عندما سيُقبِّل هذه الفتاة، وتتزاوج رؤاه التي لا يمكن البوح بها برباطٍ أبديّ مع أنفاسها الزائلة، لن يُعربد عقله أبداً بعد ذلك كعقل الله. فانتظرَ، مُصغياً برهة إلى الشوكة الرنّانة التي قرعَت أحد النجوم. ثم قبّلها. ومن لمس شفتيه تفتّحتْ لأجله كزهرة وتمَّ التجسُّد.

على امتداد كلامه، بل على امتداد استعراض نزعته العاطفية الفظيعة، كنتُ أتذكَّر شيئاً - إيقاعاً مُراوغاً، مقطعاً من كلماتٍ ضائعة، كنتُ قد سمعته في مكانٍ ما قبل زمن بعيد. ولبرهة من الزمن حاولت فِقرة أنْ تتشكّل في فمي وانفرجت شفتاي كشفتيّ رجلٍ أخرس، وكأنَّما يجري عليهما صراعٌ وليس نفحة من أنفاس مذهولة. ولكن لم ينِدّ عنهما صوت، وما أكاد أذكره سيبقى عصياً عن الوصف إلى الأبد.

الفصل السابع

عندما بلغَ فضولي ذروته حول غاتسبي أُطفِئت أضواء منزله ذات ليلة يوم سبت – وكما بدأت مسيرة حياته بغموض، كذلك انتهت كما حدث مع تريمالخيو[١٠]. ولم أعِ إلا بالتدريج أنَّ السيارات الخاصة التي وصلت بصورة متوقّعة إلى الممشى لم تبقَ إلا دقيقة واحدة فقط ومن ثم استدارت وابتعدت بنعومة. تساءلتُ إنْ كان مريضاً وانتقلتُ إليه لأرى جليّة الأمر – رماني ساقٍ غريب ذي وجهٍ بغيض بنظرة شزراء مُرتابة من الباب.

"هل السيد غاتسبي مريض؟"

"كلا". وبعد برهة صمت أضاف "يا سيدي" بطريقة بطيئة، حقود.

"إنني لم أره في الجوار، فشعرتُ بالقلق. أخبره بأنَّ السيد كاراواي قد جاء"

سألَ بفظاظة "مَنْ؟"

"كاراواي"

"كاراواي. حسن، سأخبره"

---

(١٠) تريمالخيو : هو أحد شخصيات كتاب "ساتايريكون" ، للمؤلف الروماني بترونيوس (ت. عام ٦٦ م) ، ويصفُ فيه الكاتب حياة البذخ والانحطاط في روما . وتريماليخو هو رجل ثري كان يُقيم حفلات تتسم بالإسراف والمغالاة في الترف. – المترجم

وعلى الفور صفع الباب.

أبلغتني خادمتي الفنلندية بأنَّ غاتسبي صرف كل خادم في منزله قبل أسبوع واستبدلهم بآخرين لم يسبق لهم أنْ ذهبوا إلى قرية ويست إيغ بحيث يتلقّوا رشوى من التجار، لكنه أمرَ بإحضار كمية معتدلة من المؤن عبر الهاتف. وقد قال صبي البقّال أنَّ المطبخ بدا أشبه بزريبة خنازير، والرأي العام في القرية مفاده أنَّ الأشخاص الجُدُد ليسوا خدماً على الإطلاق.

في اليوم التالي اتصل بي غاتسبي هاتفياً.

سألته "هل ستخرج؟"

"كلا، يا صاحبي"

"سمعتُ أنكَ صرفتَ خدمك كلهم"

"أردتُ أشخاصاً لا يُثرثرون. إنَّ ديزي تزورني كثيراً – خلال فترات بعد الظهيرة"

إذن فكامل المنزل تهاوى كبيتٍ من الورق لأنه لم يرُق لها.

"إنهم أشخاصٌ أراد وولفشيم أنْ يقدم لهم مساعدة. كلهم إخوة وأخوات. كانوا يُديرون فندقاً صغيراً"

"فهمت"

كان يتصل بي بطلبٍ من ديزي – تسألني هل آتي لأتناول الغداء في منزلها غداً؟ ستكون مس بيكر هناك. بعد ذلك بنصف ساعة اتصلت ديزي بنفسها وبدت مرتاحة لأنني قررت المجيء. كان هناك شيء يحدث. ومع ذلك لم أُصدّق أنهم اختاروا هذه المناسبة لإثارة شجار – خاصة الشجار المُعذِّب الذي حدَّد غاتسبي معالمه في الحديقة.

اليوم التالي كان شديد الحرارة، يكاد يكون آخر أيام الصيف، وحتماً أشدّها حراً. حالما خرج قطاري من النفق إلى الشمس الساطعة، لم يكسر صمت الظهيرة القائظ إلا الصفير الحارّ لشركة البسكويت الوطنية. المقاعد القشّ للعربة كادت تصل إلى حافة الاحتراق؛ والمرأة الجالسة إلى جواري ظلت تتصبب عرقاً برقّة بعض الوقت داخل بلوزتها البيضاء، ومن ثم، عندما ترطّبت الصحيفة تحت أصابعها، استسلمت بيأس داخل عمق الحرارة مع صرخة يائسة. وسقطَ كتاب الجيب منها على الأرض.

شهقَتْ "أوه، يا إلهي!"

التقطته بانحناءٍ مُرهَق وأعدته إليها، ماداً به كامل ذراعي وممسكاً به من طرف زاويته لأشير إلى أنه لا نيّة لي في أخذه – لكنَّ كل شخص قريب، بمَنْ فيهم المرأة، شكَّ مع ذلك في أني قد أفعل.

قال قاطع البطاقات للوجوه المألوفة "الدنيا حر! يا له من طقس!... حرّ!... حرّ!... حرّ!... ألا تشعرون بالحرّ؟ أليس حرّاً؟ أليس...؟ "

أُعيدت إليّ بطاقة الانتقال وعليها لطخة قاتمة من يده. مَنْ كان سيهتمّ وسط ذلك الحرّ إنْ كان أحد قبّلَ شفتين ملتهبتين، أو رأسُ مَنْ بلل جيب منامته التي تعلو قلبه!

.... هبَّ نسيم عليل متغلغلاً حنايا صالة منزل آل بيوكانن، حاملاً صدى رنين الهاتف إلى غاتسبي وإليّ ونحن ننتظر عند الباب.

هدرَ صوت الساقي في السماعة "جسد السيد؟ أنا آسف، مدام، ولكن لا نستطيع أنْ نُعدّها – إنها ساخنة جداً ولا يمكن لمسها عند الظهيرة!"

ما كان يقوله حقاً هو : "نعم... نعم... سأرى"

وضعَ سماعة الهاتف وجاء نحونا، يتلألأ قليلاً، لكي يتناول قبعات القش اليابسة.

صرخَ، وهو يُشير دون داعٍ إلى الجهة، "المدام في انتظاركما في الصالون!". وفي تلك الحرارة كُل إيماءة زائدة هي تحدٍّ لمخزون الحياة العامّ.

الغرفة، المحميّة جيداً بالمظلات، كانت مظلمة وباردة. استلقت ديزي وجوردان على أريكة ضخمة، كتمثالين من الفضّة يوازنان ثوبيهما الأبيضين في وجه نسيم المراوح المُغرِّد.

قالتا معاً "لا نقوى على الحركة"

استقرَّتْ أصابع جوردان، البيضاء بفعل البودرة التي تغطي سُمرتها، في أصابعي برهة.

سألت "والسيد بيوكانن، الرياضي؟"

سمعتُ في وقتٍ واحد صوته، أجشاً، مكتوماً، خشناً، وهو يتكلَّم في هاتف الصالون.

وقفَ غاتسبي في وسط سجادة قرمزية اللون وحدَّقَ حوله بعينين مفتونتين. راقبته ديزي وضحكتْ، ضحكتها العذبة، المُثيرة؛ وانبعثتْ نفخة من البودرة من صدرها إلى الهواء.

همست جوردان "تقول الإشاعة إنَّ عشيقة توم هي التي تتكلَّم في الهاتف"

لزمنا الصمت. ارتفعَ الصوت الصادر من الصالون عالياً مع إعلان : "حسن، إذن، لن أبيعك السيارة أبداً... لا شيء يُلزمني على فعل ذلك... أما بالنسبة إلى إزعاجك لي بهذا الشأنْ في وقت الغداء، فأنا لا أحتمل ذلك على الإطلاق!"

قالت ديزي متهكمة "إنه يضع سماعة الهاتف"

أكّدتُ لها "كلا، لا يفعل. إنه اتّفاق صحيح. وأنا على عِلم به"

فتحَ توم الباب بقوة، وسدّه بقامته الضخمة برهة، ثم هرع إلى الغرفة.

"مستر غاتسبي!". مدَّ يده العريضة، الكبيرة، بحركة نفور خفيّة. "تسعدني رؤيتك، يا سيدي... وأنت يا نيك ..."

صاحت ديزي "أعِدّ لنا مشروباً بارداً"

عندما غادر الغرفة من جديد نهضتُ واقفة واقتربت من غاتسبي ووجَّهت رأسه نحو الأسفل، وقبّلته على فمه.

غمغمت "أنتَ تعلم أني أحبّك"

قالت جوردان "أنتما تنسيان أنَّ هناك سيدة في المكان"

تلفَّتت ديزي حولها بحركة شك.

"أنتِ قبَّلتِ نيك أيضاً"

"يا لكِ من فتاة سوقية، منحطّة!"

صاحت ديزي "لا يهمني!"، وبدأتْ تعبث بموقد القرميد. ثم تذكَّرتْ الحرّ فجلستْ مع شعور بالذنب على الأريكة في وقت دخول مربّية نظيفة ونضرة تقود فتاة صغيرة إلى الغرفة.

دندنت، وهي تمد ذراعيها، "أيتها المباركة العزيزة، تعالي إلى أمك التي تحبك"

تركت الطفلة المربّية واندفعتْ عبر الغرفة واستقرّتْ بحياء بين تضاعيف ثوب أمها.

"أيتها المباركة العزيزة! هل جعلت الماما البودرة تنزل على شعرك الذهبي العزيز؟ انهضي الآن، وقولي - كيف الحال"

انحنينا أنا وغاتسبي أيضاً وأمسكنا باليد الصغيرة المترددة. وبعد ذلك صار ينظر إلى الطفلة بدهشة. لا أعتقد أنه صدَّقَ مرةً من قبل أنها موجودة.

قالت الطفلة، وهي تلتفت نحو ديزي بلهفة، "لقد ارتديت ملابسي قبل موعد الغداء"

"ذلك لأنَّ أمكِ تريد أنْ تتباهى بكِ". انثنى وجهها نحو الوجه الصغير الأبيض ذات التجعيد الواحد. "أنتِ كالحلم. أنتِ حلم صغير دون أدنى شك"

اعترفت الطفلة بهدوء "نعم. عمتي جوردان أيضاً ترتدي ثوباً أبيض"

أدارتها ديزي بحيث تواجه غاتسبي . "ما رأيكِ في أصدقاء الماما؟ أتعتقدين أنهم ظرفاء؟"

"أين أبي؟"

شرحتْ ديزي "إنها لا تشبه أباها. إنها تشبهني. لقد أخذت مني الشَعر وشكل الوجه"

جلست ديزي باسترخاء على الأريكة. وخطت المربّية خطوة نحو الأمام ومدّت لها يدها.

"هيا، يا بامي"

"إلى اللقاء، يا حبيبتي!"

تشبّثت الطفلة المُهذَّبة بيد مربّيتها، وهي تلقي نظرة إلى الوراء، وخرجت من الباب في الوقت الذي عاد فيه توم، يتقدَّم خمسة كؤوس من الجِنْ تُقرقع فيها قطع الثلج.

أخذ غاتسبي كأسه.

قال، بتوتر ظاهر "إنها تبدو باردة حتماً"

شربنا بجرعات طويلة، نهمة.

قال توم بمودة "لقد قرأتُ في مكان ما أنَّ الشمس تزدادُ حرارتها في كل عام. ويبدو أنَّ الأرض ستسقط في الشمس قريباً - أو انتظروا لحظة - بل العكس - الشمس ستزداد برودة في كل عام"

اقترحَ غاتسبي "هيا إلى الخارج. أريد منكم أنْ تلقوا نظرة على المكان"

خرجتُ معهم إلى الشرفة. على شاطئ ساوند الأخضر، الراكد وسط الحرّ، انسابَ قارب شراعي صغير واحد زاحفاً ببطء نحو البحر الأكثر نشاطاً. تابعتاه عينا غاتسبي برهة؛ ثم رفعَ يده وأشار عبر الخليج.

"أنا أقع مباشرة على الناحية المقابلة لك"

"فعلاً"

امتدت أنظارنا من فوق مساكب الورد والمرج الحارّ وما تخلَّفَ من أعشاب أيام القيظ على طول الشاطئ. وببطء تقدَّمت أجنحة القارب البيضاء أمام صفحة الامتداد الرائق الأزرق للسماء. وبعد ذلك امتد المحيط المموَّج والجُزُر المباركة الكثيرة.

قال توم، مومئاً برأسه، "هذه رياضة لأجلك. أودّ أنْ أخرج معه مدة ساعة"

تناولنا طعام الغداء في غرفة الطعام، التي أُعتِمَتْ أيضاً درءاً للحرّ، وشربنا مرحاً عصبياً مع الجعة الباردة.

هتفت ديزي "ماذا سنفعل بعد ظهيرة هذا اليوم؟ واليوم الذي يليه، وفي السنوات الثلاثين التالية؟"

قالت جوردان "لا تكوني متشائمة. الحياة تبدأ من جديد بعد أنْ تجف في الخريف"

أصرّت ديزي، وكادت تبكي، "لكنَّ الجو شديد الحرارة، والفوضى في كل مكان. فلنذهب جميعاً إلى المدينة!"

كافحَ صوتها للتغلب على الحرارة ووجه لها الضربات، ناحتاً من لا جدواها أشكالاً.

كان توم يقول لغاتسبي "لقد سمعتُ عن تحويل إسطبل إلى مرآب، ولكني أول رجل يُحول مرآب إلى إسطبل"

سألت ديزي بإلحاح "مَنْ سيذهب إلى المدينة؟". تحوّلتْ عينا غاتسبي نحوها. هتفت "آه، يبدو أنك تشعر بالبرودة"

تقابلت عيونهما، وتبادلا التحديق، وكأنهما وحدهما في المكان. بذلت جهداً لإنزال بصرها إلى المائدة.

كرّرت "أنتَ دائماً تبدو أنك تشعر بالبرودة"

كانت قد أخبرته أنها تحبه، وقد رأى توم بيوكانن ذلك. وذُهِلَ. فغرَ فاه قليلاً، ونظر إلى غاتسبي، ومن ثم عاد فنظر إلى ديزي وكأنه لاحظ تواً أنها شخص عرفه قبل زمنٍ بعيد.

تابعت ببراءة "أنتَ تشبه إعلان الرجل. أنت تعرف إعلان الرجل"

قاطعها توم بسرعة "حسن، أنا على أتمّ استعداد للذهاب إلى المدينة. هيا بنا – سنذهب جميعاً إلى المدينة"

نهضَ واقفاً، وعيناه لا تزالان تنتقلان بسرعة بين غاتسبي وزوجته. لم يتحرك أحد.

"هيا بنا!" وتوتر مزاجه قليلاً. "ما الأمر، الآن؟ إذا كنا سنذهب إلى المدينة، فلنذهب الآن"

رفعتْ يده، وهي ترتعش من جهد ضبط النفس، ما تبقّى في الكأس من جعة إلى شفتيه. جعلنا صوت ديزي ننهض على أقدامنا ونخرج إلى الممشى المُحصّى الملتهب بالحرارة.

اعترضت "هل سنذهب هكذا؟ هكذا؟ ألن نسمح لأحد بتدخين سيجارة أولاً؟"

"الجميع دخّنوا طوال فترة الغداء"

ناشدته "أوه، فلنمرح. إنَّ الجو شديد الحرارة ولا يصلح للجدال"

لم يُجِب.

قالت "كما تشاء. هيا، يا جوردان"

صعدتا إلى الطابق العلوي لتستعدا بينما وقفنا نحن الثلاثة هناك نرفس الحصى الساخنة بأقدامنا. كان منحنى القمر الفضي يحوم في الجهة الغربية من السماء. همَّ غاتسبي بالكلام، لكنّه غيَّرَ رأيه، ولكن ليس قبل أنْ يستدير توم ويواجهه بشكلٍ متوقَّع.

سألَه غاتسبي بصعوبة "هل أقمتَ إسطبلاتك هنا؟"

"على بُعد ربع ميل من الطريق"

"أوه"

صمتٌ.

كَسَرَه توم بوحشية "لا أرى معنى في الذهاب إلى المدينة. إنَّ النساء تراودهن أفكار غريبة -"

هتفتْ ديزي من نافذة عليا "هل نأخذ معنا شيئاً لنشربه؟"

أجاب توم "سأحضر بعض الويسكي". وولج إلى الداخل.

التفتَ غاتسبي إليّ بصرامة :

"لا أستطيع أنْ أقول شيئاً في هذا المنزل، يا صاحبي"

علّقتُ "إنَّ لها صوتاً طائشاً؛ مملوءاً بـ -" تردَّدتُ.

قال فجأةً "إنَّ صوتها مملوء بالمال"

كان ذلك صحيحاً. لم أُدركه من قبل. لقد كان مملوءاً بالمال - ذلك هو السحر الذي لا ينضب الذي كان يظهر ويختفي فيه، ويُصدِر خشخشة، كرنين الصنج... بنت الملك في أعلى القصر الأبيض، الفتاة الذهبية...

خرجَ توم من المنزل حاملاً زجاجة تسع ربع غالون ملفوفة بمنشفة، تتبعه ديزي وجوردان تعتمران قبعتين ضيّقتين من القماش ذي لونٍ معدني وحاملتان معطفين خفيفَين على أذرعهما.

اقترحَ غاتسبي "ما رأيكم في أنْ نركب جميعاً في سيارتي؟"، وأخذ يتحسَّس الجلد الأخضر اللون للمقعد، "كان ينبغي أنْ أُبقيها في الظل"

سأل توم "هل سرعتها عادية؟"

"نعم"

"حسن، خُذ أنتَ سيارتي الكوبيه ودعني أقود سيارتك إلى المدينة"

لم يُعجب الاقتراح غاتسبي.

اعترضَ "لا أعتقد أنَّ فيها ما يكفي من الوقود"

قال توم بصخب "بل فيها الكثير". ونظر إلى السِعة. "وإذا نفد يمكنني أنْ أتوقف عند أحد المحال التجارية. يمكن شِراء أي شيء من المحل التجاري هذه الأيام"

تبعَ ذلك التعليق الذي من الواضح أنَّ لا معنى له برهة صمت. نظرت ديزي إلى توم عابسة، وعبَر صفحة وجه غاتسبي تعبير عصيّ على الوصف، فهو في وقتٍ واحد غير مألوف حتماً وملحوظ بشكل غامض، وكأني فقط سمعتُ وصفاً له بالكلمات.

قال توم، وهو يدفعها بيده إلى داخل سيارة غاتسبي "هيا بنا، يا ديزي. سأقلّكِ بعربة السيرك هذه"

فتحَ الباب، لكنها ابتعدتْ عن دائرة ذراعه.

"خُذ أنتَ نيك وجوردان. وسنتبعكم في سيارة الكوبيه"

واقتربت من غاتسبي، وهي تلمس معطفه بيدها. جلسنا جوردان وتوم وأنا في المقعد الأمامي لسيارة غاتسبي، وضغط توم على ناقل الحركة غير المألوف بتردُّد، وانطلقنا في الحرّ الثقيل، وتركناهما خلفنا بعيداً عن الأنظار.

سأل توم "أرأيتُما ذلك؟"

"رأينا ماذا؟"

رماني بنظرة حادّة، مُدرِكاً أنّنا أنا وجوردان لابد نعلم كل شيء.

اقترحَ "أتعتقدان أني أحمق إلى هذه الدرجة. لعلّي كذلك، ولكن لديّ – بصراً حاداً أحياناً، بحيث يُنبئني بما يجب أنْ أفعل. قد لا تصدقان ذلك، لكنَّ العِلم –"

سكتَ. الحادث الطارئ شغلَ باله، وأبعده عن حافة الهوة النظرية.

تابع "لقد أجريتُ بحثاً صغيراً عن هذا الرجل. كان يمكن أنْ أتعمَّق في ذلك لو أني عرفتُ –"

سألتْ جوردان بفكاهة "أتعني أنكَ لجأتَ إلى وسيط روحي؟"

قال "ماذا؟" باضطراب، وحدَّق إلينا ونحن نضحك. "وسيط روحي؟"

"بشأن غاتسبي"

"بشأن غاتسبي! كلا، لم أفعل. لقد قلت إني كنتُ أقوم ببحث صغير عن ماضيه"

قالت جوردان تساعده "ووجدتَ أنه متخرج من أوكسفورد"

قال غير مُصدِّق "خريج أوكسفورد! مستحيل! إنه يرتدي بذلة وردية

ومع ذلك هو خريج أوكسفورد"

نخرَ توم باحتقار "أوكسفورد، نيو مكسيكو أو شيء ما كهذا"

سألته جوردان بنزَق "اسمع، يا توم. ما دمتَ متغطرساً إلى هذه الدرجة، لِمَ لا تدعوه إلى مائدة الغداء؟"

"ديزي دعته؛ كانت تعرفه قبل أنْ نتزوج - يعلمُ الله أين!"

عندئذٍ أصبحنا جميعاً متوتري الأعصاب بعد زوال تأثير الجعة، أدركنا ذلك فلزمنا الصمت بعض الوقت. ثم عندما لاحت عينا الدكتور ت.جـ إكلبرغ الباهتتان من آخر الطريق، تذكّرتُ تحذير غاتسبي بشأن الوقود.

قال توم "لدينا ما يكفي ليوصِلنا إلى المدينة"

اعترضت جوردان "ولكن هناك مرآب هنا. لا أريد أنْ أتوقّف في هذا الحرّ الحارق"

ضغط توم على كلا المكبحين بصبرٍ نافد، وانزلقنا إلى توقفٍ سريع أثار الغبار تحت لافتة محل ويلسون. وبعد برهة ظهر صاحب المحل من داخل مؤسسته وحدَّقَ بعينين خاويتين إلى السيارة.

صرخ توم بخشونة "أعطتنا بعض الوقود! لماذا تعتقد أننا توقفنا - لنستمتع بالمنظر الطبيعي؟"

قال ويلسون دون أنْ يتحرك "أنا مريض. طوال النهار وأنا مريض"

"ما الأمر؟"

"إنني منهار تماماً"

سأل توم "حسن، هل أخدم نفسي بنفسي؟ بدوتَ على ما يرام عبر الهاتف"

بعد بذل جهد ترك ويلسون الظل ودعم الباب، متنفّساً بصعوبة، وحلَّ غطاء الصهريج. تحت أشعة الشمس كان لون وجهه أخضر.

قال "لا أريد أنْ أُقاطع غداءكم، ولكن أنا بحاجة ماسّة إلى المال، وكنتُ أتساءلُ ماذا ستفعل بسيارتك القديمة"

سأله توم "ما رأيكَ في هذه؟ لقد اشتريتُها في الأسبوع الفائت"

قال ويلسون، وهو يشدّ على المقبض، "إنها سيارة صفراء جميلة"

"أتحبّ أنْ تشتريها؟"

رسم ويلسون ابتسامة باهتة "إنها فرصة كبيرة. كلا، ولكن أستطيع أنْ أجمع مبلغاً لشراء الأخرى"

"ما الذي يجعلك فجأةً تحتاج إلى النقود؟"

"لقد مكثتُ في هذا المكان أطول مما ينبغي. أريد أنْ أرحل. زوجتي وأنا نريد أنْ نتجه غرباً"

هتف توم، مُجفلاً، "وزوجتك تريد هذا"

"منذ عشر سنوات وهي تتحدث في هذا الأمر". ارتاحَ قليلاً متّكئاً برهة على المضخة، ومُظللاً عينيه. "والآن ستذهب شاءتْ أم أبتْ. سوف أبعدها عن المكان"

مرَّت بهم سيارة الكوبيه مسرعة وخلَّفَتْ وراءها عاصفة من الغبار وومض ليدٍ تلوِّح.

سأل توم بخشونة "كم تريد؟"

علَّقَ ويلسون "لقد اطّلعتُ على شيء غريب خلال اليومين الأخيرَين. ولهذا أريد أنْ أرحل. ولهذا كنتُ أزعجكَ بشأن السيارة"

"كم تريد؟"

"دولاراً وعشرين سنتاً"

كانت الحرارة اللاسعة بلا رحمة قد بدأتْ تشوّشني ومررتُ بلحظة عصيبة هناك قبل أنْ أدرك أنه حتى ذلك الحين لم تكن شكوكه قد استقرّت بعد على توم. لقد اكتشفَ أنَّ مرتل تعيشُ حياةً مستقلة بعيداً عنه في عالمٍ آخر، والصدمة سبَّبت له المرض الجسدي. حدَّقتُ إليه ومن ثم إلى توم، الذي كان قد وقعَ على اكتشافٍ موازٍ قبل ذلك بساعة – وتبدَّى لي أنه ليس هناك اختلاف، في الذكاء أو العِرق، أعمق من الفرق بين رجلٍ مريض وآخر صحيح. لقد كان ويلسون من شِدة المرض بحيث بدا مُذنباً، بذنبٍ لا يُغتَفَر – وكأنه تسبَّبَ في جعل فتاة مسكينة تحبل منه.

قال توم "سأدعكَ تحصل على تلك السيارة. سأرسلها إليك بعد ظهيرة يوم غد"

لطالما كان ذلك الموقع يُسبب القلق الغامض، حتى في وضح الظهيرة، والآن أدرتُ رأسي وكأنّي تلقّيتُ تحذيراً من شيءٍ ما خلفي. وفوق ركام الرماد حافظتْ عينا الدكتور ت.جـ إكلبرغ العملاقتان على يقظتهما، لكنني أدركتُ، بعد برهة، أنَّ عيوناً أخرى تنظر إلينا بتركيزْ شديد من مسافةٍ لا تزيد عن عشرين قدماً.

في إحدى النوافذ فوق المرآب أُزيحتْ الستائر قليلاً جانباً، وكانت مرتل ويلسون تحدّق نحو الأسفل إلى السيارة. كانت شديدة الاستغراق في التفكير حتى أنها لم تعِ أنَّ هناك مَن يُراقبها، وتسلل إلى وجهها انفعالٌ

بعد آخر كقَسَمات في صورة تُحمَّض ببطء. كانت تعبير وجهها مألوفاً بصورة غريبة - تعبير كثيراً ما شاهدته على وجه النساء، لكنَّ وجه مرتل ويلسون بدا بلا هدف ولا تفسير له إلى أنْ أدركتُ أنَّ عينيها، الواسعتين من رعب الغيرة، كانتا مثبّتتين ليس على توم، بل على جوردان بيكر، التي ظنَّتْ أنها زوجته.

لا اضطراب يعادل الاضطراب الذي يُصيب عقلاً بسيطاً، وفي أثناء تقدّمنا على الطريق كان توم يستشعر سياط الخوف الحارة. كانت زوجته وعشيقته، اللتان كانتا حتى قبل ساعةٍ مضتْ آمنتين ولا تمتد إليها الأيدي، تفلتان بسرعة من سيطرته. ودفعته غريزته إلى الضغط على مُفعّل السرعة لهدفٍ مزدوَج هو السيطرة على ديزي وترك ويلسون خلفه، وانطلقنا نحو أستوريا بسرعة خمسين ميلاً في الساعة إلى أنْ لاحَت لنا، بين العوارض المتشابكة للجسر المُعلّق، سيارة الكوبيه الزرقاء بانسيابها السلِس.

اقترحت جوردان "إنَّ تلك الأفلام السينمائية المعروضة في شارع خمسين جيدة. أنا أحب مدينة نيويورك بعد الظهر أيام الصيف حيث الجميع قد خرجوا منها. إنَّ فيها شيئاً يتسم بحسّية شديدة - مُبالغ في نضجه، وكأنَّ شتى أنواع الفاكهة الغريبة توشك أنْ تسقط بين يديك"

كلمة "حسّي" كان لها تأثير فاقمَ من اضطراب توم، ولكن قبل أنْ يتمكن من اختراع اعتراض توقفت سيارة الكوبيه، وأشارت لنا ديزي كي نقترب إلى جوارهم.

هتفت "إلى أين نحن ذاهبون؟"

"ما رأيك في ارتياد السينما؟"

تذمّرتْ "الطقس شديد الحرارة. اذهبوا أنتم. نحن سنتجول بالسيارة ونقابلكم لاحقاً". وبعد بذل مزيد من الجهد ازداد ظرفها قليلاً.

"سنقابلكم عند أحد المنعطفات. سأكون الرجل الذي يُدخّن سيجارتين"

قال توم بنزق، عندما أطلقَت شاحنة نفيراً مزعجاً خلفهم، "لا يمكننا أنْ نتجادل حول هذا هنا. اتبعاني إلى الناحية الجنوبية من سنترال بارك، أمام البلاتزا"

التفتَ مرات عِدّة لينظر خلفه بحثاً عن سيارتهما، وكأنَّ حركة المرور تؤخّرهما وأخذ يُبطئ إلى أنْ أصبحا على مرمى النظر. أعتقد أنه كان يخشى أنْ ينطلقا في شارع فرعي ويخرجان من حياته إلى الأبد.

لكنهما لم يفعلا. واتّخذنا جميعاً الخطوة الأقلّ وضوحاً باستئجارنا نقول جناحاً واسعاً في فندق بلاتزا.

إنَّ الجدال المُطوَّل والصاخب الذي انتهى بجمعنا داخل تلك الغرفة يغيب عن ذاكرتي، على الرغم من تمتّعي بذاكرة جسدية حادّة بحيث أنَّ ملابسي الداخلية، في سياق ذلك الحدث، كانت تتسلق وتلتفّ حول ساقَيّ كأفعى رطبة وتسارعت حبّات العرق المتقطّعة باردةً على ظهري. وقد نشأت الفِكرة من اقتراح ديزي بأنْ نستأجر خمس غرف استحمام ونأخذ حماماً بارداً، ومن ثم اتّخذت شكلاً ملموساً أكثر كـ "مكان نتناول فيه شراب النعناع". وأخذ كلٌّ منا يُردِّد مراراً وتكراراً أنها "فكرة جنونية"- وتكلّمنا كلنا دفعةً واحدة مع موظف مرتبك واعتقدنا، أو تظاهرنا بالاعتقاد، بأننا مُضحكين...

كانت الغرفة كبيرة وفاسدة الهواء، وعلى الرغم من أنَّ الساعة كانت قد بلغت الرابعة، لم تسمح النوافذ المفتوحة إلا بدخول دفق حارّ من رائحة شجيرات آتٍ من الحديقة العامة. وذهبت ديزي إلى المرآة ووقفتْ أمامها تعطينا ظهرها، وراحت ترتب شعرها.

همست جوردان باحترام "يا له من جناح فخم"، فضحك الجميع.

أمرتْ ديزي، دون أنْ تلتفتْ، "افتحوا نافذة أخرى"

"ليس هناك المزيد"

"حسن، يجب أنْ نتصل هاتفياً من أجل"

قال توم بنزق "ما يجب أنْ تفعليه هو أنْ تنسي أمر الحرارة؛ إنكِ تُضاعفين من سوء الوضع بالهراء الذي تقولينه"

أخرجَ زجاجة الويسكي من المنشفة ووضعها على الطاولة.

علّقَ غاتسبي "لِمَ لا تدعها وشأنها، يا صاحبي؟ أنتَ الذي أردتَ أنْ نأتي إلى المدينة"

سادت فترة من الصمت. انزلقَ دليل الهاتف عن مسماره وانطرحَ على الأرض، وعلى الأثر همستْ جوردان "عفواً" - ولكن هذه المرة لم يكن الأمر مُضحكاً.

تبرّعتُ قائلاً "أنا سألتقطه"

"أنا رفعته". تفحّصَ غاتسبي الخيط المحلول، وغمغمَ "همم!" بنبرة اهتمام، وأطاح بالدليل على الكرسي.

قال توم بحِدّة" إنّه تعبير عظيم لك، أليس كذلك؟"

"ما هو؟"

"قولك "يا صاحبي" وما إلى ذلك. من أين انتقيته؟"

قالت ديزي، وهي تستدير عن المرآة، "والآن انظر هنا، يا توم، إذا كنتَ تنوي أنْ تدلي بتعليقات شخصية لن أبقى هنا لحظة واحدة. اتصل بهم واطلب بعض الثلج من أجل مشروب النعناع"

بينما توم يرفع السماعة انفجر الحرّ المضغوط فأضحى هديراً ووجدنا أنفسنا نصغي إلى لحن مندلسون الهائل "مارش الزفاف" صادراً من صالة رقص في الأسفل.

هتفت جوردان بكآبة "تصور الزواج في مثل هذا الحرّ!"

تذكرت ديزي فقالت "ومع ذلك - أنا تزوجت في وسط شهر حزيران. لويزفيل في حزيران! وأغمي على أحد الأشخاص. مَنْ الذي أُغمي عليه، يا توم؟"

أجاب توم باقتضاب "بيلوكسي"

"رجل اسمه بيلوكسي. "بلوكس" بيلوكسي، وكان يصنع صناديق - هذه حقيقة - وينحدر من بيلوكسي، في ولاية تنيسي"

أضافت جوردان "وحملوه إلى داخل المنزل، لأننا كنا نعيش في مكان مُجاور للكنيسة. ومكثَ ثلاثة أسابيع، إلى أنْ أمره والدي بالمغادرة. وفي اليوم الذي تلى مغادرته توفي والدي". وبعد برهة أضافت "لم يكن هناك أي رابط بين الأمرين"

علّقتُ "كنتُ أعرف شخصاً اسمه بيل بيلوكسي من ممفيس"

"ذاك كان ابن عمه. عرفتُ منه تاريخ عائلته قبل أنْ يُغادر. وقد أعطاني مضرب غولف من الألومينيوم لا أزال أستعمله حتى هذا اليوم"

كانت الموسيقى قد سكتت مع بداية المراسم ثم سُمِعَ تهليلٌ طويل تهادى عبر النافذة، تبعته صرخات متقطّعة من "يا - ا - ا!" وأخيراً انفجر صوت موسيقى الجاز مع بداية الرقص.

قالت ديزي "إننا نصبح عجائز. لو أننا شبان لنهضنا ورقصنا"

حذَّرَتْها جوردان "تذكّري بيلوكسي. أين تعرَّفتَ عليه، يا توم؟"

"بيلوكسي؟". بذل جهداً في التركيز. "أنا لم أعرفه. لقد كان صديقاً لديزي"

أنكرتُ "بل لم يكن كذلك. لم أكن قد رأيته قبل ذلك. لقد جاء في سيارة خاصة"

"حسن، لقد قال إنه يعرفكِ. قال إنه نشأ في لويزفيل. أحضرته أسا بيرد معها في اللحظة الأخيرة وسألتْ إنْ كان لدينا مُتسع له"

ابتسمت جوردان.

"لعله كان يُحاول أنْ يصل إلى منزله بالتطفُّل على السيارات. لقد أخبرني أنه كان رئيس صفّك في جامعة ييل"

تبادلتُ مع توم النظرات الخالية من المعنى.

"بيلوكسي؟"

"أولاً، لم يكن لدينا أي رئيس"

أخذتْ قدم غاتسبي توقِّع ضربات قصيرة، قلقة، وفجأةً نظر توم إليه.

"بالمناسبة، يا سيد غاتسبي، لقد سمعت أنكَ خريج جامعة أوكسفورد"

"ليس بالضبط"

"أوه، نعم، لقد عرفت أنكَ التحقتَ بأوكسفورد"

"نعم – التحقتُ بها"

صمت. ثم قال صوت توم، غير مُصدّق وبنبرة مُهينة:

"لابد أنكَ التحقتَ بها في وقت التحاق بيلوكس بنيو هيفن"

وصمتٌ آخر. قرعَ نادل الباب ودخل مع نعناع مسحوق وثلج لكنَّ

الصمتَ لم ينكسر بقوله "شكراً لك" وإغلاق الباب بنعومة. هذا التفصيل الهائل كان يجب توضيحه في نهاية المطاف.

قال غاتسبي "قلت لك إني التحقت بها"

"لقد سمعتك، ولكن أودّ أنْ أعرف متى"

"حدث ذلك في عام ١٩١٩. لم أمكث أكثر من خمسة أشهر. لهذا لا أستطيع أنْ أسمي نفسي خرّيج أوكسفورد"

تلفَّتَ توم حوله ليرى إنْ كانت وجوهنا تعكس عدم تصديقه. لكننا جميعاً كنا ننظر إلى غاتسبي.

تابعَ "كانت فُرصة أُتيحتْ لبعض الضباط بعد إعلان وقف إطلاق النار. كان في استطاعتنا أنْ نلتحق بأي جامعة في إنكلترا أو فرنسا"

وددتُ لو أنهض وأطبطبُ على ظهره. لقد انتابتني إحدى حالات استعادة إيماني الكامل به التي كنتُ قد عرفتها من قبل.

نهضَتْ ديزي، وهي ترسم ابتسامةً صغيرة، وذهبت إلى الطاولة.

أمرته "افتح زجاجة الويسكي، يا توم، وأنا سأُعدّ لك شراب النعناع. بعد ذلك لن تبدو لنفسك شديد الحمق... انظر إلى النعناع!"

قال بحِدّة لاذعة "على مهلك. أريدُ أنْ أسأل السيد غاتسبي سؤالاً أخيراً"

قال غاتسبي بأدب "هيا اسأل"

"أي نوع من الشجار تُحاول أنْ تُثير في بيتي في كل الأحوال؟"

أخيراً أصبحت المواجهة على المكشوف وسُرّ غاتسبي لذلك.

نقَّلَتْ ديزي نظرها بيأس من أحدهما إلى الآخر وقالت "إنه لا يُسبب

أي شجار. أنتَ الذي يُسبب شجاراً. مارس شيئاً من ضبط النفس، من فضلك"

كرَّر توم غير مُصدِّق "ضبط النفس! أعتقد أنَّ آخر ما يمكن أنْ أفعله هو أنْ أسترخي وأدع السيد نكِرة القادم من المجهول أنْ يُضاجع زوجتي. حسن، إذا كان هذا هو واقع الأمر فيمكنك الاعتماد عليّ... في هذه الأيام أصبح الناس يسخرون من الحياة العائلية والمؤسسات العائلية، وبعد ذلك سوف يقلبون المفاهيم كلها ويُبيحون الزواج المُختلَط بين السود والبيض"

وجدَ نفسه، وقد تورَّدَ بفعل ثرثرته الحماسية، واقفاً وحده على آخر حدود الحضارة.

غمغمت جوردان "كلنا من البيض هنا"

"أنا أعلم أني لستُ محبوباً كثيراً. ولا أقيم حفلات كبيرة. أعتقد أنَّ على المرء أنْ يجعل من بيته زريبة خنازير لكي يحصل على أي صديق – في العالم الحديث"

انتابتني رغبة، وقد تولاني الغضب، كما تولى الجميع، بالضحك كلما فتح فمه ليتكلَّم. لقد كان انتقاله من كونه خليعاً إلى كونه متزمتاً انتقالاً كاملاً.

باشر غاتسبي بالقول "لديّ ما أقوله لك، يا صاحبي"، لكنَّ ديزي خمَّنت ما ينوي قوله.

قاطعته بنبرة يأس "أرجوك لا تفعل! أرجوكم فليعُد كلٌ إلى بيته. لِمَ لا نعود جميعاً إلى بيوتنا؟"

قلتُ "فكرة جيدة"، ونهضتُ. "هيا بنا، يا توم. لا أحد يريد أنْ يشرب شيئاً"

"أريد أنْ أعرف ماذا لدى السيد غاتسبي يُخبرني به"

قال غاتسبي "إنَّ زوجتك لا تحبك. ولم تحبك يوماً. إنها تحبني"

هتفَ توم بشكلٍ آليّ "لابد أنكَ مجنون!"

قفز غاتسبي واقفاً على قدميه، وقد أحياه الحماس.

صرخ "هي لم تحبك أبداً، أتسمع؟ لقد قبلتْ الزواج منكَ فقط لأني كنتُ فقيراً وملّتْ انتظاري. لقد كانت غلطة فظيعة، ولكن في أعماق قلبها هي لم تحب أبداً أحداً غيري!"

هنا حاولتُ مع جوردان أنْ نغادر، لكنَّ توم وغاتسبي أصرّا بتنافسٍ على الإصرار على بقائنا – وكأنَّ ليس لدى أيٍّ منهما ما يُخفيه وأنَّ من الامتياز مشاطرتهما انفعالاتهما بالنيابة.

انتقل صوت توم بمحاولة فاشلة إلى النبرة الأبوية "اجلسي، يا ديزي. ما الذي كان يجري؟ أريد أنْ أسمع كل شيء"

قال غاتسبي "لقد أخبرتك بما كان يجري، يجري منذ خمس سنوات – وأنتَ لا تعلم"

التفتَ توم إلى ديزي بحِدّة.

"كنتِ تقابلين هذا الرجل طوال خمس سنوات؟"

قال غاتسبي "لم تُقابلني. كلا، لم نتمكن من اللقاء. ولكن بقيَ كلٌّ منا يحب الآخر طوال تلك المدة، يا صاحبي، وأنتَ لا تعلم. أحياناً كنتُ أضحك –" ولكن لم يكن في عينيه ضحك" وأنا أفكر كيف أنكَ لا تعلم"

"أوه – هذا كل شيء". وقَّعَ توم بأصابعه الثخينة معاً كرجل دين واستند على كرسيه.

انفجر قائلاً "أنت مجنون! لا يمكنني أنْ أتحدث عن أمرٍ وقع قبل خمس سنوات، لأنني لم أكن قد عرفت ديزي حينئذٍ - ولعنني الله إنْ كنتُ أفهم كيف اقتربتَ منها إلا إذا كنتَ الشخص الذي يجلب البقالة من الباب الخلفي. ولكن كل ما عدا ذلك هو كذبٌ لعين. إنَّ ديزي كانت تحبني عندما تزوجتني ولا تزال تحبني الآن"

قال غاتسبي، وهو يهزّ رأسه نفياً "كلا"

"ومع ذلك، هي كذلك. المشكلة هي أنَّ أفكاراً حمقاء تراودها أحياناً وهي تعرف ماذا تفعل"، وهزَّ رأسه بحِكمة. "وزيادة على ذلك، أنا أيضاً أحب ديزي. ومرةً كل حين تنتابني فورة وأتصرَّف بحماقة، ولكني دائماً أعود إلى رشدي، وفي قلبي أنا أحبها طوال الوقت "

قالت ديزي "أنتَ مُثير للاشمئزاز". والتفتت نحوي، وملأ صوتها، الذي هبطت نبرته، الغرفة بلهجة ازدراء مرتعشة : "أتعلم لماذا غادرنا شيكاغو؟ إنني مندهشة كيف لم يتفضّلوا عليك بحكاية ذلك الإجراء الصغير المُفاجئ"

مشى غاتسبي ووقفَ بجانبها.

قال برصانة "ديزي، إنَّ ذلك انتهى الآن. فقط أخبريه الحقيقة - أنكِ لم تُحبيه أبداً - وكل شيء سوف ينتهي إلى الأبد"

نظرتْ إليه كأنها لا تراه. "لماذا - كيف كان يمكن أنْ أحبه؟"

"أنتِ لم تُحبيه قط"

تردَّدتْ. ألقَتْ على جوردان وعليّ نظرة مُناشدة، وكأنها أدركتْ أخيراً ما الذي كانت تفعله - وكأنها أيضاً لم تكن تنوي، طوال الوقت، أنْ تفعل أيَّ شيء مهما كان. لكنَّ الأمر انتهى الآن. وفات الأوان.

قالت، على مضض بيِّن "أنا لم أحبه قط"

سألها توم "ولا في كابيولاني؟"

"لا"

من صالة الرقص في الأسفل، تناهت إلينا أنغامٌ مكتومة ومخنوقة محمولة على أمواج الهواء الحارّ.

"ولا في ذلك اليوم الذي حملتُكِ فيه إلى أسفل بنش باول لكي يبقى حذاؤكِ جافاً؟". كان في صوته نبرة حنان مبحوح... "يا ديزي؟"

"كفى أرجوكَ". كان صوتها بارداً، لكنَّ الضغينة كانت قد زالتْ عنه. ونظرتْ إلى غاتسبي. قالت "ها قد فعلت، يا جاي"" لكنَّ يدها وهي تحاولُ أنْ تُشعِل سيجارة كانت ترتعش. وفجأةً رمت السيجارة وعود الثقاب الملتهب إلى السجادة.

وصرخت في وجه غاتسبي "أوه، أنتَ تطلب الكثير!أنا أحبك الآن - أليس هذا كافٍ؟ لا حيلة لي مع ما مضى". وبدأتْ تنشج بيأس. "لقد أحببتُه مرة - لكني أحبك أنتَ أيضاً"

فتح غاتسبي عينيه وأغمضهما.

كرَّر "أحببتني أيضاً؟"

قال توم بهمجية "حتى هذا كذب. إنها لم تكن تعلم أنكَ على قيد الحياة. في الواقع - هناك بيني وبين ديزي أشياء لن تعرفها أبداً، أشياء لا يمكن لأي منا أنْ ينساها"

بدا أنَّ الكلمات تؤلِم غاتسبي جسدياً.

أصرَّ "أريد أنْ أتحدث مع ديزي على حِدة. إنها متوترة الآن..."

اعترفَتْ بصوت يدعو إلى الرثاء "حتى ونحن وحدنا لا أستطيع أنْ

أقول إني لم أحب توم قط. لن يكون كلامي صحيحاً"

وافقها توم "طبعاً لن يكون كذلك"

التفتتْ إلى زوجها.

قالتْ "وكأنَّ هذا يهمّك"

"طبعاً يهمني. سوف أُعاملك بشكلٍ أفضل من الآن فصاعداً"

قال غاتسبي، مع لمسة رعب "أنتَ لا تفهم. أنتَ لن تعتني بها بعد الآن"

"لن أفعل؟". فتحَ توم عينيه واسعاً وضحك. أصبحَ في وسعه عندئذٍ أنْ يتحكّم في نفسه. "وكيف ذلك؟"

"ديزي ستتركك"

"هراء"

قالت بجهدٍ ملحوظ "مع ذلك، سأتركك"

"لن تتركني!" انصبَّتْ كلمات توم على غاتسبي. "حتماً ليس من أجل مُحتال مبتذل كان سيُضطر إلى سرقة الخاتم الذي يضعه في إصبعها"

صرخت ديزي "لن أتحمّل هذا! أوه، أرجوكم دعونا نخرج"

انفجر توم قائلاً "مَنْ أنتَ، في كل الأحوال؟ أنت أحد تلك الثلّة التي تتسكّع مع ماير وولفشيم – هذا ما عرفته. لقد قمت بقليل من البحث في شؤونك الخاصة – وسوف أستمر فيه غداً"

قال غاتسبي بثبات "افعل ما تشاء، يا صاحبي"

"لقد اكتشفتُ ماذا كانت "محلاتك التجارية"، التفتَ إليّنا وتكلّم

بسرعة". لقد اشترى هو وصاحبه وولفشيم الكثير من المحال التجارية الواقعة في الشوارع الجانبية هنا وفي شيكاغو وتاجرا بالكحول سراً. وهذه إحدى مآثره الصغيرة. ومنذ أنْ رأيته للمرة الأولى قلتُ إنه مُهرّب كحول، ولم أكن مُخطئاً"

قال غاتسبي بأدب "وماذا في هذا؟ أعتقد أنَّ صديقك والتر تشيس لم يشعر بغضاضة في الدخول في هذا المجال"

"وأنتَ تركته غائصاً في الورطة، أليس كذلك؟ تركته يدخل السجن مدة شهر في نيو جرسي. يا إلهي! يجب أن تسمع والتر وهو يتكلّم في هذا الموضوع عنك"

"لقد جاءنا وهو مفلس. كان سعيداً جداً بالحصول على بعض المال، يا صاحبي"

صرخَ توم "كُفَّ عن مُخاطبتي بـ "صاحبي"!". لم يقُل غاتسبي شيئاً. "وكان يمكن لوالتر أنْ يورّطكَ فيما يخص قوانين المراهنات أيضاً، لكنَّ وولفشيم أخافه وجعله يُغلق فمه"

عادت من جديد تلك النظرة الغريبة ولكن الملحوظة إلى وجه غاتسبي.

تابعَ توم ببطء "كان مجال التجارة ذاك مجرد عمل بسيط، أما الآن فلديك شيء يخشى والتر أنْ يُخبرني به"

نظرتُ إلى ديزي التي كانت تُحدِّقُ برعب على التوالي إلى غاتسبي وإلى زوجها، وإلى جوردان، التي كانت قد بدأتْ توازن غرضاً غير مرئي ولكنه ممتع جداً على ذؤابة ذقنها. ثم التفتُّ من جديد نحو غاتسبي - وأجفلتُ لمرأى تعبير وجهه. فقد بدا - أقول هذا بكل الامتعاض للهذر الحقير الذي دار في حديقة منزله - كأنه "قتل شخصاً". بدا للوهلة الأولى أنَّ تعبير وجهه يمكن وصفه فقط بهذه الطريقة الغريبة.

زال التعبير، وبدأ يتحدث بحماس مع ديزي، مُنكِراً كل شيء، ومُدافعاً عن اسمه ضد اتّهامات لم تُوجَّه إليه. ولكن مع كل كلمة كانت تنسحب أكثر فأكثر داخل ذاتها، لذا تخلّى عن الأمر، ولم يبقَ غير الحلم الميت الذي يتابع الكفاح مع انصرام فترة بعد الظهيرة، في محاولةٍ للمس ما لم يعُد ملموساً، يُكافحُ بتعاسة، بلا يأس، نحو ذلك الصوت الضائع عبر الغرفة.

مرةً أخرى ناشدَ الصوت طالباً السماح بالمغادرة.

"أرجوك، يا توم! لم يعُد في استطاعتي تحمُّل هذا"

كشفَتْ عيناها المذعورتين عن أنه مهما كانت نواياها، ومهما بلغت شجاعتها، فإنها قد انتهت حتماً.

قال توم "أنتما الاثنان انطلقا إلى المنزل في سيارة السيد غاتسبي"

نظرتْ إلى توم، وقد انتابها الفزع الآن، لكنه أصرّ بسخرية سمحة.

"هيا. لن يزعجكما. أعتقد أنه يُدرك أنَّ غزله الصغير الوقح قد انتهى"

وذهبا، دون أنْ يتفوها بأي كلمة، انطلقا فجأةً، كحادث عَرَضيّ، معزولين، كشبحَين، حتى عن شفقتنا.

بعد برهة نهضَ توم وبدأ يغلِّف زجاجة الويسكي التي لم تُفتَح بالمنشفة.

"أتريدين شيئاً من هذا؟ جوردان؟... نيك؟"

لم أُجِب.

سأل من جديد "نيك؟"

"ماذا؟"

"أتريد منها؟"

"كلا... لقد تذكّرتُ تواً أنَّ اليوم هو يوم عيد ميلادي"

كنتُ قد بلغت الثلاثين. أمامي تمتد طريق عقد جديد مُهدِّدة، مُثقلة بالاحتمالات.

عندما استقللنا سيارة الكوبيه معه وانطلقنا إلى لونغ أيلد كانت الساعة قد بلغت السابعة. لم يكفّ توم عن الكلام، منتشياً ويضحك، لكنَّ صوته كان نائياً عن جوردان وعني كالصخب الأجنبي على الرصيف أو الهدير الصادر عن سكة القطار المرفوعة فوقنا. إنَّ للتعاطف الإنساني حدوداً، وقد ارتحنا لتركنا كل جدالهم المأساوي يتلاشى مع تلاشي أضواء المدينة خلفنا. ثلاثون - إنه وعدٌ بعقدٍ من الوحدة، ولائحة تتضاءلُ من رجالٍ عُزّاب لأتعرَّفَ عليهم، ومخزون يتضاءل من الحماسة، وشعرٌ يتضاءلُ. ولكن إلى جواري كانت جوردان التي، خِلافاً لديزي، أشدّ حِكمة من أنْ تحمل معها أحلاماً نُسيَتْ تماماً من عمرٍ إلى عمر. ومع مرورنا فوق الجسر المُظلِم وقعَ ظلُ وجهها الشاحب بتكاسُل على كتف معطفي وتلاشت صدمة عمر الثلاثين القوية مع ضغط يدها المُطمئن.

وهكذا انطلقنا نحو الموت نشقُ الغسق المنعش.

اليوناني الشاب، ميخائيليس، الذي يُدير المقهى الكائن بجوار ركام الرماد كان الشاهد الرئيسي في التحقيق. كان قد استغرقَ في النوم في الجو الحار حتى ما بعد الساعة الخامسة، حين تمشّى حتى المرأب، وجد جورج ويلسون مريضاً في غرفة مكتبه - مريضاً جداً، شاحب الوجه بلون شعره الشائب ويرتعش من رأسه إلى أخمصه. فنصحه ميخائيليس للإيواء إلى السرير، لكنَّ ويلسون رفضَ ذلك قائلاً إنَّه سيخسر الكثير من العمل إذا فعل. وبينما جاره يُحاول إقناعه سُمعَ صخبٌ عنيف فوقهما.

شرحَ ويلسون بهدوء "لقد أقفلتُ على زوجتي في الأعلى. سوف أُبقيها هناك حتى يوم بعد غد، ومن ثم سوف نرحل"

دُهِشَ ميخائيليس؛ لقد كانا جيران منذ أربع سنوات، ولم يبدُ على ويلسون قط أنَّ في مقدرته أنْ يُصدر مثل ذلك التصريح. في العموم كان أحد أولئك المُرهقين : حين لا يعمل يجلس على كرسي عند الباب ويُحدِّق إلى الناس والسيارات المارة على طول الشارع. وعندما يُكلّمه أحد فإنه دائماً يضحك بطريقة مُحبّبة، لا لون لها. كان ملكاً لزوجته وليس لنفسه.

ومن الطبيعي أنَّ ميخائيليس حاولَ أنْ يعرف ماذا حدث، لكنَّ ويلسون رفض أنْ يبوح بأي كلمة - وبدل ذلك بدأ يرمي زائره بنظرات غريبة، مملوءة بالشك، وراح يسأله عمّا كان يفعله في أوقات مُعيَّنة في أيام معيَّنة. وبينما هذا الأخير يزداد قلقه، مرَّ بعض العمال من أمام الباب قاصدين مطعمه، فانتهزَ ميخائيليس الفرصة ليهرب، واضعاً في نيّته أنْ يعود لاحقاً. لكنه لم يفعل. اعتقدَ أنه نسيَ ذلك، هذا كل ما في الأمر. وعندما خرجَ من جديد، بعد الساعة السابعة بقليل، تذكَّر الحديث لأنه سمعَ صوت السيدة ويلسون، عالياً ولاذعاً، في الطابق السفلي في المرأب.

سمعها تصرخ "اضربني! اطرحني أرضاً واضربني، أيها الجبان الحقير القذر!"

بعد برهة اندفعتْ إلى الخارج في الغسق، وهي تلوّح بيديها وتصرخ - وقبل أنْ يتمكَّن من التحرُّك من موقعه عند الباب كان الأمر قد انتهى.

"إنّ سيارة الموت"، كما وصفتها الصحف، لم تتوقف؛ لقد برزت من قلب الظلام الحالك، اضطربت برهة بشكلٍ مأساوي، ومن ثم اختفت عند المنعطف التالي. ومافروميخائيليس لم يكُن حتى متأكّداً من لونها

- أخبر أول رجل شرطة إنَّ لونها كان أخضر خفيفاً. السيارة الأخرى، تلك المتوجهة إلى نيويورك، توقفت بعد ذلك بمائة ياردة، وهرعَ سائقها عائداً إلى حيث كانت مرتل ويلسون، التي فقدت حياتها بطريقة عنيفة، وركعت وسط الشارع وامتزجَ دمها القاتم الكثيف بالتراب.

ميخائيليس وهذا الرجل وصلا إليها أولاً، ولكن عندما مزّقا بلوزتها، التي كانت لا تزال مُبللة بالعرق، شاهدا أنَّ ثديها الأيسر كان يتدلّى منزوعاً ككتلة رخوة، ولم تكن هناك حاجة إلى الإصغاء إلى خفق القلب تحته. وكان الفمُ مفتوحاً واسعاً وممزّقاً قليلاً عند الزاويتين، وكأنها اختنقتْ قليلاً في أثناء تسليمها الحيوية الهائلة التي حبستها زمناً طويلاً.

شاهدنا السيارات الخاصة الثلاث أو الأربع والحشد المتجمّع ونحن لا نزال على مسافة من المكان.

قال توم "إنه حادث تحطُّم! عظيم. أخيراً سيتوفر لويلسون بعض العمل"

أبطأ، ولكن كان لا يزال لا ينوي أنْ يتوقف، إلى أنْ، عندما اقتربوا، دفعته وجوه الناس الواجمة، الصامتة، المتجمعين عند باب المرأب، يضغط على المكابح بحركة آليّة.

قال مع نبرة من الشك "سوف نلقي نظرة، نظرة واحدة"

عندئذٍ سمعت صوت عويل أجوف، كان يصدر بلا توقّف عن المرأب، صوت أخذ يتجلّى في أثناء خروجنا من سيارة الكوبيه واقترابنا من الباب على هيئة الكلمات "أوه، يا إلهي! " تُنطَق مراراً وتكراراً مع أنينٍ وشهيق.

قال توم بإثارة "ثمة خطبٌ جلل هنا"

اقتربَ على أطراف أصابع قدميه وألقى نظرة عبر دائرة من الرؤوس

نحو داخل المرأب الذي لم يكن مُضاءً إلا بضوء أصفر اللون داخل سلّة معدنية تتأرجح فوق الرؤوس. ثم أصدر صوتاً أجشاً من حنجرته، مع حركة دفع عنيفة من ذراعيه القويين مُقتحماً طريقه.

انغلقَتْ الدائرة من جديد مع غمغمة اعتراض سارية؛ قبل دقيقة من ذلك لم أكن أرى أي شيء. ثم شوَّشَ الطابور واصلون جُدد، وفجأةً دُفِعنا أنا وجوردان جانباً.

كان جسد مرتل ويلسون، المُدثَّر بملاءة، ومن ثم بملاءة أخرى، وكأنها تعاني من البرد في الليل الحارّ، مُمدّداً على طاولة العمل عند الجدار، وكان توم يميل، وظهره إلينا، فوقه، لا يُبدي حِراكاً. وإلى جواره وقف رجل شرطة يركب دراجة نارية يُدوِّن أسماءً في دفتر صغير مملوء بالعَرَق وبالتصحيحات. في أول الأمر لم أعرف مصدر الكلمات العالية النبرة، الشاكية التي تردَّد صداها مدوّياً في أنحاء المرأب الفارغ - ثم رأيتُ ويلسون واقفاً على عتبة مرفوعة من غرفة مكتبه، يتمايل إلى الأمام والخلف ومُمسكاً بعموديّ الباب بكلتي يديه. كان أحدهم يتكلَّم معه بصوتٍ منخفض ويُحاولُ، بين حين وآخر، أنْ يضعَ يده على كتفه، لكنَّ ويلسون لم يكن يرى أو يسمع شيئاً. أشاح بعينيه ببطء عن النظر إلى الضوء المترنِّح إلى الطاولة المُحمّلة بالأغراض الملاصقة للجدار، ومن ثم اهتزّ نحو الخلف إلى الضوء من جديد، وأطلقَ بلا توقف نداءً عالياً، مريعاً:

"آه، يا ربـ ي! آه يا ربـ ي! آه، يا ربـ ي! آه يا ربـ ي!"

وفي الحال رفعَ توم رأسه بحركة سريعة، بعد أنْ حدَّقَ حول أرجاء المرأب بعينين مُحدّقتين، وغمغمَ بملاحظة غير متناسقة لرجل الشرطة.

كان "رجل الشرطة" يقول "م - ا - ف - و -"

صحَّحَ له الرجل "كلا، بل ر – م – أ – ر – و –"

تمتمَ توم بضراوة "أصغِ إليّ!"

قال رجل الشرطة "ر – و –"

"غ–"

"غ–" رفع بصره عندما حطَّت يدُ توم العريضة بحِدَّة على كتفه. "ماذا تريد يا رجل؟"

كرَّر توم، مُحدِّقاً "ماذا حصل؟ – هذا ما أريد أنْ أعرفه"

"ضربتها سيارة. قُتِلَتْ على الفور"

كرَّر توم، مُحدِّقاً "قُتِلت على الفور"

"لقد اندفعَت إلى الشارع. ابن الحرام حتى لم يتوقّف"

قال ميخائيليس "كانت هناك سيارتان، واحدة آتية، وواحدة غادية، فهمت؟"

سأل رجل الشرطة بحِدَّة "وكيف اتجه؟"

"كل واحدة ذهبت في جهة. حسن، هي – "ارتفعَتْ يده نحو الملاءات لكنها توقّفت عند منتصف الطريق ووقعتْ إلى جانبه – "هي خرجت من هناك والسيارة القادمة من جهة نيويورك ضربتها فوراً، بسرعة ثلاثين أو أربعين ميلاً في الساعة"

سأل الضابط "ما اسم المكان هنا؟"

"ليس له أي اسم"

اقترب رجل زنجي شاحب اللون حَسَن الملبس.

قال "كانت سيارة صفراء، سيارة كبيرة صفراء. جديدة"

سأل رجل الشرطة هل رأيتَ الحادث؟"

"كلا، لكنَّ السيارة مرَّت بي على الطريق، بسرعة تفوقُ الأربعين ميلاً. خمسين أو ستين"

"تعال وأعطني اسمك. انتبه الآن. أريد أنْ أعرف اسمه"

يبدو أنَّ طرفاً من هذا الحديث ووصل إلى سمع ويلسون، وهو يترنَّح عند باب غرفة المكتب، ذلك أنَّ عاملاً جديداً دخلَ فجأةً وصدر عنه على شكل صرخات لاهثة:

"لا داعي لأنْ تُخبرني عن نوع السيارة! أنا أعرف ماذا كان نوعها!"

راقبتُ توم فرأيتُ عضلة خلف كتفه مشدودة من تحت معطفه. مشى بسرعة وتقدَّمَ من ويلسون، ووقف أمامه وشدَّ بقوة على أعلى ساعديه.

قال له بخشونة مُهدِّئة "يجب أنْ تتمالك نفسك"

اتجه عينا ويلسون نحو توم؛ ثم ارتفعَ على أطراف أصابع قدميه وكاد ينهار على ركبتيه لو لم يدعمه توم.

قال توم، وهو يهزّه قليلاً، "اسمع، أنا لم أصل إلى هنا إلا منذ دقيقة، قادماً من نيويورك. كنتُ أُحضِر لك سيارة الكوبيه تلك التي تحدثنا عنها. إنَّ تلك السيارة الصفراء التي كنتُ أقودها بعد ظهيرة هذا اليوم ليست لي – هل تسمع؟ أنا لم أرها طوال فترة بعد الظهيرة"

فقط الزنجي وأنا كنا على مسافة قريبة لكي نسمع ما قاله، لكنَّ رجل الشرطة لاحظ شيئاً في نبرة الصوت فنظر إليهما بعينين ضاريتين.

سألَ "ما كل هذا؟"

"أنا صديق له"، أدار توم رأسه لكنه أبقى يديه ثابتتين على جسم ويلسون. "يقول إنه يعرف السيارة التي ارتكبت الحادث... كانت سيارة صفراء"

ثمة حافز غامض دفعَ رجل الشرطة لكي يرمي توم بنظرةٍ مرتابة.

"وما لون سيارتك أنت؟"

"إنها سيارة زرقاء، طراز كوبيه"

قال "لقد أتينا مباشرةً من نيويورك"

أكَّدَ كلامه شخص كان يقود سيارته خلفنا بقليل، فاستدار رجل الشرطة.

"والآن، دعونا ندوّن ذلك الاسم بشكلٍ صحي"

رفعَ توم ويلسون كأنه دمية، وحمله إلى داخل غرفة المكتب، ووضعه على أحد الكراسي، ثم رجع.

قال بلهجة آمرة وساخرة "ليت أحداً يأتي ويجلس معه". وراقب الرجلين الواقفين على المسافة الأقرب يتبادلان النظر ومن ثم يدخلان الغرفة على مضض. ثم أغلق توم الباب عليهم وهبط الدرجة الوحيدة، وعيناه تتجنبان النظر إلى الطاولة. ولدى مروره بالقرب مني همس : "فلنخرج من هنا"

شققنا طريقنا بحياء، وأذرعنا تُفسح لنا المجال، بين الحشد الذي كان لا يزال يتزايد، ومررنا بطبيب مستعجل، حاملاً حقيبة، أُرسِلَ في طلبه قبل نصف ساعة على أملٍ يائس.

قاد توم ببطء إلى أنْ تجاوزنا المنعطف - ثم ضغطت قدمه بقوة، وانطلقت الكوبيه تخترق الليل. وبعد قليل سمعنا الكثير من النشيج المنخفض الأجش، ورأينا الدموع تجري غزيرة على وجنتيه.

أخذ ينشج "الجبان الملعون! إنه حتى لم يتوقف"

فجأةً تهادي منزل آل بيوكانن متجهاً نحونا من خلال الأشجار

المظلمة ذات الحفيف. توقفَ توم بجوار ردهة الباب ورفعَ بصره نحو الطابق الثاني، حيث كانت نافذتان تتلألآن بالضياء بين عرائش الكرمة.

قال "منزل ديزي". وعندما ترجلنا من السيارة ألقى عليّ نظرة وتجهّم قليلاً.

"كان ينبغي أنْ أوصِلك إلى ويست إيغ، يا نيك. ليس هناك ما نفعله هذه الليلة"

تبدّل تعبير وجهه، وتكلَّم بجدّية، وبتصميم. وفي أثناء عبورنا الممشى المُحصّى المُضاء بضوء القمر نحو ردهة الباب تخلّصَ من الموقف بعبارات قليلة رشيقة.

"سأطلب سيارة أجرة بالهاتف لينقلك إلى منزلك، وفي أثناء انتظاركما أنت وجوردان يُستحسن أنْ تدخلا المطبخ ليُعدوا لكما عشاءً – هذا إذا أردتما". وفتح الباب. "تفضلا"

"كلا، شكراً. ولكن سيسعدني أنْ تطلبَ لي سيارة أجرة. سأنتظر في الخارج"

وضعت جوردان يدها على ذراعي.

"ألن تدخل، يا نيك؟"

"كلا، شكراً"

كنتُ أشعر بشيء من الاشمئزاز ورغبت في الانفراد بنفسي. لكنَّ جوردان تلكّأت برهة أخرى.

قالت "إنَّ الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف"

لعنني الله لو أنني دخلت؛ لقد رأيتُ منهم جميعاً ما يكفي ليوم واحد، وفجأةً شملَ كلامي جوردان أيضاً. ولابد أنها استشفّت ذلك من تعبير

وجهي، لأنها أشاحت فجأةً بوجهها بسرعة عني وهرعت ترتقي دَرَج ردهة الباب ومنه إلى داخل المنزل. جلستُ قليلاً ورأسي موضوع بين يديّ، إلى أنْ سمعتُ الهاتف يُرفَع في الداخل وصوت الساقي يطلب سيارة أجرة. ثم مشيتُ ببطءٍ على طول الممشى بعيداً عن المنزل، متعمداً أنْ أنتظر السيارة عند البوابة.

كنتُ قد قطعتُ عشرين ياردة عندما سمعتُ اسمي وتقدَّمَ غاتسبي من بين شُجيرتين إلى الممر. ولاشك في أنَّ شعوراً غريباً انتابني في ذلك الحين، لأني لم أتمكن من التفكير إلا في إشراق بذلته الوردية تحت ضياء القمر.

سألته "ما الذي تفعله؟"

"أنا فقط أقف هنا، يا صاحبي"

بدا لي هذا، بصورة ما، انشغالاً جديراً بالازدراء. لأنَّ كل ما خطر في بالي خلال لحظة هو أنه يقوم بسرقة المنزل؛ ولم أكن لأُدهَش لو أني شاهدتُ وجوه أشخاص أشرار، وجوه "عصابة وولفشيم"، خلفه بين الشجيرات المُظلمة.

بعد قليل سألني "هل واجهت أي مشاكل في الطريق؟"

"نعم"

تردَّدَ.

"هل ماتت؟"

"نعم"

"هذا ما ظننته؛ لقد قلتُ لديزي أني ظننتُ ذلك. يُستحسن أنْ تأتي الصدمة دفعة واحدة. لقد تحمّلَتها بشكل جيد"

تكلَّمَ كما لو أنَّ رد فعل ديزي هو الشيء الوحيد الهامّ.

تابعَ قائلاً "لقد توجهت إلى ويست إيغ من طريق فرعيّ، وتركتُ السيارة في مرأب بيتي. لا أعتقد أنَّ أحداً رآنا، ولكن طبعاً لا أستطيع أنْ أؤكّد"

حينئذٍ بلغَتْ كراهيتي له أبعد مداها حتى أني لم أجد من الضروري أنْ أخبره بأنه على خطأ.

سأل "مَنْ كانت المرأة؟"

"اسمها ويلسون. زوجها يمتلك مرأباً. كيف وقع الحادث بحق الجحيم؟"

"حسن، لقد حاولتُ أنْ أُدير المقود بسرعة" هكذا انطلق يقول، وفجأةً خمَّنتُ الحقيقة.

"أكانت ديزي هي التي تقود؟"

قال بعد برهة "نعم، ولكن طبعاً سأقول إني أنا الذي كنت أقود. في الواقع، عندما غادرنا نيويورك كانت شديدة التوتُّر ورأتْ أنَّ قيادة السيارة سوف تعيد إليها هدوء أعصابها – وإذا بتلك المرأة تندفعُ خارجةً علينا في اللحظة التي كنا نتجاوز سيارة قادمة من الجهة المقابلة. وقع الأمر كله في دقيقة، ولكن بدا لي أنها أرادتْ أنْ تقول لنا شيئاً، اعتقدتْ أننا أشخاص تعرفهم. حسن، أولاً ابتعدتْ ديزي عن المرأة نحو السيارة الأخرى، ثمن فقدت أعصابها واستدارت عائدة. وفي اللحظة التي مددتُ فيها يدي إلى المقود شعرت بالصدمة – لابد أنَّ السيارة قتلتها على الفور"

"لقد شقَّتْ –"

أجفلَ "لا تخبرني، يا صاحبي. على أي حال – داست ديزي عليها.

حاولتُ أنْ أدفعها إلى التوقف، لكنها لم تتمكن من فعل ذلك، فضغطتُ على مكبح الطوارئ. ثم سقطت هي في حجري وتوليت أنا القيادة.

قال على الفور "سوف تصبح على ما يُرام في الغد. سوف أنتظر هنا وأرى إنْ كان سيحاول إزعاجها بشأنْ ذلك الحادث المؤسف الذي وقع بعض ظهيرة هذا اليوم. لقد أغلقت على نفسها باب غرفتها، وإذا حاول أنْ يتصرف معها أي تصرف وحشي فسوف تقوم بإطفاء الضوء وإشعاله على التوالي"

قلت "لن يلمسها. إنها ليست في باله"

"أنا لا أثق فيه، يا صاحبي"

"إلى متى ستنتظر؟"

"طوال الليل، إذا لزم الأمر. على أي حال، إلى أنْ يأووا جميعاً إلى النوم"

خطرت في بالي وِجهة نظر جديدة. لنفرض أنَّ توم اكتشفَ أنَّ ديزي هي التي كانت تقود السيارة، فقد يعتقد أنَّ هناك رابطاً – قد يعتقد أي شيء. نظرتُ إلى المنزل؛ كانت هنا نافذتان أو ثلاث مُضاءة في الطابق السفلي والتوهج الوردي المنبعث من غرفة ديزي في الطابق الأرضي.

قلت "انتظر هنا، سأرى إنْ كانت هناك أي إشارة على وجود هياج"

مشيتُ عائداً على طول حدود المرج، واجتزتُ الممشى المُحصّى بهدوء، ومشيت بخفّة حتى دَرَج الشرفة. كانت ستائر غرفة الجلوس مرفوعة، ورأيتُ أنَّ الغرفة خالية. اجتزتُ الرواق حيث كنا قد تناولنا طعام العشاء في تلك الليلة من شهر حزيران قبل ثلاثة أشهر، فوصلتُ إلى مستطيل صغير من الضوء خمَّنتُ أنه صادر من نافذة غرفة المؤونة. كانت الستارة مُزاحة، ووجدتُ أنَّ هناك صدعاً في عتبة النافذة.

كانت ديزي وتوم جالسان متقابلَين على طاولة المطبخ، وثمة طبق من قطع الدجاج المقلي البارد بينهما، وزجاجتان من الجعة. كان منكبّاً على توجيه كلامه إليها عبر الطاولة، ووسط جدّيته وقعَت يده وغطّت يدها. وكانت بين حين وآخر ترفع نظرها إليه وتومئ برأسه بالموافقة.

لم يكونا سعيدَين، ولم يلمس أي منهما الدجاج أو الجعة – ومع ذلك لم يكونا تعيسَين أيضاً. كان هناك جو لا ريب فيه من الحميمية الطبيعية في ذلك المشهد، وأي شخص يراهما كان سيقول إنهما يُحيكان مؤامرة معاً.

بينما كنتُ أبتعد عن الرواق على أطراف أصابع قدميّ سمعتُ سيارة الأجرة القادمة من أجلي تتلمّس طريقها على طول الطريق المظلمة باتجاه المنزل. كان غاتسبي ينتظر حيث تركته على الممشى.

سأل بقلق "هل الوضع هادئ هناك؟"

تردّدتُ في القول "نعم، كل شيء هادئ. يُستحسن أنْ تدخل المنزل وتنال قسطاً من النوم"

هزَّ رأسه رفضاً.

"أريد أنْ أنتظر هنا إلى أنْ تأوي ديزي إلى النوم. تصبح على خير، يا صاحبي"

وضع يديه في جيبيّ معطفه واستدار عائداً بلهفة إلى أمان منزله، وكأنَّ وجودي يُشوِّه قداسة يقظته. لذا مشيتُ مبتعداً وتركته واقفاً هناك تحت ضوء القمر – يراقبُ الفراغ.

الفصل الثامن

لم أتمكن من النوم طوال الليل؛ كان نفير الضباب يئنُّ دون توقّف على شاطئ ساوند، وأخذتُ أتقلَّب شبه مريض بين الواقع العجيب والأحلام الوحشية، المُخيفة. مع اقتراب الفجر سمعتُ سيارة أجرة تسير على ممشى غاتسبي، وعلى الفور قفزتُ من سريري وبدأتُ أرتدي ملابسي - شعرتُ بأنَّ لديَّ ما أُفضي به إليه، شيئاً أحذِّره بشأنه، وفي الصباح سيكون الأوان قد فات.

في أثناء اجتيازي مرجه، رأيتُ أنَّ باب بيته الأمامي لا يزال مفتوحاً وهو متكئ على طاولة موجودة في الصالة، مُثقلاً بالاكتئاب أو بالنعاس.

قال بوهَن "لم يحدث أي شيء. لقد انتظرت، وعند حوالي الساعة الرابعة اقتربت من النافذة ووقفتْ هناك دقيقة ومن ثم استدارت وخرجت من بقعة الضوء"

لم يكن المنزل قد بدا مترامي الأطراف كما بدا لي في تلك الليلة ونحن نفتش الغرف بحثاً سجائر. أزحنا الستائر التي كانت أشبه بالسُرادقات، وتحسّسنا مساحة كبيرة من الجدار المظلم بحثاً عن مفاتيح النور الكهربائي - وفي إحدى المرات تعثَّرتُ وكأنني تبعثرت على مفاتيح آلة بيانو ضخمة. كانت هناك كمية غير مفهومة من الغبار تغطّي كل مكان، وكانت الغرف عفنة وكأنها لم تُهوّ منذ أيام طويلة. وجدتُ صندوق السجائر على طاولة غريبة الشكل، في داخله سيجارتان جافتان، بائتتان.

وفتحنا واسعاً النوافذ الفرنسية في غرفة الجلوس، وجلسنا ندخّن في الظلام.

قلت "يجب أنْ ترحل. بات من المؤكَّد أنهم سيقتفون أثر سيارتك"

"أرحلُ الآن، يا صاحبي؟"

"اذهب إلى أتلانتيك سيتي مدة أسبوع، أو إلى مونتريال". ورفض رفضاً باتاً. لم يكن في استطاعته أنْ يترك ديزي إلى أنْ يعرف ما الذي ستفعله. كان يتشبّث بأملٍ أخير ولم أقوَ على تحمُّل إفلاته وتحريره.

في تلك الليلة حكى لي قصة شبابه الغريبة مع دان كودي - حكاها لي لأنّ "جاي غاتسبي" كان قد تحطَّمَ كالزجاج في اصطدامه بخُبث توم الصلب، والدور السرّي الغريب قد لُعِبَ كله. وأعتقد أنه لو كان موجوداً الآن لاعترفَ بأي شيء، بلا تحفُّظ، لكنه أراد أنْ يتحدث عن ديزي.

لقد كانت أول فتاة "ظريفة" تعرَّفَ عليها. وكان يتّصل بأمثالها بفضل قدرات سرّية متنوعة، ولكن كان دائماً يفصل بينه وبينهم أسلاك شائكة غير مرئية. وجدها شهيّة بشكلٍ لا يُقاوَم. فذهب إلى بيتها، في أول الأمر مع ضباط آخرين من مخيَّم تيلر، ثم وحده. وأُصيب بالذهول - لم يكن قد دخل إلى مثل ذلك المنزل الجميل من قبل. ولكن ما أضفى عليه سِمة الإبهام الذي يخطف الأنفاس هو أنَّ ديزي كانت تُقيم فيه - كان مكان إقامة عابر بالنسبة إليها بقدر ما كانت خيمته بالنسبة إليه في المخيَّم. لقد كان يكتنفه غموض كثيف، لمسة من جو غرف النوم في الطابق العلوي أكثر جمالاً وبرودة من غرف النوم الأخرى، من نشاطات مرحة وحيوية تحدث في أنحاء أروقته، وحكايات رومانسية ليست مبتذلة مُخزّنة في الخزامى لكنها نضرة وتتنفَّس وتفوح برائحة سيارات هذا العام اللامعة وبرقصات لا تذبل أزهارها. وما أثاره أيضاً أنَّ العديد من الرجال كانوا

قد وقعوا في حب ديزي من قبل - مما زاد من قيمتها في نظره. شعر بحضورهم في أنحاء المنزل كله، تملأ الهواء بظلال وأصداء انفعالات لا تزال تتردد.

لكنه كان متأكداً من أنه موجود في منزل ديزي بفعلِ بسبب حادثٍ مُروِّع. ومهما تبلغ روعة مستقبله، إلا أنه الآن شاب مفلس بلا ماضٍ، ويمكن للرداء الخفي الذي يلبسه فوق بزّته الرسمية أنْ ينزلق في أي لحظة عن كتفيه. لذا قام باستغلال أغلب وقته. أخذ كل ما استطاع أنْ يحصل عليه، بعصبيّة وبضمير منعدم - وأخيراً، وذات ليلة هادئة من شهر تشرين أول أخذ ديزي، أخذها لأنَّه لا يحق له بأي حال أنْ يلمس يدها.

لعلّه شعر بالاشمئزاز من نفسه، لأنه أخذها حتماً بذرائع زائفة. لا أعني أنْ أقول إنه تاجر بملايينه الوهمية، لكنه منح ديزي عن عمد إحساساً بالأمان؛ جعلها تصدِّق أنه من نفس نوعها - وأنه قادر تماماً على العناية بها. وفي الحقيقة، لم يكن يتمتع بأي من تلك المزايا - لم تكن لديه عائلة مرتاحة تدعمه، وكان عُرضَةً لنزوة أية حكومة تتركه لينفجر ويتطاير في كل أرجاء العالم.

لكنه لم يكره نفسه ولم يُصبح كما تخيَّل نفسه. لعلّه كان ينوي أنْ يأخذ كل ما يستطيع ويرحل - أما الآن فقد وجد أنه كرَّسَ نفسه للسعي وراء الكأس المقدسة. لقد علِمَ أنَّ ديزي شخص استثنائي، لكنه لم يُدرك إلى أي مدى يمكن أنْ تكون "ظريفة" بشكلٍ استثنائي. لقد اختفت داخل منزلها الفخم، داخل حياتها الغنيّة، المفعمة، تاركة غاتسبي - وكأنه لم يكن. لقد شعر أنه قد تزوجها، هذا كل شيء.

عندما تقابلا من جديد، بعد ذلك بيومَين، كان غاتسبي هو المقطوع الأنفاس، والمخدوع، بصورة ما. كان رواق منزلها مُضاءً بالرفاهية المُشتراة من النجم الساطع؛ صرَّت جدائل القصب التي صُنعَ منها

المقعد كما تقتضي الموضة عندما استدارت نحوه وقبّلَ هو فمها الفضولي والجميل. كانت قد أُصيبت بالبرد، مما جعلَ صوتها أكثر خشونة وسِحراً من ذي قبل، وكان غاتسبي يعي وعياً غامراً للشباب والغموض اللذَين تسجنهما الثروة وتحفظهما، لنضارة العديد من الملابس، ولديزي، اللامعة كالفضّة، آمنة وفخورة بنفسها ومتعالية عن صراعات الفقراء المُستعرة.

"لا أستطيع أنْ أصف لك كم فوجئت عندما اكتشفت أني أحببتها، يا صاحبي. بل إنَّ الأمل حداني لفترة وجيزة في أنْ تنبذني، لكنها لم تفعل، لأنها هي أيضاً أُغرِمت بي. وحسِبَتْ أني أعرف الكثير لأني تعلّمتُ أشياء متنوعة منها... حسن، هكذا أصبحت، بعيداً عن طموحاتي، أغرق أعمق فأعمق في الحب في كل دقيقة، وفجأةً لم أعد أهتم. فما فائدة إنجاز أشياء عظيمة إذا كنتُ أستطيع أنْ أقضي وقتاً أفضل في إخبارها بما أنوي أن أفعله؟"

بعد ظهيرة اليوم الأخير الذي سبق رحيله إلى الخارج، جلس وديزي بين أحضانه مدة طويلة، يلفّهما الصمت. كان يوم شتاء بارد، ونار الموقد تتأجّج في الغرفة ووجنتاها متوردتين. وكانت بين حين وآخر تتحرَّك ويُغيِّر موقع ذراعه قليلاً، وقبّلَ مرةً شعرها الفاحم اللامع. جعلهما جو بعد الظهيرة في حالةٍ من السكينة بعض الوقت، وكأنما ليمنحهما ذكرى عميقة استعداداً للفراق الطويل الموعود الذي سيبدأ في اليوم التالي. لم يكونا قد تقاربا خلال شهر الحب ذاك، ولا تواصلا معاً بعمق، أكثر مما فعلا عندما حفَّت شفتاها الصامتتين بكتف معطفه أو عندما لمسَ رؤوس أصابعها، برقّة، وكأنها نائمة.

لقد أبلى بلاءاً خارقاً في الحرب. قبل أنْ يذهب إلى الجبهة كان

برتبة نقيب، وبعد معارك أرغون حصل على رتبة لواء وآمر فرقة المدافع الرشاشة. وبعد إعلان الهدنة حاول باشتياق مسعور أنْ يعود إلى الوطن، ولكنّ بسبب بعض التعقيدات أو سوء الفهم انتهى به الأمر إلى أوكسفورد. ثم انتابه القلق – فقد أصبحت رسائل ديزي تضم نوعاً من اليأس العصبي. لم تفهم لِمَ لم يعُد. كانت تشعر بضغط العالم الخارجي، وأرادتْ أنْ تراه وتشعر بوجوده إلى جانبها لكي يُطمئنها بأنها تقوم بالأمر الصحيح، على الرغم من كل شيء.

ذلك أنَّ ديزي كانت صغيرة وعالمها السطحي يفوح بعبير أزهار السحلبية، وبالعنجهية المرحة، الممتعة، وبالفرق الموسيقية التي حدَّدت إيقاع ذلك العام، مُختصرةً حزن الحياة وإيحاءها بأنغام جديدة. كانت آلات الساكسيفون تئن بتعليقٍ يائس على لحن "أحزان شارع بيل" بينما مائة زوج من الأحذية الخفيفة الذهبية والفضيّة تحفّ التراب الساطع. وفي موعد شرب الشاي الكئيب كانت دائماً هناك غرفٌ تموج بلا توقف بتلك الحمّى الخفيفة، العذبة، بينما الوجوه النضرة تتنقَّل هنا وهناك كبتلات الورد التي تذروها الأبواق في أنحاء حلبة الرقص.

خلال ذلك الكون الشفقي بدأتْ ديزي تتحرّك مع تحرُّك الفصل؛ وفجأةً أخذت تحافظ على عدد كبير من المواعيد في اليوم الواحد مع عدد من الرجال، ويغلبها النعاس عند الفجر وهي ترتدي ثوب السهرة ذا الخرز وأشرطة الشفون تتدلى بين أزهار السحلبية الميتة على الأرض بجوار سريرها. وطوال الوقت كان في داخلها شيء يصرخ طالباً اتّخاذ قرار. لقد أرادت لحياتها أنْ تتشكّل الآن، فوراً – ويجب اتّخاذ القرار بالاستعانة بقوةٍ ما – من الحب، والمال، بروحِ عمليّةٍ لا ريب فيها – وكان ذلك قريب المنال..

تلك القوة تجسّدتْ في منتصف الربيع مع وصول توم بيوكانن. كان

يكتنفُ شخصه وموقعه شيء ضخم وهائل، وأُعجِبَتْ ديزي به. ولا شك في أنه كان هناك قدرٌ من الصراع وقدر من الارتياح. واستلمَ غاتسبي الرسالة عندما كان لا يزال في أوكسفورد.

طلعَ الفجر الآن في لونغ أيلند ورحنا نتنقّل ونفتح ما تبقّى من نوافذ في الطابق السفلي، مالئين المنزل بضوء يتماوج بين الذهبي والرمادي. وسقط ظل شجرة بسرعة عبر الندى وبدأتْ طيور كالأشباح تغرِّد بين أوراق الشجر الزرقاء. كانت هناك حركة بطيئة، ممتعة في الهواء، شبه الساكن، تعِدُ بيومٍ بارد، جميل.

"لا أعتقد أنها أحبّته يوماً". التفتَ غاتسبي بعيداً عن النافذة ونظر إليّ بتحدٍ. "يجب أنْ تتذكّر، يا صاحبي، أنها كانت شديدة الانفعال بعد ظهيرة هذا اليوم. لقد أخبرها تلك الأشياء بطريقةٍ أخافتها - وهذا جعلني أبدو وكأني مُحتالٌ رخيص. وكانت النتيجة هي أنها لم تعُد تعرف ماذا تقول"

جلس كئيباً.

"طبعاً يمكن أنْ تكون قد أحبّته مدة دقيقة، في أول زواجهما - وأحبتني أكثر من ذلك، أترى؟"

وفجأةً خرج بملاحظة غريبة.

قال "على أي حال، كان الأمر مجرد مسألة شخصية"

ماذا يُفهَمُ من هذا، عدا الاشتباه بوجود بعض الكثافة في مفهومه للعلاقة العاطفية التي لا يمكن تقديرها؟

عاد من فرنسا عندما كان توم وديزي لا يزالان في رحلة شهر العسل،

وقام برحلة بائسة ولكن لا تُقاوَم إلى لويزفيل بآخر راتب تلقّاه من الجيش. مكثَ هناك مدة أسبوع، يجوب الشوارع مُقتفياً آثار أقدامهما التي خلّفاها في ليل تشرين ثاني وزار من جديد أماكن نائية وصلا إليها بسيارتها البيضاء. وكما أنَّ منزل ديزي طالما بدا له أشدّ غموضاً ومرحاً من المنازل الأخرى، كذلك فكرته عن المدينة نفسها، على الرغم من أنها تركتها، كان يكتنفها جمالٌ حزين.

غادر وهو يشعر بأنه لو أمعنَ في البحث لعثر عليها - وأنه تخلّى عنها. وحافلة القطار النهاري - كان في ذلك الوقت مفلساً - كانت حارة. خرجَ إلى المدخل المكشوف وجلس على كرسي قابل للطيّ، وانسابت المحطة مبتعدة ومرَّت الجهة الخلفية الأبنية الغريبة. ثم انتقلت الحافلة إلى حقول الربيع، حيث قامت حافلة ترولي صفراء بالتسابق معها فترة قصيرة بما على متنها من أناسٍ ربما شاهدوا مرةً سحر وجهها الشاب تتمشّى على طول أحد الشوارع.

انحرفَ المسار وأخذَ يبتعد عن الشمس، التي بدا، مع انحدارها، أنها تنتشر كأنها تمنح بركتها على المدينة المتلاشية حيث استردَّتْ أنفاسها. مدَّ يده بيأس وكأنما ليختطف فقط نفحة هواء، ليُنقذ قطعةِ من البقعة التي جمّلتها من أجله. لكنَّ كل شيء أصبحَ يعبر بسرعة قصوى بالنسبة إلى عينيه الضبابيتين وعلِمَ أنه أضاعَ ذلك الجزء منه، الأنضر، والأفضل، إلى الأبد.

كانت الساعة قد بلغت التاسعة عندما أنهى تناول إفطاره وخرج إلى الرواق. لقد أحدثَ الليل فرقاً حاداً في الطقس وكانت نكهة الخريف تعطِّر الجو. اقترب البُستاني، وكان آخر مَنْ تبقّى من خدم غاتسبي السابقين، من أسفل الدَرَج.

"اليوم سأقوم بإفراغ بركة السباحة، يا سيد غاتسبي. سوف تبدأ أوراق الأشجار بالتساقط قريباً جداً، وعندئذٍ سوف نواجه دائماً مشاكل مع المواسير"

أجاب غاتسبي "لا تفعل ذلك اليوم". ثم التفتَ إليّ بحركة اعتذار. "أتعلمْ، يا صاحبي، أني لم أستخدم قط تلك البركة طوال فصل الصيف؟"

نظرتُ في ساعة يدي ونهضتُ واقفاً.

"بقيتْ اثنتي عشرة دقيقة قبل أنْ يتحرك قطاري"

لم تكن لديّ رغبة في الذهاب إلى المدينة. فلم أكن مؤهّلاً للقيام بأي عمل محترم، ولكنَّ الأمر كان يتجاوز ذلك - لم تكن لدي رغبة في مغادرة غاتسبي. لقد فوّتُ على نفسي تلك الرحلة بالقطار، والرحلة التي تلتها، قبل أنْ أتمكن من إقناع نفسي بالرحيل.

أخيراً قلت "سوف أتصلُ بك"

"افعل، يا صاحبي"

"سأتصل بك عند نحو الظهيرة"

هبطنا الدَرَج ببط.

قال "أعتقد أنَّ ديزي ستتصل أيضاً"، ثم نظر إليّ بقلق، وكأنه يأمل في أنْ أؤيّد كلامه.

"أعتقد ذلك"

"حسن، الوداع"

تصافحنا وانطلقت. قبل أنْ أبلغ السياج تذكَّرتُ شيئاً فاستدرت.

صحتُ عبر المرج "إنهم جمعٌ عفن. أنتَ أفضل منهم مجتمعين"

لطالما أسعدني أني قلتُ ذلك. لقد كان التقريظ الوحيد الذي قلته عنه، لأني استهجنته من البداية وحتى النهاية. أولاً هزّ رأسه بأدب، ثم شعَّ وجهه بابتسامة فهم، وكأننا كنا طوال الوقت على اتّفاق منتشٍ حول تلك الحقيقة. أحدثت بذلته الوردية الرائعة بقعة برّاقة من الألوانٍ أمام خلفيّة الدَرَج الأبيض، وفكّرتُ في الليل عندما أتيت أول مرة إلى منزله العريق، قبل ثلاثة أشهر. كان المرج والممشى مزدحمين بوجوه أولئك الذين كانوا يُخمّنون طبيعة فساده - وكان هو واقفاً على ذلك الدَرَج، مُخفياً أحلامه غير القابلة للفساد، وهو يُلوّح لهم بيده مودّعاً.

شكرته على حُسن ضيافته. وكنا دائماً نشكره على ذلك - أنا والآخرون.

هتفتُ "وداعاً. لقد استمتعتُ بالإفطار، يا غاتسبي"

في المدينة، حاولتُ لفترة وجيزة من الوقت، أنْ أصنِّف أسعار كميات لا حصر لها من المواد، ثم استغرقتُ في النوم على كرسيّي الدوّار. وقُبيل الظهيرة رنَّ جرس الهاتف، فنهضتُ والعرق يتصبَّبُ من جبيني. إنها جوردان بيكر؛ كانت كثيراً ما تتصل بي في مثل تلك الساعة لأنَّ عدم التأكُّد من تحرّكاتها بين الفنادق والنوادي والمنازل الخاصة جعل من الصعب العثور عليها بأي طريقة أخرى. في المعتاد كان صوتها يصل عبر الأسلاك نضراً ورائقاً، وكأنَّ كتلة من عشب ملاعب الغولف خضراء تطفو داخلة من نافذة غرفة المكتب، ولكن في صباح ذلك اليوم بدا خشناً وجافاً.

قالت "لقد غادرتُ منزل ديزي. أنا في هامبستيد، وسوف أتوجه إلى ساورثامبتن بعد ظهر هذا اليوم"

لعله كان من اللباقة مغادرة منزل ديزي، ولكن ذلك الفعل أزعجني، وملاحظتها التالية جعلتني أتيبَّس.

"أنت لم تكن لطيفاً جداً معي ليلة أمس"

"ماذا كانت أهمية ذلك حينئذٍ؟"

ساد صمت لبرهة. ثم :

"مهما يكن – أريد أنْ أراكَ"

"وأنا، أيضاً، أريد أنْ أراكِ"

"ماذا لو أرجأتُ ذهابي إلى ساوثامبتن، وأتيت إلى المدينة هذه الليلة؟"

"كلا – لا أعتقد أني أستطيع بعد ظهيرة هذا اليوم"

"حسن"

"مستحيل بعد ظهيرة هذا اليوم. ثمة أشياء كثيرة"

بقينا نتحدث هكذا بعض الوقت، ومن ثم وبسرعة لم نعد نتحدث. لا أدري مَنْ منا وضع السماعة بحِدَّة، ولكن أعلم أني لم أهتم. فما كان يمكن أتحدث معها عبر طاولة الشاي في ذلك اليوم حتى وإنْ لم أتحدث معها من جديد في هذا العالم.

اتصلتُ هاتفياً بمنزل غاتسبي بعد ذلك ببضع دقائق، لكنَّ الخطَّ كان مشغولاً. حاولتُ مرات عِدَّة؛ وأخيراً أخبرني صوت عامل المقسم الساخط أنَّ الخط أُبقيَ مفتوحاً من أجل مكالمة خارجية من ديترويت. فأخرجتُ جدول مواعيدي ورسمتُ دائرة صغيرة حول قطار الساعة الثالثة والربع. ثم أسندتُ ظهري على الكرسي وحاولتُ أنْ أفكِّر. إنَّ الوقت لا يزال الظهيرة.

عندما مررتُ بركام الرماد وأنا على متن القطار في صباح ذلك اليوم

تعمّدتُ أنْ أنتقل إلى الجانب الآخر من العربة. اعتقدتُ أني سأجد حشداً فضولياً متجمّعاً هناك طوال النهار وأولاداً صِغاراً يفتشون في بقعاً داكنة في التراب، ورجلاً ثرثاراً يحكي ويُكرّر ما حدث، إلى أنْ تغدو أكثر فأكثر غير حقيقية حتى بالنسبة إليه ولا يعود لديه ما يُضيفه، وتُنسى حادثة مرتل ويلسون المأساوية. الآن أريد أنْ أعود قليلاً وأحكي ما حدث في المرأب بعد أنْ غادرنا المكان في الليلة التي سبقتْ.

لقد واجهوا صعوبة في معرفة مكان الأخت، كاثرين. ولابد أنها كسرتْ تعهُّدها بعدم شرب الخمر في تلك الليلة، ذلك أنها حين وصلتْ كانت الخمر قد لعبت برأسها ولم تعُد قادرة على فهم أنَّ سيارة الإسعاف قد غادرت إلى فلاشنغ. وعندما أقنعوها بذلك، أُصيبت بالإغماء فوراً، وكأنَّ هذا هو الجزء الذي لا يُحتمَل من القضية. وتبرَّعَ شخص، لطيف وفضولي، بإيصالها بسيارته لتسهر على جثمان أختها.

بقيَ الحشد المتبدِّل يتوافد أمام المرأب حتى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل، بينما جورج ويلسون يهزّ نفسه إلى الأمام والخلف على الأريكة في الداخل. وبقيَ باب غرفة المكتب مفتوحاً بعض الوقت، وألقى كل مَنْ دخل المرأب نظرة لا تُقاوَم على أرجائه. وأخيراً قال أحدهم إنَّ الحادث مؤسف، وأغلق الباب. ميخائيليس وعدد آخر من الرجال كانوا معه؛ أولاً، أربعة رجال أو خمسة، ولاحقاً رجلان أو ثلاثة رجال. وقبل ذلك أيضاً كان على ميخائيليس أنْ يطلب من آخر شخص غريب أنْ ينتظر هناك مدة خمس عشرة دقيقة إضافية، بينما عاد هو إلى بيته وصنعَ إبريقاً من القهوة. بعد ذلك، مكثَ هناك وحده مع ويلسون حتى الفجر.

عند حوالي الساعة الثالثة تغيَّرتْ طبيعة غمغمة ويلسون المُفكَّكة – أضحى أشد هدوءاً وبدأ يتكلَّم عن السيارة الصفراء. أعلنَ أنَّ لديه طريقة

لمعرفة صاحب السيارة الصفراء، ومن ثم اندفعَ يقول إنَّه قبل نحو شهرين عادت زوجته من المدينة ووجهها مملوءاً بالرضوض وأنفها متورِّم.

ولكن عندما انتبه إلى ما قاله، ارتمى وبدأ يصرخ "آه، يا ربي! " من جديد بصوته الآنّ. وقام ميخائيليس بمحاولة خرقاء للتخفيف عنه.

"منذ متى وأنت متزوج، يا جورج؟ تعال إلى هنا، حاول أنْ تجلس بهدوء برهة وأجب عن سؤالي. منذ متى وأنت متزوج؟"

"منذ اثنتي عشرة سنة"

"ألم تُنجب أطفالاً؟ هيا، يا جورج، اجلس بهدوء – سألتُك سؤالاً. هل أنجبت أطفالاً؟"

ظلَّتْ الخنافس البُنّية القاسية ترتطم مع صوت مكتوم بالمصباح الكليل، وكلما سمع ميخائيليس صوت سيارة مندفعة على طول الطريق في الخارج بدت له كالسيارة التي لم تتوقف قبل بضع ساعات مضتْ. لم يكن يحب أنْ يلج المرأب، لأنَّ طاولة العمل مُلطّخة حيث كانت الجثة، لذا راح يتجول بانزعاج في أرجاء غرفة المكتب – وقبل طلوع النهار كان يعرف كل غرض فيها – وكان بين حينٍ وآخر يجلس بجوار ويلسون مُحاولاً أنْ يجعله أشد هدوءاً.

"هل ترتاد كنيسة معيَّنة أحياناً، يا جورج؟ حتى وإنْ لم تكن قد دخلتها منذ مدة طويلة؟ قد أتمكن من الاتصال بالكنيسة لكي يُرسلوا قسّاً لتستطيع أنْ تتكلَّم معه، فهمت؟"

"أنا لا أنتمي إلى أي منها"

"كان يجب أنْ تنتمي إلى إحدى الكنائس، يا جورج، من أجل مثل هذه الأوقات. لابد أنْ تكون قد ذهبت إلى إحدى الكنائس ولو مرة. ألم تتزوج في كنيسة؟ اسمع، يا جورج، اسمعني. ألم تتزوج في كنيسة؟"

"حدث ذلك منذ زمن بعيد"

الجهد الذي بذله ليُجيب عن السؤال كسر إيقاع اهتزازه – وصمت برهة. ومن ثم عادتْ النظرة شبه العارفة، شبه المرتبكة إلى عينيه الواهنتين.

قال، مُشيراً إلى طاولة المكتب، "انظر في الدرج الذي هناك"

"أي درج؟"

"ذلك الدرج – الذي هناك"

فتحَ ميخائيليس الدرج الأقرب إلى يده. لم يكن يوجد فيه غير رسن كلب، صغير، غالي الثمن، مصنوع من الجلد ومُزخرف بالفضّة. كان واضحاً أنه جديد.

سألَ، وهو يرفعه "هذا؟"

حدَّقَ ويلسون وهزَّ رأسه إيجاباً.

"لقد عثرتُ عليه بعد ظهيرة الأمس. حاولَتْ أنْ تُخبرني عنه، لكني عرفتُ أنه شيء تافه"

"تعني أنَّ زوجتك اشترته؟"

"كانت تلفّه بمنديل من الورق وتضعه على طاولة الكتابة"

لم يرَ ميخائيليس في ذلك شيئاً غريباً، وأعطى ويلسون أسباباً كثيرة تدفع زوجته إلى شراء رسن كلب. لكنَّ من الواضح أنّه كان قد سبقَ لويلسون أنْ سمع ببعضٍ من تلك التفاسير نفسها، من مرتل، لأنه بدأ يقول "آه، يا ربي! " من جديد همساً – وتركَ مُعزّيه عدداً من التفاسير معلّقة في الهواء.

قال ويلسون "إذن هو الذي قتلها". وفجأةً تراخى فمه مفتوحاً.

"مَنْ الذي فعل؟"

"أنا لدي طريقة لاكتشاف ذلك"

قال صديقه "أنت في حالٍ غير طبيعية، يا جورج. لقد سبَّبَ لك هذا الأمر ضغطاً عصبياً ولا تعرف ماذا تقول. يُستحسن أنْ تحاول الجلوس والبقاء هادئاً حتى الصباح"

"لقد قتلها"

"كان حادثاً، يا جورج"

هزّ جورج رأسه نفياً. ضاقتْ عيناه واتَّسعَ فمه قليلاً مع شبح كلمة "همم! ضخمة.

قال بشكلٍ باتّ "أنا أعرف. أنا أحد أولئك الذين يثقون في الآخرين ولا أضمر الأذى لأحد، ولكن عندما أعرفُ شيئاً فأنا متأكّد من ذلك. إنه الرجل الذي قاد السيارة. لقد هرعت إلى الخارج لكي تتكلم معه فلم يتوقف"

كان ذلك هو رأي ميخائيليس أيضاً، ولكن لم يتكشَّف له أنَّ ينطوي على أي أهمية خاصة. كان يعتقد أنَّ السيدة ويلسون ركضتْ هاربةً من زوجها، ولم تكن تحاول أنْ توقِف أي سيارة بعينها.

"كيف أمكنها أنْ تكون كذلك؟"

قال ويلسون "إنها عويصة"، وكأنَّ هذا يُجيب عن السؤال. "أه – ه – ه"

عاد يهتز من جديد، ووقفَ ميخائيليس يلوي الرسن بيده.

"هل لديك صديق أستطيع أنْ أتصل به، يا جورج؟"

كان ذلك أملاً بائساً – كاد يكون متأكّداً من أنَّ ليس لويلسون أي

صديق : لم يكن كافياً لزوجته. أصبحَ سعيداً بعد ذلك بقليل عندما لاحظَ تغيُّراً في الغرفة، الزُرقة وهي تتسارع عبر النافذة، وأدركَ أنَّ الفجر بات وشيكاً. وبحلول الساعة الخامسة أصبحت الزُرقة كافية في الخارج بحيث يُطفأ النور.

التفتت عينا ويلسون الزائغتين نحو الخارج إلى ركام الرماد، حيث اتَّخذتْ سُحُب رمادية صغيرة أشكالاً غريبة وهي تعدو هنا وهناك مع ريح الفجر الخفيفة.

تمتمَ، بعد فترة صمت طويلة، "لقد كلَّمتُها، قلت لها إنها يمكن أنْ تخدعني لكنها لا تستطيع أنْ تخدع الله. وأخذتها إلى النافذة" نهضَ واقفاً بعد جهد ومشى إلى النافذة الخلفية ومال منها ضاغطاً وجهه عليها – "وقلت" يعلم الله ما الذي كنتِ تفعلينه، كل ما كنتِ تفعلينه. قد تخدعينني، ولكن لا تستطيعين أنْ تخدعي الله!"

صُعِقَ ميخائيليس، وهو واقف خلفه، حين وجد أنه كان ينظر إلى عينيّ الدكتور ت.جـ إكلبرغ، اللتين كانتا قد ظهرتا تواً، شاحبتين وهائلتيّ الحجم، من قلب الليل المُتبدِّد.

كرّر ويلسون "الله يرى كل شيء"

أكَّدَ له ميخائيليس "هذا إعلان تجاري". ثم جعله شيءٌ ما يستدير عن النافذة وينظر خلفه إلى داخل الغرفة. لكنَّ ويلسون وقفَ مكانه فترة طويلة، ووجهه قريب من زجاج النافذة، يومئ برأسه وسط الغسق.

بحلول الساعة السادسة كان الإرهاق قد نال من ميخائيليس، وشعر بالامتنان لهدير السيارة التيْ توقفت في الخارج. كان إسّ أحد المتفرجين في الليلة الفائتة ووعدَ بالعودة، وهكذا أعدَّ إفطاراً لثلاثة أشخاص، أكله

هو والرجل الآخر معاً. كان ويلسون قد أصبحَ أكثر هدوءاً، فذهب ميخائيليس إلى بيته لينام؛ وعندما استيقظَ بعد ذلك بأربع ساعات هرعَ عائداً إلى المرأب، فوجد أنَّ ويلسون قد غادر.

عُلِمَ بعد ذلك أنه ذهب إلى بورت روزفلت – ودائماً سيراً على قدميه – ومن ثم إلى غيدز هيل، حيث اشترى شطيرة لم يأكلها، وفنجاناً من القهوة. ولابد أنه كان مُتعباً وسار ببطء، لأنه لم يصل إلى غيدز هيل إلا عند الظهيرة. وحتى ذلك الحين لم تكن هناك أي صعوبة في حساب الوقت الذي أمضاه – وقد شاهد بعض الصِبية رجلاً "يتصرَّف كالمجنون"، وأخذ يُحدِّقُ إلى راكبي دراجات نارية بطريقة غريبة من جانب الطريق. ثم على مدى ثلاث ساعات اختفى عن الأنظار. وقد افترضت الشرطة، بناءً على ما قاله لميخائيليس من أنَّ "لديه طريقة لمعرفة الحقيقة"، أنه أمضى تلك الفترة من الوقت ينتقلُ من مرأب إلى آخرَ قريب منه، يسألُ عن سيارة صفراء. ومن ناحية أخرى، لم يتقدَّم أحد من أصحاب المرائب ممَّن رأوه تقدَّمَ ليُدلي بذلك، ولعلَّ كانت لديه وسيلة أسهل، وأضمن لمعرفة ما أراد أنْ يعرفه. وبحلول الساعة الثانية والنصف وصل إلى ويست إيغ، وهناك سألَ أحد الأشخاص أنْ يدلّه على الطريق إلى منزل غاتسبي. وبحلول ذلك الوقت كان قد أصبح يعرف اسم غاتسبي.

عند الساعة الثانية لبس غاتسبي رداء الاستحمام وأبلغَ الساقي بأنه إذا ما اتّصل أحدهم هاتفياً فعليه أنْ يُحضِر له الجهاز إلى بركة السباحة. وتوقف عند المرأب ليُحضِر فرشة هوائية تسلّى بها الضيوف خلال فصل الصيف، وساعده السائق الخاص في نفخها. ثم أعطى تعليماته بعدم إخراج السيارة المكشوفة في أي حالٍ من الأحوال – وكان هذا أمراً غريباً، ذلك أنَّ رفرف الدولاب الأمامي بحاجة إلى إصلاح.

حملَ غاتسبي الفرشة على كتفه وانطلقَ إلى البركة. وتوقفَ مرةً ليحركها قليلاً، وسأله السائق إنْ كان يحتاج إلى مساعدة، لكنه هزَّ رأسه نفياً وسرعان ما اختفى بين الأشجار ذات الأوراق المِصفرَّة.

لم تصله أي رسالة هاتفية، لكنَّ الساقي لم ينَمْ وانتظر رنينه حتى الساعة الرابعة – وبعد ذلك بوقت طويل لم يبقَ هناك أحد ليُسلّمه المهمة إذا ما وردت. ولديّ فكرة تقول إنَّ غاتسبي نفسه لم يكن يعتقد أنَّ أحداً سيتّصل، ولعلّه لم يعُد يأبه بذلك. فإذا صحَّ ذلك لابد أنه شعر بأنه قد فقدَ العالم القديم الدافئ، وأنه دفعَ ثمناً باهظاً للعيش طويلاً مع حلم وحيد. لابد أنه رفعَ بصره إلى السماء الغريبة من خلال أوراق الأشجار المُخيفة وارتعشَ عندما اكتشفَ كم أنَّ الوردة شيء غريب وكم أنَّ ضوء الشمس المنتشر على العشب الذي لم يكد ينمو خشن. كان عالمٌ جديد، ماديٌّ وليس حقيقياً، تتنفَّسُ الأشباح المسكينة فيه الأحلام كما تتنفس الهواء، يتحرّك بلا انتظام... مثل ذلك الشكل الرمادي، الغريب، المتقدِّم نحوه خلال الأشجار المعدومة الشكل.

سمعَ السائق – الذي كان أحد أتباع وولفشيم – الطلقات النارية – بعد ذلك كل ما استطاع أنْ يقوله هو أنه لم يهتم كثيراً بها. انتقلتُ بالسيارة من المحطة إلى منزل غاتسبي مباشرةً وكان اندفاعي القلق مرتقياً الدَرَج الأمامي هو أول شيء أثار رعب الجميع. ولكن أعتقد أنهم في ذلك الحين كانوا قد عرفوا الأمر. ودون أنْ نتفوّه بأي كلمة هرعنا نحن الأربعة، السائق والساقي والبُستاني وأنا، إلى بركة السباحة.

كانت حركة الماء ضعيفة، تكاد لا تُلاحَظ، بينما يشق الدفق الحيّ للماء طريقه من أحد الأطراف نحو منفذ التفريغ في الطرف الآخر. بتلك التغضنات القليلة التي لا تمتّ للأمواج بصِلة، تحرّكت الفرشة مع حمولتها بلا انتظام في قاع البركة. كانت هبّة صغيرة من الريح تكاد

لا تسبب تموُّج السطح كافية لتعكّر سكون مساره المؤقّت بحمولته المؤقّتة. سبَّبت لمسة من حفنة من أوراق النبات دوامة بطيئة فيه، مُقتفية، كساقٍ عابرة، أثر دائرة حمراء رفيعة من الماء.

لم ير البُستاني جثة ويلسون على مسافة قريبة بين العشب إلا بعد أنْ اندفعنا حاملين غاتسبي إلى المنزل، وكانت المذبحة قد اكتملت.

الفصل التاسع

بعد مرور عامَين لم أعُد أتذكَّر ما حدث فيما تبقّى من ذلك النهار، وفي تلك الليلة وفي اليوم الذي تلا، إلا كرتلٍ لا نهاية له من رجال الشرطة والمُصوّرين ورجال الصحافة خارج وداخل من باب منزل غاتسبي الأمامي. وامتدَّ حبلٌ عبر البوابة الرئيسية ووقفَ رجل شرطة بجواره ليمنع الفضوليين من الاقتراب، ولكن سرعان ما اكتشف صِبية صِغار أنَّ في وسعهم الدخول عبر فناء منزلي، وكانت هناك دائماً ثلة منهم تتجمَّع فاغرة أفواهها حول البركة. واستخدمَ رجلٌ يبدو واثقاً من نفسه، لعلّه تحرّ، كلمة "مجنون" عندما مال فوق جثة ويلسون بعد ظهر ذلك اليوم، وحدَّدَ صوته المُهيمن والعارِض النبرة التي يكتب بها رجال الصحافة تقاريرهم في اليوم التالي.

كان معظم التقارير كالكوابيس – غريب الأطوار، وعَرَضياً، ومتلهّفاً وغير صحيح. وعندما خرجت شهادة ميخائيليس في التحقيق لتُسلّط الضوء على شك ويلسون في زوجته حسبتُ أنَّ الحكاية كلها سوف تُقدَّم كمقطوعة هجاء لاذعة – لكنَّ كاثرين، التي كان يمكن أنْ تقول أيَّ شيء، لم تنطق بأي كلمة. بل أبدتْ قدراً مدهِشاً من السلوك الراقي أيضاً – نظرت إلى الطبيب الشرعي بعينين ثابتتين من تحت ذلك الجبين المتوازن، وأقسمَتْ على أنَّ أختها لم ترَ غاتسبي أبداً، وأنَّ أختها كانت غاية في السعادة مع زوجها، وأنَّ أختها لم ترتكب أي عملٍ مشين مهما كان. كانت مقتنعة بذلك، وراحت تبكي داخل منديلها، وكأنَّ التلميح وحده أكثر من طاقتها على تحمّله. وهكذا اختُزِلَ ويلسون إلى مرتبة

رجل "شوَّشَ الحزن عقله" لكي تبقى القضية في أبسط صيغها. وعلى هذا استقرَّتْ.

لكنَّ ذلك الجزء منها كله بدا نائياً وغير أساسي. ووجدتُ نفسي أقفُ إلى جانب غاتسبي، وحيداً. ومنذ اللحظة التي نقلتُ فيها نبأ الكارثة لقرية ويست إيغ، أصبح كل ما يتعلّق به، وكل سؤال عملي حوله، يُحالُ إليّ. في أول الأمر دُهِشتُ وارتبكت؛ ثم، ومع وجوده مُمدّداً في منزله لا تندّ عنه حركة أو نَفَس أو يتكلّم، ساعة بعد ساعة، زاد عندي الإحساس بالمسؤولية، لأنَّ لا أحد غيري أبدى أي اهتمام - أعني، ذلك الاهتمام الشديد والشخصي الذي من حق كل إنسان أنْ يحظى به في نهاية المطاف.

اتصلتُ بديزي بعد عثورنا عليه بنصف ساعة، اتصلتُ بها غريزياً ودون تردُّد. ولكنها كانت قد غادرتْ مع توم في وقتٍ مُبكِّر من بعد ظهر ذلك اليوم، وأخذا معهما أمتعتهما.

"ألم يتركا أي عنوان؟"

"كلا"

"ألم يقولا متى سيعودان؟"

"كلا"

"أليس لديك فكرة أين هما؟ أو كيف أستطيع أنْ أصل إليهما؟"

"لا أعلم. لا أعرف"

أردتُ أنْ أُحضر شخصاً يبقى معه. أردتُ أنْ أذهب إلى الغرفة التي يتمدد فيها وأطمئنه : "سأُحضر شخصاً يبقى معك، يا غاتسبي. لا تقلق. فقط ثِقْ فيّ وسأُحضر شخصاً يُلازمك"

لم يكن اسم ماير وولفشيم موجوداً في دليل الهاتف. أعطاني الساقي رقم مكتبه في برودواي، فاتصلت بالاستعلامات، ولكن ريثما حصلت على الرقم كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بوقتٍ طويل، ولم يُجِب أحد على الهاتف.

"هلاّ اتصلتَ من جديد؟"

"لقد اتصلتُ بهم ثلاث مرات"

"الأمر غاية في الأهمية"

"آسف. أخشى أنه لا يوجد أحد"

عدتُ إلى غرفة الجلوس وفكّرتُ برهة في أنَّ كل أولئك الموظفين الرسميين الذين تجمّعوا فجأةً هم زائرون بالمصادفة. ولكن، على الرغم من أنهم أزاحوا الغطاء ونظروا إلى غاتسبي بعيون مصعوقة، بقيَ احتجاجه راسخاً في ذهني :

"انظر هنا، يا صاحبي، يجب أنْ تُحضر أحداً ليُلازمني. يجب أنْ تبذل مجهوداً حثيثاً. لا يمكنني أنْ أمرّ بهذا الوضع وحدي"

بدأ أحدهم يوجّه إليّ الأسئلة، لكني اندفعت وصعدتُ إلى الطابق العلوي وأخذتُ أفتش على عجل في الأجزاء غير المُقفلة من طاولة كتابته - لم يكن قد أخبرني أبداً بأنَّ والديه قد توفيا. ولكن لم يكن هناك أي شيء يُثبت ذلك - لا يوجد إلا صورة لدان كودي، وهي تذكار لعنف منسيّ، تُحدِّق من الجدار.

في صباح اليوم التالي أرسلتُ الساقي إلى نيويورك مع رسالة إلى وولفشيم، أطلب منه فيها بعض المعلومات وأحثّه على أنْ يأتي على متن القطار التالي. بدا ذلك الطلب لا لزوم له بعد أنْ كتبته. كنتُ متأكداً من أنه سينطلق بعد أنْ يقرأ الصحف، تماماً كما كنتُ متأكداً من أنه ستصلني

برقية من ديزي قبل حلول الظهيرة – ولكن لا البرقية ولا السيد وولفشيم وصلا؛ لم يصل إلا المزيد من رجال الشرطة والمصورين والصحفيين. وعندما عاد الساقي حاملاً جواب وولفشيم بدأ يتكوَّن لديّ شعور بالتحدّي، بالتضامن الهازئ بين غاتسبي وأنا من جهة في وجه الآخرين كلهم.

"عزيزي السيد كاراواي، هذه واحدة من أسوأ ما تعرضتُ له من صدمات في حياتي ولا أكاد أصدِّق أنها وقعت. إنَّ هذا الفعل الذي ارتكبه ذلك المجنون يجب أنْ يدفعنا إلى التفكير. أنا لا أستطيع أنْ آتي الآن لأنني مرتبط بعمل غاية في الأهمية ولا أستطيع أنْ أتورط في هذا الأمر الآن. إذا كان في إمكاني أنْ أقدم أي مساعدة فسوف أفعل لاحقاً. أرسل لي ردّك عبر إدغار. إنني أتشوّش تماماً عندما أسمع عن شيءٍ كهذا وأنا مصدوم ومضطرب تماماً.

المُخلص

ماير وولفشيم

وتحت ذلك أضافَ على عَجَل :

"أعلِمني عن موعد الجنازة وما إلى ذلك، فأنا لا أعرف أحداً من عائلته"

عندما رنَّ جرس الهاتف بعد ظهيرة ذلك اليوم ووصلت مُكالمة خارجية من شيكاغو حسبتُ أنَّ ديزي اتصلتْ أخيراً. لكنَّي سمعتُ صوت رجل، رفيع جداً وبعيد جداً.

"أنا سلاغل..."

لم أتعرَّف على الاسم "نعم؟"

"رسالة سيئة جداً، أليس كذلك؟ هل وصلتكَ برقيتي؟"

"لم تصلني أي برقية"

قال على عَجَل "الشاب بارك في ورطة. لقد قبضوا عليه وهو يبيع السندات بطريقة غير مشروعة. وصلتهم رسالة من نيويورك تُعطيهم الأرقام قبل خمس دقائق فقط. ما معلوماتك عن هذا، هه؟ لا يعرف المرء ماذا يمكن أنْ يحدث في هذه المدن الحقيرة"

قاطعته بأنفاسٍ مقطوعة "ألو، اسمع - أنا لستُ السيد غاتسبي. السيد غاتسبي مات"

رانَ صمتٌ طويل على الجانب الآخر من الخط، تبعه شهقة تعجُّب... ثم قرقعة سريعة مع انقطاع الخط.

أعتقد أنه في اليوم الثالث وصلتني برقية موقَّعة باسم هنري غ. غاتس من مدينة مينيسوتا. تقول إنَّ المُرسِل مُغادر على الفور ويطلب تأجيل الجنازة حتى يعود.

كان والد غاتسبي، وهو رجل عجوز وقور، شديد العجز ومرعوب، متدثِّر بمعطف رخيص وطويل في ذلك اليوم الدافئ من أيلول. كانت عيناه تنضحان على الدوام بالإثارة، وعندما تناولت من يديه الحقيبة والمظلة بدأ يشدّ بلا توقف لحيته البيضاء الخفيفة حتى أني واجهتُ صعوبة في جعله ينزع معطفه. كان على شفا الانهيار، فأخذته إلى غرفة الموسيقى ودفعته إلى الجلوس بينما أرسلتُ في طلب طعامٍ له. لكنه لم يأكل وأُريقَ الحليب من الكأس بسبب ارتعاش يده.

قال "رأيتُ الخبر في صحيفة شيكاغو. كل شيء مذكور في صحيفة شيكاغو. وانطلقتُ على الفور"

"لم أدرِ كيف أتّصل بك"

تحرّكت عيناه تنظران بلا توقُّف، دون أنْ تريا شيئاً، في أرجاء الغرفة.

قال "الفاعل رجل مجنون. لابد أنه مجنون"

ألححتُ عليه "ألا ترغب في شرب بعض القهوة؟"

"لا أريد أيَّ شيء. أنا على ما يُرام الآن، يا سيد"

"كاراواي"

"حسن، أنا على ما يُرام الآن. أين وضعوا جيمي؟"

رافقته إلى غرفة الجلوس، حيث يُسجّى ابنه، وتركته هناك. كان بعض الصِبية الصِغار قد صعدوا الدَرَج وينظرون إلى داخل الصالون؛ وعندما أخبرتهم عن الشخص الذي وصل، ابتعدوا على مضض.

بعد قليل فتح السيد غاتس الباب وخرج، فاغر الفم، ووجهه متورد قليلاً، وعيناه تنضحان بدموع متفرّقة وغير منتظمة. كان قد بلغ عمراً لم يعُد للموت فيه صِفة المُفاجأة المُخيفة، وعندما تلفَّتَ حوله عندئذٍ للمرة الأولى ورأى ارتفاع الصالة وفخامتها والغرف العظيمة المفتوحة التي تؤدي إلى غرفٍ أخرى، وبدأ حزنه يمتزج بفخر ورهبة. ساعدته في الصعود إلى غرفة النوم في الطابق العلوي؛ وبينما كان يخلع معطفه وبذلته أخبرته بأنَّ كل الاستعدادات قد أُرجئت حتى تعود.

"لم أعرف ما الذي تريده، يا سيد غاتسبي –"

"اسمي غاتس"

"– يا سيد غاتس. ظننتُ أنكَ يمكن أنْ ترغب في أخذ الجثمان إلى الغرب"

هزَّ رأسه نفياً.

"لطالما كان جيمي يُفضّل المكوث في الشرق. لقد ارتقى إلى مكانته وهو في الشرق. هل كنتَ صديقاً لابني، يا سيد -؟"

"كنا صديقَين مُقرَّبَين"

"لقد كان ينتظره مستقبل باهر، كما تعلم. كان لا يزال شاباً، لكنه كان يمتلك عقلاً جباراً ليستخدمه هنا"

لمسَ رأسه بشكلٍ مؤثِّر، فهززتُ رأسي موافقاً.

"لو أنه بقيَ حياً، لأصبح رجلاً عظيماً. رجل مثل جيمس ج. هيل. كان سيُساعد في بناء البلد"

قلت، بانزعاج، "هذا صحيح"

عبثَ بالغطاء المُزخرف، في محاولةٍ ليُزيحه عن السرير، ثم استلقى قطعة واحدة - وعلى الفور استغرقَ في النوم.

في تلك الليلة اتّصل شخص خائف بكل وضوح، وطلبَ معرفة مَنْ أكون قبل أنْ يُعطي اسمه.

قلت "أنا السيد كاراواي"

سمع زفرة ارتياح "أوه! أنا كليبسبرينغر"

أنا أيضاً شعرتُ بالارتياح، لأنَّ ذلك كان يعِدُ بحضور صديق آخر عند قبر غاتسبي. لم أرغب في ورود الخبر في الصحف وجذب حشد يُحب الفُرجة، لذا قمتُ بالاتصال بعدد من الناس بنفسي. وكان العثور عليهم أمراً صعباً.

قلت "الجنازة ستقام غداً. عند الساعة الثالثة، هنا في المنزل. أتمنى أنْ تُخبر كل مَنْ يهمّه الأمر"

قال على عجَل "أوه، سأفعل. طبعاً في الغالب لن أرى أحداً، لكني سأفعل"

نبرة صوته ولّدت لديّ الشك.

"طبعاً ستكون أنتَ نفسك موجوداً"

"حسن، حتماً سأحاول. إنَّ ما اتّصلت لأجله هو"

قاطعته "انتظر لحظة. ما رأيك أنْ تقول إنك ستحضر؟"

"حسن، الحقيقة هي – حقيقة الأمر هي أنني أمكثُ مع بعض الأشخاص هنا في غرينيتش، وهم يتوقعون مني أنْ أكون معهم غداً. في الحقيقة، سنقوم بنزهة أو ما شابه. طبعاً سأبذل قُصارى جهدي لأفلت منهم"

لم أتمكن من كبح "هاه!" خرجت مني، ولابد أنه سمعني، لأنه تابعَ بعصبيّة:

"إنَّ ما اتّصلتُ بشأنه هو حذاء كنتُ قد تركته هناك. أتساءل إنْ كان يُزعجكَ كثيراً أنْ ترسله إليّ مع الساقي. في الواقع، إنه حذاء لعبة كرة المضرب، وأنا أشعر بالعجز من دونه. عنواني هو ب.ف"

لم أسمع باقي الاسم، لأني أعدتُ السماعة إلى مكانها.

بعد ذلك شعرتُ بأسفٍ حقيقي من أجل غاتسبي – أحد السادة المحترمين الذين اتصلتُ بهم هاتفياً ألمحَ إلى أنه حصل على ما يستحق. على أي حال، كانت تلك غلطتي، لأنه كان أحد أولئك الذين كانوا يهزؤون بشدّة بغاتسبي وهو تحت تأثير خمر غاتسبي، وكان ينبغي أنْ أتمتّع بمزيد من الفطنة ولا أتّصل به.

فِي صباح يوم الجنازة ذهبتُ إلى نيويورك لأقابل ماير وولفشيم؛ فلم أتمكَّن من الوصول إليه بأي طريقة أخرى. الباب الذي دفعته لأفتحه، تطبيقاً لنصيحة صبي المصعد، كُتِبَ عليه "شركة الصليب المعقوف المُهيمنة"، وفي أول الأمر بدا أنه لا يوجد أحد في الداخل. ولكن عندما هتفتُ "مرحبا" مراتٍ عِدّة دون جدوى، تصاعدَ صوت جدل من خلف جدار فاصل، وسرعان ما ظهرت فتاة يهودية جميلة من باب داخلي وراحت تُنعِمُ النظر فيّ بعينين سوداوين عِدائيَّتين.

قالت "لا أحد في الداخل. السيد وولفشيم ذهب إلى شيكاغو"

الجزء الأول من هذه المعلومة لم يكن صحيحاً بكل وضوح، لأنَّ أحدهم بدأ يُصفِّر لحن "المسبحة"، بلا تنغيم، في الداخل.

"أرجوكِ أخبريه أنَّ السيد كاراواي يريد أنْ يراه"

"لا أستطيع أنْ أُعيده من شيكاغو، أليس كذلك؟"

في تلك اللحظة هتف صوت، كان صوت وولفشيم دون أدنى شك "ستيلا!" من الجانب الآخر للباب.

قالت بسرعة "اترك اسمك على الطاولة. سأعطيه إياه عندما يعود"

"لكني متأكد من أنه هناك"

خطَتْ خطوة نحوي وبدأتْ تُمرِّر يديها صعوداً وهبوطاً على طول وركيها بسخط.

قالت مُعنِّفة "إنكم معشر الشبّان تظنّون أنَّ في إمكانكم أنْ تقتحموا هذا المكان في أي وقتٍ تشاؤون. لقد طفحَ كيلنا. عندما أقول إنه في شيكاغو، هذا يعني أنه في شيكاغو"

فأتيتُ على ذِكر غاتسبي.

"أوه – ه! " ونظرت إليّ من جديد. "هل لك فقط يا – ماذا قلتَ اسمك؟"

اختفتْ. وفي الحال ظهر ماير وولفشيم واقفاً بوقار في ممر الباب، ماداً كلتا يديه. جرّني إلى غرفة مكتبه، مُشيراً بصوت موقّر إلى أنّه وقت عصيب بالنسبة إلينا جميعاً، وقدَّمَ إليّ سيجاراً.

قال "إنّني أتذكَّر أول مرة قابلته فيها؛ كان رائداً شاباً ترك الجيش حديثاً ومُغطّى بالأوسمة التي نالها في أثناء الحرب. كان في حالةٍ من العوز الشديد وظل يرتدي زيّه الرسمي لأنه لم يكن قادراً على شراء ملابس عادية. المرة الأولى التي رأيته فيها كانت عندما كان في مكتب مُراهنات واينبرينر في الشارع الثالث والأربعين وكان يسأل عن عمل. لم يكن قد أكلَ شيئاً منذ يومين. قلت "ستناول طعام الغداء معي". وأكل ما يتجاوز قيمة أربع دولارات من الطعام خلال نصف ساعة.

سألته "هل ساعدته في إيجاد عمل؟"

" ساعدته! قُل صنعتُه"

"أوه"

"لقد رفعته من الحضيض، من أسفل الحمأة. أدركتُ على الفور أنه شاب وسيم ومحترم، وعندما أخبرني أنه كان ملتحقاً بأوغسفورد[11] علِمتُ أنَّ في استطاعتي أنْ أساعده بشكلٍ جيد. فجعلته ينضم إلى "الفيلق الأميركي" وكان مركزه عالٍ هناك. وسرعان ما أنجز عملاً لزبون لي في "ألباني". وكنا متلازمين هكذا في كل شيء – ورفع إصبعَين منتفخَين – "دائماً معاً"

---

(١١) يعني : أوكسفورد. نطقها كما يفعل بعض الأجانب ، كالألمان مثلاً. – المترجم

تساءلتُ إنْ كانت تلك الشراكة تضمَّنتْ التلاعب في مباريات عام ١٩١٩.

بعد برهة قلت "الآن بعد أنْ توفي، أصبحتَ أنتَ أقرب أصدقائه المُقرّبين، وأنا أعلم أنكَ سترغب في حضور جنازته بعد ظهيرة هذا اليوم"

"أودّ لو أحضر"

"حسن، احضرْ إذن"

ارتعش شعر منخريه قليلاً، وعندما هزّ رأسه نفياً امتلأت عيناه بالدموع.

قال "لا أستطيع – لا أستطيع أنْ أتورّط في هذا"

"لن تتورط في أي شيء. لقد انتهى كل شيء"

"عندما يُقتل شخص لا أحب أنْ أتورَّط في الأمر بأي شكل. أبقى بعيداً. عندما كنتُ شاباً صغيراً كان الأمر مختلفاً – لو مات صديقٌ لي، كنتُ أبقى معه حتى النهاية، مهما كانت العواقب، أنا جادّ فيما أقول – حتى النهاية المريرة"

وجدتُ أنه، ولسببٍ خاصٍ به، صمَّمَ على عدم الحضور، لذا نهضتُ واقفاً.

فجأةً سألني "هل أنت خريج جامعة؟"

ظننتُ للوهلة الأولى أنه ينوي اقتراح إقامة "اتّصال"، لكنه اكتفى بهزّ رأسه ومصافحتي.

اقترحَ قائلاً "فلنتعلّم أنْ نُظهِر صداقتنا لشخص وهو حيّ! وليس بعد أنْ يموت. أما بعد ذلك فقاعدتي تقول فلندع كل شيء وشأنه"

بعد أنْ غادرتُ مكتبه كانت السماء قد أضحتْ مظلمة فرجعتُ إلى إيست إيغ منقوعاً بالرذاذ. وبعد أنْ بدَّلتُ ملابسي ذهبت إلى جاري

فوجدتُ السيد غاتس يذرع الصالون جيئة وذهاباً بانفعال. كان افتخاره بابنه وبممتلكات ابنه تزداد باطّراد والآن أصبح لديه ما يُريني إياه.

أخرج محفظة نقوده من جيبه بأصابع مرتعشة "لقد أرسل لي جيمي هذه الصورة. انظر هنا"

كانت صورة فوتوغرافية للمنزل، مُشقّقة عند الزوايا وقذرة من كثرة الأيدي التي تداولتها. أشارَ إلى كل تفصيل بيديه بلهفة. "انظر هنا!"، ثم أخذ يفتش عن الإعجاب في عينيّ. كان قد عَرَضها مراتٍ كثيرة بحيث أعتقدُ أنها أضحتْ حقيقية بالنسبة إليه أكثر من المنزل نفسه.

"جيمي أرسلها إليّ. أعتقد أنها صورة جميلة جداً. إنها واضحة"

"حسنٌ جداً. هل رأيته مؤخراً؟"

"لقد جاء لرؤيتي قبل عامَين واشترى لي المنزل الذي أعيش فيه الآن. طبعاً كنا مفلسين عندما هرب من المنزل، لكنني أرى الآن أنه كان لديه سبب وجيه لذلك. كان يعلم أنَّ مستقبلاً عظيماً ينتظره. ومنذ أنْ حقّقَ النجاح أصبح شديد الكرم معي"

بدا كارهاً أنْ يُبعِد الصورة، فحملها دقيقة أخرى، متلكّئاً، أمام عينيّ. ثم أعاد المِحفظة إلى مكانها وأخرج من جيبه نسخة عتيقة رثّة من كتابٍ عنوانه "هوبالونغ كاسيدي".

"انظر هنا، هذا كتاب كان بحوزته وهو صغير. إنه يُعطي فكرة"

فتحه من الغلاف الخلفي وقلّبه لكي أراه. على الورقة البيضاء الأخير فيه طُبِعَت كلمة "جدول"، والتاريخ ١٢ أيلول، ١٩٠٦. وتحته :

النشاط	موعد النشاط
النهوض من الفراش	الساعة ٦
تمارين الكرتين الحديديتين والتوازن على الجدار	من ٦ وربع إلى ٦ ونصف
دراسة مادة الكهرباء، الخ	من ٧ وربع إلى ٨ وربع
عمل	من ٨ ونصف إلى ٤ ونصف
عمل= بيسبول ورياضة	من ٤ ونصف إلى ٥
التدرُّب على الإلقاء، والوِقفة وكيفية إنجازهما	من ٥ إلى ٦
الدراسة التي تحتاج إلى ابتكارات	من ٧ إلى ٩

قرارات عامة

عدم إهدار الوقت عند شافترز أو [اسم غير مقروء]

الامتناع عنه التدخين أو مضغ العلكة.

الاستحمام كل يومين.

قراءة كتاب مفيد واحد أو مجلة كل أسبوع.

توفير خمسة دولارات [مشطوب] ثلاثة دولارات كل أسبوع.

حُسن معاملة الوالدَين.

قال العجوز "لقد عثرتُ على هذا الكتاب مُصادفة. إنه يُعطي فكرة، أليس كذلك؟"

"إنه يُعطي فكرة واضحة "

"كان جديراً بجيمي أنْ يُحقق تقدُّماً. كان دائماً يتخذ قرارات كهذه أو ما شابه. هل تلاحظ ماذا كتب عن تطوير عقله؟ كان دائماً بارعاً لهذا السبب. لقد أخبرني ذات مرة أني آكل مثل الخنزير، فضربته على الأثر"

كان كارهاً لإغلاق الكتاب، ويقرأ كل بند بصوتٍ عالٍ ومن ثم ينظر إليّ بلهفة. وأعتقد أنه كان يتوقَّع مني أنْ أدوّن نسخة من القائمة لكي أستفيد منها.

قُبيل الساعة الثالثة بقليل وصل القسّ اللوثري من فلاشنغ، وبدأتُ أنظر تلقائياً من النوافذ ترقُّباً لوصول سيارات أخرى. وكذا فعل والد غاتسبي.

ومع مرور الوقت ودخول الخدم ووقوفهم في الصالون منتظرين، بدأتْ عيناه ترفّان بقلق، وتحدَّثَ عن المطر بطريقةٍ قلِقة، مشوبة بالشك. ألقى القس مراراً نظرات سريعة في ساعته، فأخذته جانباً وطلبتُ منه أنْ ينتظر مدة نصف ساعة. ولكن بلا فائدة. لم يأتِ أحد.

عند حوالي الساعة الخامسة وصل موكبنا المؤلَّف من ثلاث سيارات إلى المقبرة ووقفَ تحت رذاذٍ غزير بجوار البوابة - أولاً سيارة الجثمان، السوداء والرطبة بشكلٍ مفزع، ثم السيد غاتس والقس وأنا في سيارة الليموزين، وبعد ذلك بقليل أربعة أو خمسة من الخدم وساعي البريد من ويست إيغ، في سيارة غاتسبي الستيشن، وكلهم منقوعين بالمطر حتى العظم. ومع ولوجنا البوابة إلى المقبرة سمعت سيارة تتوقف ومن ثم صوت شخص قادم خلفنا يخبط الماء على الأرض المُشبعة به. تلفّتُ حولي. فرأيتُ الرجل ذا نظارة عينيّ البوم الذي كنتُ قد وجدته يُبدي إعجابه بكتب غاتسبي في المكتبة في ليلة معيَّنة قبل ذلك بثلاثة أشهر.

لم أكن قد رأيته منذ ذلك الحين. ولا أدري كيف عرف بأمر الجنازة، أو حتى باسمه. كان المطر يجري غزيراً على زجاج النظارة السميك، فنزعها ونظّفها ليرى رقعة الكنفا الواقعية المتدلية من قبر غاتسبي.

عندئذٍ حاولتُ لبرهة أنْ أفكّر في غاتسبي، لكنه كان قد أصبحَ بعيداً جداً، ولم أتمكن إلا من أنْ أتذكَّر، دون امتعاض، أنَّ ديزي لم تُرسل برقية أو زهرة. وسمعتُ بشكلٍ مبهم صوت غمغمة "بورك الموتى الذين يهطل المطر عليهم"، ثم قال الرجل ذو نظارة البوم "آمين"، بصوتٍ جريء.

انتشرنا بلا انتظام هابطين بسرعة خلال المطر نحو السيارات. كلَّمني ذو عيني البوم عند البوابة.

علّقَ "لم أتمكن من الوصول إلى المنزل"

"ولا أحد تمكّن"

باشر بالقول "مستحيل! لماذا، يا إلهي! كانوا يتوافدون إلى هناك بالمئات"

نزعَ نظارته ونظّفها من جديد، من الخارج والداخل.

قال "يا لابن الحرام المسكين"

أشد ما أذكره حيوية هو عن عودتي إلى ويست من المدرسة الإعدادية ولاحقاً من الكلّية خلال عُطلة عيد الميلاد. وكان أولئك الذين ذهبوا أبعد من شيكاغو يجتمعون في يونيون ستيشن القديمة المُعتمة عند الساعة السادسة ذات ليلة من شهر كانون أول، مع بعض الأصدقاء من شيكاغو، الذين تجمّعوا أصلاً ليستمتعوا بمسرات العطلة، لكي يُودعوهم وداعاً سريعاً. أتذكّر معاطف الفرو التي ترتديها فتياتهم العائدات من زيارة لإحدى السيدات والثرثرة بأنفاس متجمدة والأيدي التي تلوّح فوق الرؤوس عندما نلمح معارف قدامى، وتنافس الدعوات "هل أنتم ذاهبون لزيارة آل أوردواي؟ أم آل هيرسي؟ أم آل شولتس؟"، والبطاقات الخضراء الطويلة التي نمسكها بحزم بأيدينا ذات القفازات. وأخيراً سيارات سكة حديد شيكاغو وميلووكي وسينت بول الصفراء المُضبّبة تبدو بهيجة كعيد الميلاد نفسه على الممرات بجوار البوابة.

عندما خرجنا إلى ليل الشتاء وبدأ الثلج الحقيقي، ثلجنا، يمتد بجانبنا ويتلألأ على النوافذ، والأضواء المُعتمة لمحطات ويسكونسن الصغيرة يمر من أمامنا، أصبح الهواء فجأةً منعشاً بشكلٍ حادٌ وعنيف. استنشقنا منه دفقات عميقة ونحن نمشي عائدين من وجبة العشاء خلال الردهات الباردة، واعين إلى أقصى مدى انتمائنا إلى هذا البلد على مدى ساعة

غريبة، قبل أنْ نذوب فيه من جديد بشكلٍ تام.

هذا هو الغرب الأوسط كما عرفته – ليس القمح أو البراري أو المدن السويدية الضائعة، بل قطارات شبابي المُثيرة العائدة، ومصابيح الشوارع وأجراس عربات الجليد في الظلام المتجمِّد وظلال الأكاليل المقدسة التي تُرمى من نوافذ مُضاءة إلى الثلج. إنني جزء من ذلك، ينتابني شيء من الكآبة مع فصول الشتاء الطويلة تلك، وشيء من الرضا عن النفس جرّاء نشوئي في منزل كاراواي في مدينة لا زالت المنازل تُكنّى فيها منذ عقود باسم العائلة. إنني أفهم الآن أنَّ هذه كانت قصة عن الغرب، قبل أي شيء – إنَّ توم وغاتسبي، وديزي وجوردان وأنا، كلنا من الغرب، ولعلنا نشترك معاً في بعض النقائص جعلتنا غير مؤهّلين بدقّة للتكيُّف مع حياة الشرق.

حتى عندما أثارني الشرق أشد إثارة، حتى عندما كنتُ في أشد حالات الوعي بتفوّقه على المدن المملولة، المنبسطة، والمنتفخة، التي تقع ما بعد نهر أوهايو، بتحقيقاتها المُطوَّلة التي لا تستثني إلا الأطفال والعجائز – حتى عندئذٍ كانت دائماً تتصف بالنسبة إليّ بأنها مُدمِّرة. وويست إيغ، على وجه الخصوص، لا زالت تتمثَّل في أشدّ أحلامي جموحاً. إنني أراها كمشهدٍ ليليّ رسمه إل غريكو : مائة منزل، في وقت واحد تقليدي وغريب الشكل، تجثم تحت سماءٍ مكفهّرة، مُهدِّدة، وقمر بلا بريق. في المقدّمة أربعة رجال متجهمين بملابس رسمية يسيرون على طول رصيف حاملين نقّالة تتمدَّد عليها امرأة سكرى بملابس بيضاء. يدها، المتدلية عبر الحافة، تتلألأ بالبرد وبالجواهر. ينعطف الرجال بوجوم إلى داخل منزل – المنزل الخطأ. ولكن لا أحد يعرف اسم المرأة، ولا أحد يهتم بذلك.

بعد وفاة غاتسبي أصبحت منطقة إيست مسكونة على ذلك الشكل، مُدمَّرة بصورة تعجز معها قِوى عينيّ على إصلاحها. لذا عندما انتشر

الدخان الأزرق لأوراق النبات الهشّة في الجو وهبّت الرياح وجفّفتْ الغسيل الرطب حتى اليباس على الحبل قرّرتُ أنْ أعود إلى وطني.

بقيَ شيء واحد يجب أنْ أفعله قبل أنْ أغادر، شيء أخرق، مزعج، ربما كان من الأفضل تركه وشأنه. لكني أردتُ أنْ أترك الأمور وهي مُرتّبة ولا أتّكل فقط على ذلك البحر اللطيف واللا مبالي ليزيل نفايتي. رأيتُ جوردان بيكر وتحدثنا حول كل التباسات ما حدث لنا كلنا، وما حدث لي بعد ذلك، وجلستْ هي ساكنة لا تُبدي حِراكاً، تصغي، على كرسي كبير.

كانت ترتدي زي لعبة الغولف، وأذكُرُ أني رأيتُ أنها تشبه رسماً جيداً، بذقنها المرفوعة قليلاً بأناقة، وشعرها ذي لون ورق الخريف، ووجهها ذي لون أسمر خفيف كلون القفاز المعدوم الأصابع على ركبتها. وعندما انتهيت أخبرتني دون تعليق بأنَّ خُطِبَتْ إلى رجل آخر. وشككتُ في ذلك، على الرغم من أنها كان يمكن أنْ تتزوج من عدد كبير كانوا متوفرين بإشارة من رأسها، لكني تظاهرتُ بالدهشة. وتساءلتُ لبرهة من الوقت إنْ لم أكن قد ارتكبتُ غلطة، ثم أعدتُ التفكير من جديد في كل شيء بسرعة ونهضتُ لأودعها.

قالت جوردان فجأةً "ومع ذلك تخليتَ عني. تخليتَ عني عبر الهاتف. أنا الآن لا يهمني أمرك، لكنها كانت تجربة جديدة بالنسبة إليّ، وشعرتُ ببعض الدوار لبعض الوقت"

وتصافحنا.

أضافت "أوه، وهل تذكُر ذلك الحديث الذي دار بيننا ذات مرة عن قيادة السيارة؟"

"في الواقع – ليس بالضبط"

"لقد قلتَ إنَّ السائقة الرديئة تبقى سالمة إلى أنْ تقابل سائقاً رديئاً آخر؟ حسن، لقد قابلتُ سائقاً رديئاً آخر، ألم أفعل؟ أعني أنه كان إهمالاً مني أنْ أضمر مثل ذلك التخمين. لقد اعتقدتُ أنكَ إنسان صادق، وصريح. اعتقدتُ أنَّ هذا هو افتخارك السرّي"

قلت "أنا في الثلاثين من عمري، وأكبر بخمس سنوات من سن الكذب على نفسي وتسمية ذلك شرفاً"

لم تُجِب. أشحتُ بنظري عنها وأنا غاضب، وشبه عاشق لها، وشاعراً بأسفٍ هائل.

بعد ظهيرة أحد أيام أواخر شهر تشرين أول رأيتُ توم بيوكانن. كان يسير على مسافة أمامي على طول الجادّة الخامسة بمشيته الرشيقة، العدائية، ويداه تبتعدان قليلاً عن جسمه وكأنما لإبعاد أي تدخُّل، ورأسه يتحرَّك بحِدَّة هنا وهناك، ليتلاءم مع عينيه القلقتين. وعندما بدأتُ أُبطئ خطوتي لأتجنَّب اللحاق به توقَّفَ وبدأ ينظر بعبوس إلى واجهات محل لبيع المجوهرات. وفجأةً رآني ومشى عائداً إليّ، ومدّ لي يده :

"ما الأمر، يا نيك؟ ألديك اعتراضٌ على مُصافحتي؟"

"نعم. أنتَ تعرف رأيي فيك"

قال بسرعة "أنتَ مجنون، يا نيك. مجنون كالجحيم. لا أدري ماذا ألَمَّ بك"

سألتهِ "توم، ماذا قلتَ لويلسون بعد ظهيرة ذلك اليوم؟"

حدَّقَ إليَّ دون أنْ يتفوَّه بكلمة، وتأكَّدتُ من أنَّ تخميني صحيح حول تلك الساعات الضائعة. وبادلته التحديق، لكنه سبقني بخطوة وقبضَ على ذراعي.

قال "لقد قلتُ له الحقيقة. لقد جاء إلى الباب بينما كنا نستعد للمغادرة، وعندما قلت إننا لم نكن في داخلها حاولَ أنْ يندفع إلى الطابق

العِلوي. كان كالمجنون وجديراً بأنْ يقتلني لو لم أخبره مَنْ هو صاحب السيارة. كان يضع يده على المسدس الذي يحتفظ به في جيبه طوال فترة وجوده في المنزل – "ثم انطلقَ يقول بتحدٍ "وماذا لو قلتُ له؟ إنَّ ذلك الرجل كان سيلقى جزاءه. لقد ذرَّ الرماد في عينيك كما ذرّه في عينيّ ديزي، لكنه كان صلباً. لقد دهسَ مرتل كما يدهس المرء كلباً ولم يُكلِّف نفسه حتى عناء إيقاف سيارته"

لم يبقَ لديّ ما أقوله، غير الحقيقة الوحيدة التي لا يمكن البوح بها وهي أنَّ ذلك غير صحيح.

"وإذا ظننتَ أني لم أنلْ نصيبي من الألم – انظر هنا، عندما ذهبتُ لأتخلى عن تلك الشقّة ورأيتُ تلك العلبة اللعينة من بسكويت الكلاب على الخوان، جلستُ ورحتُ أبكي كالطفل. وحقُّ الله كان شيئاً فظيعاً"

لم أستطع أنْ أغفر له أو أحبه، لكني وجدتُ أنَّ ما فعله كان، بالنسبة إليه، مُبرّراً تماماً. لقد كان الأمر كله يلفّه اللامبالاة والاضطراب. لقد كان توم وديزي قوماً لا مبالين – لقد حطّما كل شيء وكل المخلوقات ومن ثم انسحبا متراجعَين إلى أموالهما أو لا مبالاتهما الهائلة، أو كائناً ما كان ما جمعهما معاً، وتركوا للآخرين أمر إزالة الفوضى التي أحدثاها...

صافحته؛ بدا أنَّ من السخف ألا أفعل ذلك، لأنني شعرتُ فجأةً وكأنَّني كنتُ أتحدث مع طفل. ثم ولجَ محل بيع المجوهرات لكي يشتري عقداً من اللؤلؤ – أو ربما فقط زوجاً من أزرار الأكمام – وتخلّصَ من حساسيتي الريفية المفرطة إلى الأبد.

عندما رحلت كان منزل غاتسبي لا يزال خاوياً – كان العشب في مرجه قد نما كثيراً كما في مرجي. وأحد سائقي سيارات الأجرة في القرية كان كلما حمل راكباً ومرَّ من بوابة الممر يتوقف برهة ويُشير إلى الداخل؛ لعلّه هو الذي نقلَ ديزي وغاتسبي إلى إيست إيغ في ليلة

الحادثة، ولعله نسجَ قصة حولها من بنات مخيلته. لم أرغب في سماعها وتفاديته عندما ترجّلتُ من القطار.

صرتُ أقضي سهرات أيام السبت في نيويورك لأنَّ حفلاته البرّاقة، المذهلة تلك كانت ترافقني بكل حيوية حتى أني لا أزال أسمع الموسيقى ورنين الضحكات، واهنة ومتواصلة، تتناهى من حديقته، والسيارات تسير على طول الممر. وذات ليلة سمعتُ فعلاً اقتراب سيارة حقيقية، وشاهدتُ أضواءها وتوقفت عند دَرَج منزله. لكني لم أتحقَّق من الأمر. لعلها كانت تخص ضيف أخير كان مسافراً في آخر الدنيا ولم يكن يعلم أنَّ الحفلة قد انتهت.

في الليلة الأخيرة، بعد أنْ حزمتُ حقيبتي وبعت سيارتي للبقّال، ذهبتُ وألقيتُ نظرة أخيرة على ذلك الفشل الضخم غير المتناسق الذي كان منزله. على الدَرَج الأبيض كُتِبَت كلمة بذيئة، خُطَّتْ بيد أحد الصِبية بقطعة من الآجر، برزت بوضوح تحت ضوء القمر، فمحوتها، وذلك بجرّ حذائي بانزعاج على طول الحجر. ثم رحتُ أتمشّى حتى الشاطئ وتمدَّدتُ على الرمال.

كان مُعظم الأماكن الكبيرة على الشاطئ مغلق ولم يكن يُرى من الأضواء إلا وهج متحرك، كالشبح لعبّارة تعبر خليج الساوند. ومع ارتفاع القمر عالياً بدأتْ منازل لا أهمية لها تذوب وتتلاشى إلى أنْ أصبحتُ أعي بالتدريج الجزيرة القديمة هنا التي ازدهرت ذات يوم في عيون بحارة هولنديين - كصدر أخضر، نضر، لعالمٍ جديد. أشجارها المتلاشية، الأشجار التي أفسحت المجال لمنزل غاتسبي، همست ذات يوم بكلام داعر على مسمع آخر وأعظم الأحلام الإنسانية قاطبة؛ ولابد أنَّ الإنسان قد حبسَ أنفاسه لبرهة ساحرة وعابرة من الزمن أمام هذه القارة، أُجبِرَ على الغوص في تفكير جماليّ لا يفهمه ولا يرغب فيه،

ووقف وجهاً لوجه للمرة الأخيرة في التاريخ مع شيء مُساوٍ لمقدرته على التعجُب.

بينما كنتُ جالساً أتأمّل بحزن في العالم القديم، المجهول، فكّرتُ في تعجُب غاتسبي عندما لمحَ الضوء الأخضر على جانب ديزي من الرصيف. كان قد قطع مسافة طويلة حتى وصل إلى هذا المرج الأزرق، ولابد أنَّ حلمه بدا شديد القُرب بحيث لا يمكن أنْ يفشل في الإمساك به. لم يكن يعلم أنه أصبحَ خلفه، في مكانٍ ما في ذلك الغموض الشاسع الذي يتجاوز المدينة، حيث الحقول المظلمة للجمهورية تمتد وتتسع تحت جنح الليل.

لقد آمن غاتسبي بالضوء الأخضر، بالمستقبل الحسّي الممتع الذي يتراجع عاماً بعد عام أمامنا. حينئذٍ كان يُراوغنا، ولكن لا يهم - غداً سنركض أسرع، نفتح أذرعنا أكثر... وذات صباح -

وهكذا نتقدَّم، كقوارب تسير عكس التيار، عائدين دون توقف إلى قلب الماضي.

= انتهى =

الفهرست

ثم اعتمر القبعة الذهبية، إن كان هذا يؤثر فيها.

إن استطعت أن تقفز عالياً اقفز أيضاً من أجلها.

إلى أن تهتف " يا حبيبي يا صاحب القبعة الذهبية حبيبي العالي القفز .

يجب أن أحظى بك !"

من قصيدة توماس بارك "D'invilliers"

تصميم الغلاف ماجد الماجدي

